عبد العزيز الثعالبي

الرحلة اليمنية

12 أغسطس - 17 أكتوبر 1924



تقديم وتحقيق

حمادي الساحلي



دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

دار الغرب الإسلامي
ص. ب. 5787 - 113 بيروت

بسم الله الرحمٰن الرحيم

تقديم

من بين مخلّفات المغفور له الشيخ عبد العزيز الثعالبي التي احتفظ بها المرحوم الدكتور أحمد بن ميلاد طوال أكثر من نصف قرن، يوجد ملفّ يحمل عنوان «**الرحلة اليمنيّة**» ويحتوي على الوثائق التاليّة:

1 ــ رسالة بتاريخ 11 أكتوبر 1924، في شكل مسودّة كان وجّهها الثعالبي إلى صديقه المرحوم محمد المنصف المنستيري، عضو اللّجنة التنفيذيّة للحزب الحرّ الدستوري التونسي، يصف فيها مراحل الرّحلة التي قام بها في اليمن من 12 أوت إلى 17 أكتوبر 1924. وهي وثيقة مكتوبة بخطّ المؤلّف وتقع في 58 صفحة من الحجم الكبير.

2 ــ مجموعة من الوثائق المتعلّقة بالجهود التي بذلها الثعالبي خلال هذه الرحلة لدى الإمام يحيى وقادة المحميّات البريطانيّة التابعة لمستعمرة عدن لتوحيد البلاد اليمنيّة.

3 ــ وثائق أخرى تتعلّق بالمهمّة التي قام به المؤلّف سنة 1926 في الحجاز واليمن لتحقيق المصالحة بين سلطان نجد والحجاز عبد العزيز بن السعود (1880 ـ 1953)، وإمام اليمن يحيى بن محمد حميد الدين (1868 ـ 1948).

4 ـ تقرير عن الزيارة التي أدّاها نفس الشخص إلى عدن وسلطنة لحج من 29 نوفمبر إلى 6 ديسمبر 1936 في طريقه إلى الهند.

5 ـ نصوص الرسائل المتبادلة حول القضيّة اليمنيّة بين الشيخ عبد العزيز الثعالبي وبين المسؤولين والوطنيّين اليمنيّين والعدنيّين، وبعض الشخصيّات العربيّة، أمثال الأمير شكيب أرسلان والمجاهد الفلسطيني محمد علي طاهر والزعيم السوري أحمد مريود.

وقد تفضّلت السيّدة نبيهة بن ميلاد أرملة المرحوم الدكتور أحمد بن ميلاد بتسليم تلك الوثائق إلى الحاج الحبيب اللّمسي، صاحب دار الغرب الإسلامي، ليتولّى نشرها، نظراً إلى ما تعرفه عنه من حرص شديد على إحياء آثار الثعالبي.

وبعد فحص الوثائق المذكورة البالغة الأهميّة، قرّرت تلك المؤسّسة نشرها في كتاب يحمل نفس العنوان الذي اختاره المؤلّف، «الرّحلة اليمنيّة»، واقترحت عليّ تقديم ذلك الكتاب والتعليق على محتواه لمزيد الشرح والتوضيح.

* * *

وممّا لا شكّ فيه أن أهمّ قسم من الكتاب يتمثّل في الرحلة إلى اليمن، التي وصف المؤلّف مراحلها بالتفصيل على غرار الرّحالة العرب السابقين أمثال ابن رُشَيْد والعبدري وابن جُبَيْر وابن بطوطة وغيرهم. فقد أطنب في الحديث عن مشاهداته الدقيقة وملاحظاته الطريفة طوال سفره من عدن إلى صنعاء، ذهاباً وإياباً، ولم تَفُتْه شاردة ولا واردة. حيث إنّه وصف جميع المدن والقرى التي مرّ بها، والمناظر الطبيعيّة الخلاّبة التي شاهدها، والمغامرات التي واجهها، والأخطار التي تعرّض لها خلال الرحلة. وذكر أسماء الجبال والأودية والتلال والفجاج التي اجتازها، كما أشار إلى كلّ ما شاهده من حيوانات ونباتات وأزهار وأشجار مثمرة، وكلّ ما لفت نظره من أشجار خشبيّة على الجبال

والهضاب، منها ما تمكنّا من تعريفها بالاعتماد على كتاب أبي القاسم الغسّاني المشهور بالوزير، «حديقة الأزهار في ماهيّة العشب والعقّار»، ومنها ما لم نهتدِ إلى معرفتها، كالأثب والعلفق والعمق وغيرها.

ولكنّ الثعالبي الذي حاكى في وصف رحلته أسلوب قدماء الرحّالة العرب، لم يقتصر دائماً ـ والحقّ يقال ـ على الوصف الجافّ للمناظر والمشاهد، بل كان يعمد أحياناً إلى سرد بعض النوادر والأقاصيص الخياليّة منها والواقعيّة، مثل قصّة سلطان الجانّ سعيد المنصر الذي كان يسيطر على أحد الجبال التي مرّ منها الثعالبي، حسب رواية مرافقه اليمني، وقد علّق عليها بقوله:

«أستغرب من نفسي كيف صرت أسمع هذه الأقاصيص بارتياح ولا أعمد لتسفيه القائلين بها».

وأحياناً أخرى يعتمد على عنصر الخيال الفنّي الذي يضفي على أسلوبه صبغة أدبيّة مُمَيّزة. كقوله لمّا اجتاز أحد الأودية الغنّاء:

«هناك تسمع لغى الطير وصفيره وأنغامه الشجيّة، وتراها تطير وتجري أمامك ومن حولك كأنّها مُرَحِّبة بك تناشدك الرحمة والولاء».

أو قوله لمّا مرّ من وادٍ آخر:

«كان يُخيَّل إليّ وأنا في وسط الوادي بين الأشجار، والنسيم يهبّ من آونة إلى أخرى، كأنّه طالب حاجة يريد أن يدنو منّي فيُقعِده الحياء».

أمّا الجزء الثاني من الرحلة فقد أشار فيه المؤلّف إلى المساعي التي قام بها لدى المسؤولين اليمنيّين والعدنيّين، وفي مقدّمتهم الإمام يحيى وسلطان لحج عبد الكريم بن فضل، لإقناعهم بعقد مؤتمر قومي عامّ للنظر في سُبُل توحيد اليمن وتخليصه من الهيمنة الأجنبيّة. ولكنّ هذه الجهود ستذهب سُدًى. إذ من المعلوم أنّ البلاد اليمنيّة قد ظلّت سنوات طويلة مُقسّمة بين يمن شمالي ويمن جنوبي، حتى بعد إعلان الجمهوريّة في اليمن الشمالي سنة 1962،

وحصول اليمن الجنوبي على استقلاله سنة 1969. وأخيراً تحققت الوحدة اليمنيّة والحمد لله سنة 1990 واستبشرت بها الأمّة العربيّة قاطبة.

* * *

وقد ارتكز عملنا في تحقيق هذا الكتاب ـ بالإضافة إلى هذه المقدّمة الوجيزة ـ على العناصر التالية:

1 ـ إعداد لمحة تاريخيّة وجغرافيّة عن اليمن، وتقديم نبذة عن الوضع الدولي في الشرق الأوسط والخليج العربي في مطلع العشرينات، إثر انتهاء الحرب العالميّة الأولى.

2 ـ ترتيب الوثائق المحرّرة في الغالب في شكل مسودّات، وتقسيمها إلى فصول، تيسيراً للمطالعة والمراجعة. وقد أعطيناها عناوين جديدة لم تكن موجودة في النصّ الأصلي، ووضعناها بين حاصرتَيْن [ ] للتمييز بينها وبين العناوين التي صاغها المؤلّف.

3 ـ إصلاح بعض الأخطاء اللغويّة والنحويّة التي تسرّبت إلى النصّ.

4 ـ التعليق على بعض الأحداث التاريخيّة التي ورد ذكرها في الوثائق، والتعريف ببعض الأعلام، وشرح عدد من العبارات التي رأينا أنها تستوجب التوضيح.

* * *

ولا يسعني في الختام إلاّ أن أتقدّم بأخلص عبارات الشكر والامتنان إلى الفاضلة السيّدة نبيهة بن ميلاد التي أتاحت الفرص لظهور هذا الأثر الجديد من آثار الشيخ عبد العزيز الثعالبي التي لم يسبق نشرها، وذلك استجابةً لتوصيات زوجها الراحل الدكتور أحمد بن ميلاد رحمه الله.

كما لا يفوتني التنويه بما وجدته لدى صديقي الأستاذ محمّد اليعلاوي من عناية فائقة ومساعدة نفيسة.

وأخيراً أرى لزاماً عليّ أن أجدّد شكري إلى حضرة الأخ الحاج الحبيب اللّمسي، صاحب دار الغرب الإسلامي، على الجهود التي ما فتىء يبذلها لإحياء تراثنا العربي الإسلامي المجيد.

والله المُوَفِّق للسّداد،

والهادي إلى سبيل الرشاد.

تونس في 15 أكتوبر 1996

حمادي الساحلي

دراسات تمهيديّة

للرحلة اليمنيّة

رحلات الشيخ عبد العزيز الثعالبي
من سنة 1923 إلى سنة 1937

26 جويلية 1923: هاجر الشيخ الثعالبي وطنه تونس بإيعاز من المقيم العام الفرنسي لوسيان سان الذي أراد أن يضع حدّاً لنشاطه الوطني على رأس الحزب الحرّ الدستوري التونسي.

أوت 1923: أقام بروما حيث استقبلته الأوساط السياسيّة بالتبجيل والاحترام، وأجرت معه المجلّة الإيطاليّة «الشرق الحديث» (Oriente Moderno) حديثاً حول الوضع السائد عهدئذ بتونس الرازحة تحت نير الاستعمار الفرنسي.

سبتمبر - أكتوبر 1923: من إيطاليا ارتحل إلى اليونان ثم إلى إسطنبول التي أقام بها مدّة قصيرة.

نوفمبر 1923: التحوّل إلى مصر والاتّصال بالجالية التونسية بالإسكندريّة.

جانفي - أفريل 1924: الإقامة بالقاهرة.

ماي - جوان 1924: زيارة فلسطين.

جويلية 1924: زيارة الحجاز والاجتماع بالشريف حسين بمكّة المكرمة.

2 أوت 1924: وصول الثعالبي إلى عدن قادماً من جدّة وبداية الرحلة اليمنيّة.

من 2 أوت إلى 13 أوت: الإقامة بعدن والاتّصال برجال الفكر العدنيّين.

31 أوت 1924: الوصول إلى صنعاء والاجتماع بالإمام يحيى والمسؤولين اليمنيّين. إصابة الثعالبي بحمّى المستنقعات في طريقه إلى صنعاء.

6 أكتوبر 1924: العودة إلى عدن.

17 أكتوبر 1924: مغادرة عدن في اتجاه الهند لحضور المؤتمر الذي عقدته جمعية العلماء المسلمين في مدينة مراد آباد في جانفي 1925.

أكتوبر 1924 - أفريل 1925: التجوّل في بلاد الهند وزيارة المدن التالية: بمباي - عليقرة - دلهي - حيدر آباد - كلكوتا.

أفريل 1925: مغادرة الهند.

أواخر أفريل 1925: زيارة مسقط.

ماي 1925: زيارة دبيّ.

7 جوان 1925: الوصول إلى البحرين.

جوان - جويلية 1925: زيارة البحرين ثم نجد (الرياض) ثم الكويت.

جويلية 1925: التحوّل إلى البصرة ومنها إلى بغداد.

14 جويلية 1925: وصول الثعالبي إلى بغداد.

14 أوت 1925: إقامة حفل استقبال على شرفه.

1925 - 1926: الإقامة ببغداد والتدريس بجامعة آل البيت التي أنشأها الملك فيصل سنة 1924.

28 ماي 1926: التحوّل إلى القاهرة بتكليف من الملك فيصل لحضور مؤتمر الخلافة، وفي طريقه إلى مصر زار الثعالبي شرقي الأردن وفلسطين.

وقد أقام بالقاهرة حتى أواخر سبتمبر 1926.

أكتوبر - نوفمبر 1926: زار الثعالبي الحجاز وتقابل مع الملك عبد العزيز ابن السعود في مكّة المكرّمة. ثم تحوّل إلى اليمن واجتمع بالإمام يحيى في صنعاء، محاولاً إصلاح ذات البين بين العاهلَين العربيّين وفضّ مشكل الحدود بين الحجاز واليمن.

ديسمبر 1926: التحوّل مع الوفد السوري - الفلسطيني إلى الهند للتعريف بالقضيّة العربيّة.

26 ماي 1927: عاد الثعالبي إلى بغداد واستأنف دروسه بجامعة آل البيت إلى أن تقرّر غلقها في سبتمبر 1930.

أواخر سبتمبر 1930: سافر إلى القاهرة للإشراف على البعثة الطلابيّة العراقية، بتكليف من الملك فيصل.

1930 - 1931: الإقامة بالقاهرة والاشتراك مع مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني في إعداد المؤتمر الإسلامي العام المقرّر عقده بالقدس الشريف.

7 - 17 ديسمبر 1931: مساهمة الثعالبي في أعمال المؤتمر الإسلامي بالقدس وتعيينه عضواً في المكتب الدائم المنبثق عن اللجنة التنفيذيّة للمؤتمر الإسلامي.

1931 - 1933: إقامة الثعالبي بالقاهرة، وقد أعلمته السفارة الفرنسيّة في آخر سنة 1933 أن حكومة باريس لا ترى مانعاً من رجوعه إلى تونس. ولكنّها تراجعت في آخر الأمر عن السماح له بالعودة.

ديسمبر 1933: توقّف الثعالبي في عدن في طريقه إلى الهند، واتّصاله من جديد بالأوساط الثقافية العدنيّة ومساهمته في إنشاء «نادي الأدب العربي».

ديسمبر 1933 - جوان 1934: زيارة الهند وبورما والسيام والفيليبين

وماليزيا وسنغافورة. وفي طريقه إلى الصين علم الثعالبي بالانشقاق الذي حصل في صفوف الحزب الحرّ الدستوري التونسي أثر انعقاد مؤتمر قصر هلال في 2 مارس 1934.

جوان 1934: قطع الثعالبي رحلته وقفل راجعاً للقاهرة لإجراء الترتيبات اللازمة لعودته إلى تونس، فأعدّ عدّته وحجز مكانه في الباخرة. وفي آخر لحظة أعلمته سفارة فرنسا بالقاهرة أن الحكومة الفرنسيّة قد تراجعت في الترخيص له بالعودة إلى وطنه لأن المقيم العام الفرنسي بتونس الطاغية بيروطون رأى أن رجوعه في ذلك التاريخ غير مرغوب فيه.

1934 ـ 1936: مواصلة الإقامة بالقاهرة.

ديسمبر 1935: زيارة القدس الشريف.

23 نوفمبر 1936: وصول الثعالبي إلى عدن في طريقه إلى الهند، وقبل سفره علم بأنّ حكومة الجبهة الشعبيّة بفرنسا قد قرّرت السماح له بالعودة إلى تونس.

من 29 نوفمبر إلى 6 ديسمبر 1936: زيارة عدن والحوطة في ضيافة سلطان لحج.

ديسمبر 1936 ـ أفريل 1937: زيارة الهند للمرّة الخامسة، وكان قد زارها للمرّة الأولى سنة 1912، ثم زارها على التوالي في: 1924 و 1926 و 1933 و 1936.

أفريل 1937: الرجوع إلى القاهرة.

5 جويلية 1937: وصول الثعالبي إلى مرسيليا قادماً من بور سعيد.

9 جويلية 1937: العودة إلى تونس.

لمحة عن البلاد اليمنيّة لمّا زارها الشيخ عبد العزيز الثعالبي سنة 1924

1 ـ تمهيد:

يُطلَق اسم اليمن على جنوب غرب شبه الجزيرة العربيّة، ولكنّ البريطانيين اقتطعوا منه عدن والمحميّات البريطانية الغربيّة والشرقيّة التي كان الإمام يحيى يطالب بضمّها إلى بلاده باعتبارها جزءاً لا يتجزّأ منها. كما كانت مقاطعة العسير التي يحكمها الأمراء الأدارسة تتبع رأساً الخلافة العثمانيّة قبل اندلاع الحرب العالميّة الأولى. وبعد إلغاء الخلافة العثمانيّة في 3 مارس 1924 رفض الأمير الحسن الإدريسي الاعتراف بسلطة الإمام يحيى على منطقته. لكنّ سلطان نجد عبد العزيز بن السعود سيتمكّن من احتلالها في سنة 1926 وضمّها إلى مملكته. غير أن الإمام يحيى لم يعترف بالأمر الواقع وظلّ يطالب إلى آخر حياته بتوحيد جميع أجزاء اليمن ووضعها تحت سلطته. وسيثير موضوع الحدود بين اليمن والمملكة العربيّة السعودية خلافات ونزاعات ما زالت آثارها باقية إلى يومنا هذا.

2 ـ اليمن:

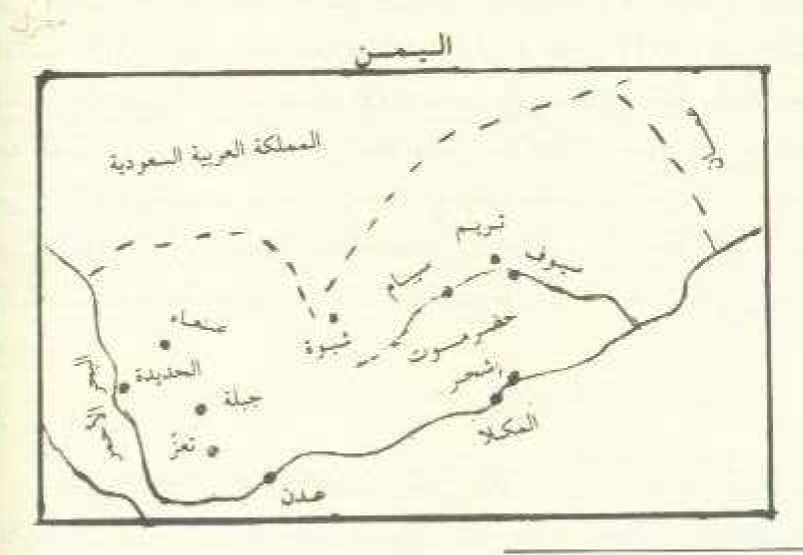
تعتبر البلاد اليمنيّة من أخصب وأغنى مناطق الجزيرة العربيّة لأنّها كثيرة الأمطار وتربتها بركانيّة في أغلب الجهات. لكن سوء استغلال ثرواتها الطبيعيّة جعل مستوى المعيشة فيها منخفضاً، فالزراعة كانت بدائيّة والصناعة تكاد تكون

معدومة والثروات المعدنية غير مستغلّة وطرق المواصلات في حالة يرثى لها. وقد كان الإمام يخشى تدخّل الدول الغربية في شؤونه، ولذلك كانت بلاده تعيش في مطلع العشرينات في عزلة تامّة.

وكان اليمن بحصر المعنى يعدّ عهدئذ حوالي 4 ملايين نسمة[1] من المسلمين، أغلبهم من السنّيين الشافعيّين، والآخرون تابعون لمذهب الزيديّة. كما كان يقيم بها آنذاك عدد من اليهود الذين يتعاطون التجارة والصناعات التقليديّة في المدن. وكان السكّان منقسمين إلى طبقات: وهي الطبقة العليا التي تضمّ الأئمّة والأمراء وأفراد العائلة المالكة، ويليها طبقة الأشراف ورجال الدين ثم طبقة المشايخ والعُقّال، وهم رؤساء القبائل وشيوخ القرى والأحياء، ثم طبقة الريفيّين الذين يتعاطون الزراعة وتربية الماشية. وفي أسفل السلّم الاجتماعي توجد طبقة الحرفيّين وأرباب الصناعات التقليديّة.

وتنقسم البلاد إلى ثلاثة أقسام إداريّة تسمّى الألوية، وهي لواء صنعاء ولواء تعزّ ولواء الحديدة، وينقسم اللواء إلى أقضية والأقضية إلى نواحٍ وقرى.

اليمن



(1) ارتفع عدد سكّان اليمن بعد توحيدها في سنة 1990 إلى 12.600.000 نسمة.

ويزدحم السكّان في المناطق الممطرة والجيّدة التربة، وهي السفوح الغربيّة للجبال، وفي المدن الكبرى والموانىء، وأهمّها:

– **صنعاء**: وهي عاصمة اليمن في عهد الإمام يحيى وأكبر المدن اليمنيّة وأغناها. وقد كانت تعدّ في العشرينات حوالي 60.000 نسمة[1].

– **تعزّ**: التي ستصبح عاصمة البلاد في عهد الإمام أحمد. وهي مدينة صناعية وزراعيّة مشهورة بالخصوص بزراعة البنّ. ويبلغ عدد سكّانها عهدئذ حوالي 20.000 نسمة[2].

– **الحديدة**: وهي ميناء على البحر الأحمر يعدّ في العشرينات حوالي 40.000 نسمة[3]. وسوف تصبح الحديدة أهمّ ميناء في اليمن بعد انقراض ميناء مخا الواقع على البحر الأحمر.

3 ـ منطقة عـدن:

هي منطقة بركانيّة تقع على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربيّة، على بعد 160 كلم من مضيق باب المندب، وتمثّل مركزاً استراتيجياً هامّاً يسيطر على طرق المواصلات بين البحر الأحمر والمحيط الهندي. وهي محطّة للسفن المتوجّهة إلى الهند، ومنفذ لجنوب الجزيرة العربيّة، وقد احتلّتها بريطانيا سنة 1839.

وقد شهدت مدينة عدن تطوّراً كبيراً منذ مطلع العشرينات، بعدما أصبحت قاعدة حربيّة وتجاريّة هامّة. فارتفع عدد سكّانها إلى 100.000 نسمة[4]، وأغلبهم من العرب النازحين من المناطق المجاورة، وبها أيضاً جاليات أوروبية

(1) ارتفع عدد سكّان صنعاء في سنة 1990 إلى 1,5 مليون نسمة.
(2) بلغ عدد سكّان تعزّ في نفس التاريخ 180.000 نسمة.
(3) وارتفع عدد سكّان الحديدة إلى 170.000 نسمة.
(4) لقد ارتفع عدد سكّان عدن في سنة1992 إلى 600.000 نسمة.

وأقليّات هنديّة ويهوديّة. أمّا المدينة الحديثة فتقع في شمال شبه الجزيرة حيث يقع ميناء التواهي، وقد بنيت فيه الأرصفة والمستودعات والمتاجر والفنادق. وفي الناحية الشرقية يقع ميناء معلا، وهو مرسى للسفن الصغيرة.

4 ـ المحميّات البريطانيّة:

أ ـ المحميات الغربيّة: وهي تقع جنوب غربي الجزيرة العربيّة من مضيق المندب إلى حضرموت، وقد بسطت عليها بريطانيا نفوذها واقتطعتها من اليمن، بعدما أبرمت مع سلاطينها وأمرائها معاهدات تقضي بفرض حمايتها عليهم مقابل رواتب يتقاضونها كلّ شهر.

ويبلغ عدد هذه المحميات تسع وهي: سلطنة لحج وعاصمتها الحوطة، والصبيحة والحواشب والقطيب والعوالق ويافع والضالع والواحدي والعوازل.

ويحكم المحميات الغربيّة أمراء وسلاطين بمساعدة بريطانيين وأعضاء مختارين من بين أعيان البلاد. وستتمكّن بريطانيا من إقامة نظام فيدرالي يجمع بين هذه المحميّات وبين مستعمرة عدن لفصلها نهائيّاً عن اليمن.

ب ـ المحميّات الشرقيّة: وهي منطقة فقيرة بسبب قلّة المطر تقع بين صحراء الربع الخالي والبحر العربي وتعرف باسم حضرموت.

وتوجد في حضرموت حكومتان، هما: حكومة القعيطي أو سلطنة المكلا والشحر على الساحل، ومركزها المكلا، وحكومة الكثيري في الداخل ومركزها سيون، وفي شرقها سلطنة مهرة وكشن وسقطري. ويمثل الحكومة البريطانية في حضرموت مستشار بريطاني.

انهيار الإمبراطوريّة العثمانيّة
إثر الحرب العالميّة الأولى

1 ـ تفكيك الإمبراطورية العثمانية:

كانت الإمبراطوريّة العثمانيّة قبل اندلاع الحرب العالميّة الأولى (1914 ـ 1918) تضمّ كافة البلاد العربية الآسيوية التي تنقسم إلى قسمين:

1 ـ قسم الولايات العربيّة التي كانت تعتبر جزءاً لا يتجزّأ من الدولة التركية ويحكمها ولاة عثمانيون في المدن الكبرى مثل البصرة وبغداد والموصل وحلب ودمشق وبيروت والقدس.

ويضمّ هذا القسم كلاً من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن.

2 ـ قسم المناطق العربيّة التي تتمتّع بشبه حكم ذاتي وهي الحجاز واليمن والكويت والإحساء وعسير.

وكانت السياسة التركيّة المتّبعة في الولايات العربيّة متّسمة بالشدّة ومقاومة الروح القوميّة العربية. فأخذ النفور يتفاقم بين الأتراك والعرب، وكانت الدول الكبرى الحريصة على تفكيك الإمبراطوريّة العثمانيّة تسعى إلى خلق مزيد من هذا النفور، وتراقب باهتمام آثاره ونتائجه.

والجدير بالتذكير في هذا الصدد، أن انهيار الإمبراطوريّة العثمانيّة قد بدأ منذ نهاية القرن التاسع عشر. فقد أبرم أمير الكويت الشيخ مبارك الصباح معاهدة

مع إنجلترا سنة 1899 أصبح بمقتضاها تحت الحماية الإنجليزية وانفصل عملياً عن الإمبراطوريّة التركيّة. كما استولى سلطان نجد عبد العزيز آل سعود على منطقة الإحساء عاصمة آل الرشيد الموالين للدولة التركيّة، وأصبح يسعى إلى احتلال الحجاز وعسير، ليحقّق وحدة الجزيرة العربيّة.

ومن ناحية أخرى، تمكّنت بريطانيا من فرض حمايتها على البحرين وقطر وعُمان، بالإضافة إلى عدن التي احتلّتها منذ سنة 1839. ولم تكتف بذلك، بل أجبرت تركيا على الاعتراف بالحماية الإنجليزيّة على تسع إمارات عربيّة صغيرة تقع في جنوب الجزيرة العربيّة، وأهمّها سلطنة لحج. كما بادر شريف مكّة منذ اندلاع الحرب إلى إجراء اتّصالات سريّة مع الحكومة البريطانيّة لضبط شروط انضمام البلدان العربيّة إلى الحلفاء. ولم يبق موالياً اسمياً للحكومة التركيّة إلاّ الإمام يحيى، عاهل اليمن.

2 ــ الثورة العربيّة الكبرى:

بدأت المفاوضات السريّة بين الشريف حسين وممثّلي الحكومة البريطانية منذ سنة 1915، عن طريق الرسائل المتبادلة مع المندوب السامي الإنجليزي بالقاهرة هنري مكماهون. وقد اقترح شريف مكّة انضمام العرب إلى الحلفاء وإعلان الثورة على الأتراك، مقابل اعتراف بريطانيا باستقلال البلدان العربيّة الآسيويّة بعد انتصار الحلفاء. وقد أسفرت المفاوضات عن الاتّفاق على المبادىء التالية:

ــ تتعهّد بريطانيا بأن تساعد على قيام دولة عربيّة أو اتحاد دول عربيّة في شبه الجزيرة العربية والعراق والشام، باستثناء عدن.

ــ تقدّم للدولة العربيّة كلّ ما تحتاج إليه من مساعدة.

ــ تتعهّد بأن لا تمسّ مصالح حليفتها فرنسا في المناطق الساحليّة بشمال سوريا ولبنان.

ــ تضمن الأماكن المقدّسة الإسلاميّة ضدّ أيّ اعتداء خارجي

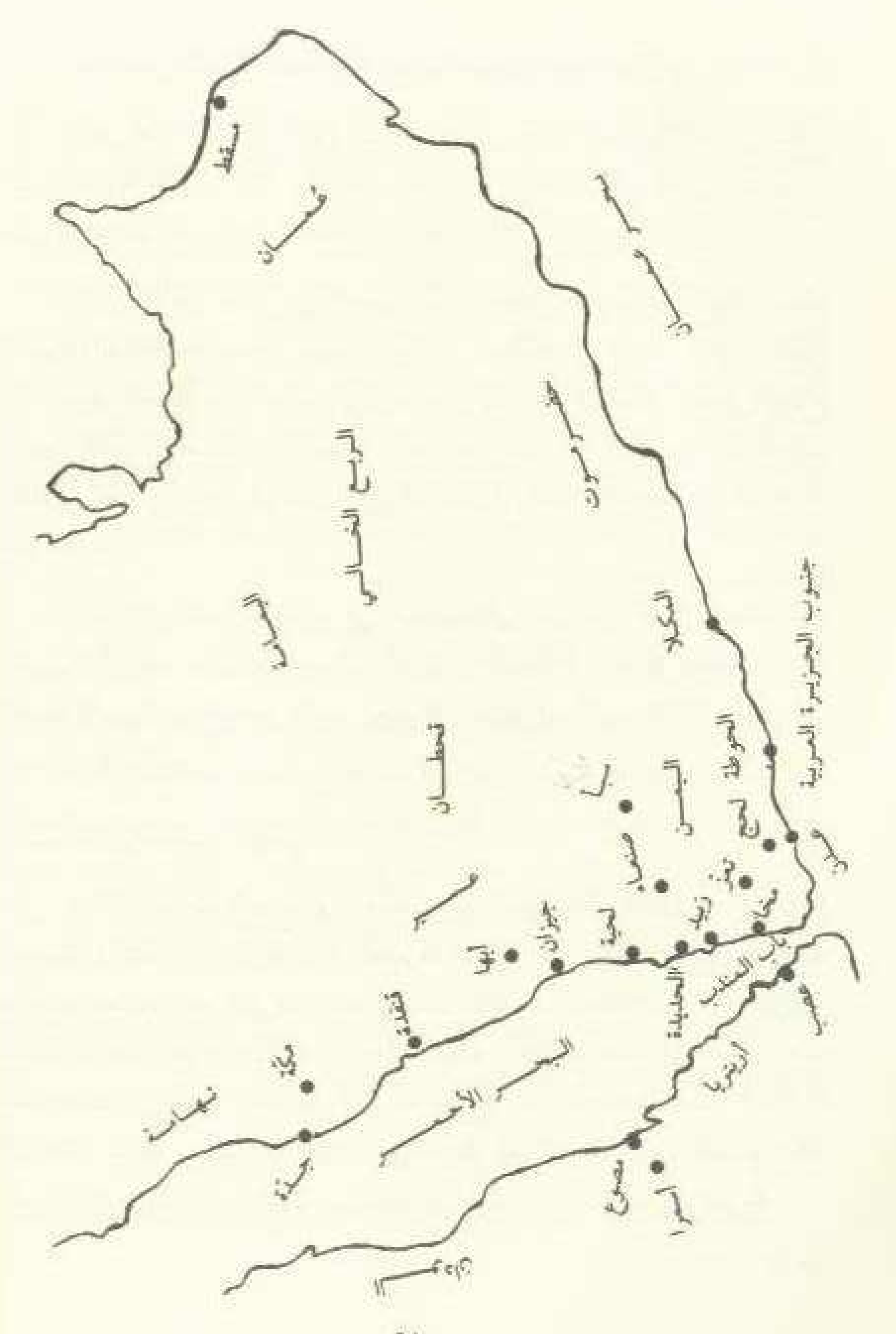
وعلى هذا الأساس، أعلن الشريف حسين يوم 10 جوان 1916 عن اندلاع الثورة العربيّة على الأتراك وانضمام العرب إلى الحلفاء. ثم أعلن نفسه ملكاً على البلاد العربيّة، ولكن الحلفاء لم يعترفوا به إلاّ ملكاً على الحجاز.

وتولّى الأمير فيصل بن الحسين قيادة الجيش العربي، وانفصل معظم الجنود والضبّاط العرب عن الجيش التركي، وانضمّوا إلى الجيش العربي الذي بدأ بتحرير الحجاز من الحكم التركي، ثم زحف نحو الشمال والتحق بالجناح الأيمن لجيوش الحلفاء. والجدير بالملاحظة في هذا المضمار أنّ شعوب المغرب العربي ومصر لم تشارك في هذه الثورة وظلّت متعاطفة مع تركيا طوال مدّة الحرب.

وقد كان لاشتراك العرب في الحرب تأثير كبير في انتصار الحلفاء في الشرق الأوسط، وانهزام الجيوش التركيّة والألمانيّة، وتحرير معظم البلدان العربيّة الآسيويّة. وقد دخل الأمير فيصل إلى دمشق في أكتوبر 1918 وأعلن عن استقلال بلاد الشام.

3 ــ اتّفاقيّة سايس ـ بيكو:

وما إن وضعت الحرب أوزارها حتى بادر الحلفاء إلى الكشف عن نواياهم الحقيقيّة والتنصّل من الوعود التي قطعوها للعرب. ففي الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تتفاوض مع الشريف حسين بشأن الاعتراف باستقلال البلاد العربيّة، كانت تتباحث مع فرنسا لتقسيم هذه البلاد بعد الحرب. وقد جرت هذه المباحثات بين ممثّل الحكومة الفرنسيّة جورج بيكو (Picot) وممثّل الحكومة البريطانيا مارك سايكس (Sykes)، وأسفرت عن الاتّفاق على تقسيم البلاد العربيّة التابعة للخلافة العثمانيّة بين فرنسا وبريطانيا، ما عدا الجزيرة العربيّة.



وتطبيقاً لاتفاقية سايكس ـ بيكو قرّر المجلس الأعلى للحلفاء المنعقد في 25 أفريل 1920 بسان ريمو وضع العراق وفلسطين وشرقي الأردن تحت الانتداب البريطاني ووضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي. وعلى أساس هذا القرار بادرت فرنسا إلى احتلال سوريا ولبنان في 5 جويلية 1920، في حين بسطت بريطانيا سلطتها على العراق وفلسطين. ولترضية حليفها الشريف حسين عيّنت ابنه فيصل ملكاً على العراق وابنه الثاني عبد الله أميراً على شرقي الأردن، وقد تنازل له والده عن ميناء العقبة الذي كان تابعاً للحجاز.

أمّا في الجزيرة العربيّة، فقد استغلّ سلطان نجد عبد العزيز ابن السعود نهاية الحرب للاستيلاء على الحجاز بعدما استولى على حائل والإحساء، وتمكّنت جيوشه بسهولة من احتلال الطائف ومكّة المكرّمة في شهر رجب 1343/ فيفري 1925، فتنازل الشريف حسين عن العرش لفائدة ابنه علي وغادر جدّة في اتجاه قبرص. ورغم المقاومة المستميتة التي أبداها علي بن الحسين في جدّة، فقد استطاع عبد العزيز ابن السعود الاستيلاء على البلاد الحجازية بتمامها وكمالها في نوفمبر 1926، وأعلن نفسه ملكاً على الحجاز وسلطاناً على نجد وملحقاتها، واضطرّت بريطانيا إلى الاعتراف بالأمر الواقع.

4 ـ قضيّة الخلافة:

وفي تركيا أعلنت الجمعيّة الوطنيّة المنعقدة في العاصمة الجديدة أنقرة يوم 29 أكتوبر 1922 عن قيام النظام الجمهوري وانتخبت مصطفى كمال أوّل رئيس للجمهوريّة التركيّة. وبعد أقلّ من سنتين بادر مصطفى كمال إلى إلغاء الخلافة يوم 3 مارس 1924 وأجبر آخر خليفة عثماني السلطان عبد المجيد بن عبد الحميد على مغادرة تركيا مع عائلته.

وقد استاءت معظم البلدان الإسلاميّة، لا سيما منها مصر والهند وتونس، لإلغاء الخلافة التي كانت تمثّل في نظر المسلمين مؤسّسة مقدّسة ورمز وحدة الأمّة الإسلاميّة. ففي تونس تأسّست لجنة الخلافة برئاسة عضو اللجنة التنفيذيّة

للحزب الحر الدستوري التونسي أحمد توفيق المدني، وأعلنت عن تمسّك التونسيّين ببيعة الخليفة عبد المجيد، واستمرّ الأئمّة في الجوامع يخطبون باسمه.

أمّا في بقيّة الأقطار الإسلاميّة الأخرى، فقد انعقد مؤتمران اثنان لبحث قضية الخلافة، الأوّل بالقاهرة في ماي 1926 والثاني في مكّة المكرّمة في جوان من نفس السنة. وقبل انعقاد هذين المؤتمرَيْن اللّذان لم يسفرا عن أيّ نتيجة إيجابيّة، قام الشيخ عبد العزيز الثعالبي بعدّة مساعٍ لحلّ مشكل الخلافة. فزار مكّة المكرّمة واجتمع بالأمير الحسين بن علي، واستنتج من محادثته معه أن شريف مكّة لا يصلح للقيام بأعباء الخلافة. وتحوّل من الحجاز إلى اليمن حيث تقابل مع الإمام يحيى واقترح عليه أن يتقلّد منصب الخلافة، فرفض الإمام هذا العرض، معتبراً نفسه غير مؤهّل لمثل هذه المهمّة في تلك الظروف العصيبة التي يشهدها العالم الإسلامي. وفي الوقت ذاته سعى بعض المصريّين إلى تقليد الملك فؤاد منصب الخلافة، ولكنّ مساعيهم قد باءت بالفشل، غير أنّ فكرة الخلافة قد ظلّت مطروحة مدّة طويلة من الزمن إلى أن يئس قادة الفكر في العالم الإسلامي من إمكانيّة تحقيقها. فقد صرّح الثعالبي لجريدة المقطم المصرية في عددها الصادر يوم 24 أكتوبر 1931 ما يلي: «إنّ مسألة الخلافة لا تستحقّ اهتمامنا، لأن أغلب البلدان الإسلاميّة تحت السيطرة الأجنبيّة لا تملك لنفسها نفوذاً ولا سلطاناً، وللخلافة شروط أهمّها الاستقلال التامّ. فمن الخدع الاشتغال بها في الوقت الحاضر».

نبذة من تاريخ اليمن

1 ـ اليمن في العصر القديم:

كان يحكم اليمن في القرن السادس من الميلاد الملك الحميري ذو نواس الذي اعتنق اليهوديّة واضطهد السكّان المسيحيّين. وقرّر أبرهة الحبشي بإيعاز من الإمبراطور البيزنطي يوستانيوس أن يهبّ لنجدة أبناء ملّته، واجتاحت جيوشه اليمن حيث أحرز انتصارات باهرة وعزّز مركز المسيحيّين. وقبل عودته إلى الحبشة بنى أبرهة لصاحبه النجاشي كنيسة القليس بصنعاء وقرّر هدم الكعبة ليصرف إلى الكنيسة اليمنيّة الحجيج العرب. فهجم على مكّة سنة 570 على رأس جيش عرمرم تتقدّمه الفِيَلة، ولذلك سمّى العرب تلك السنة بعام الفيل. ولكنّ الله أبى إلاّ أن يحمي بيته الحرام، فأرسل على المغيرين ﴿طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجّيل﴾ ومُني أبرهة بهزيمة نكراء.

2 ـ اليمن في عهد الإسلام:

وفي سنة 570، وهي نفس السنة التي هجم فيها أبرهة على مكّة المكرّمة، وُلِد الرسول ﷺ وأطلق على اليمن فيما بعد اسم «اليمن السعيد» الذي أصبحت تُعرَف به. ولمّا بدأ الإسلام ينتشر في تلك الربوع أمر الرسول ﷺ ببناء مسجد جامع بصنعاء التي كانت أوّل مدينة يمنيّة دخلت الإسلام، وذلك على أنقاض كنيسة القليس.

وبعدما ثارت صنعاء على الخلفاء الأمويّين والعبّاسيّين، خضعت اليمن

سنة 1074 إلى سلطة الخلفاء الفاطميّين الذين أخذوا في نشر المذهب الشيعي إلى جانب المذهب السنّي الشافعي. ثم انتشر في اليمن المذهب الزّيدي، نسبة إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين صاحب ذلك المذهب. فانقسمت البلاد إلى: زيديّة وهم سكّان الجبال وشافعيّة.

وفي سنة 1173 أوفد سلطان مصر صلاح الدين الأيوبي القائد طوران شاه لغزو اليمن. ثم تعرّضت صنعاء سنة 1515 للسلب والنهب على أيدي مماليك مصر. وأخيراً استولى الأتراك العثمانيّون على اليمن سنة 1538، ورغم تعرّضهم لمقاومة مستميتة من قِبَل الزيديّة، فإنهم لم يتخلّوا عن تلك البلاد نهائياً إلاّ بعد انهزامهم في الحرب العالمية الأولى.

3 ـ اليمن في عهد الإمام يحيى:

تقلّد الإمام يحيى (1868 ـ 1948) الحكم في اليمن سنة 1904 خلفاً لوالده الإمام محمد حميد الدين، فتصدّى لمقاومة الهيمنة التركيّة وتمكّن من السيطرة على صنعاء وحكم البلاد بيد من حديد، واقتصر الحضور التركي في اليمن على السواحل وبعض المدن.

وإثر جلاء الأتراك عن اليمن في سنة 1918، دخل الإمام يحيى في نزاع مع ملك الحجاز وسلطان نجد عبد العزيز ابن السعود الذي استولى على منطقة العسير في شمال اليمن سنة 1926 وضمّها إلى مملكته، بعدما استولى على الإحساء سنة 1912 وحائل سنة 1918 والحجاز سنة 1924، ولم يكن يخفي طموحه إلى الاستيلاء على اليمن لتحقيق وحدة الجزيرة العربيّة. إلا أنّ بريطانيا كانت له بالمرصاد لمنعه من وضع يده على اليمن الذي كان يفصل بين الحجاز ومستعمرة عدن. فتدخّلت لحمل الملك السعودي على الاعتراف بسلطة الإمام يحيى على اليمن، وفي المقابل يتخلّى هذه الأخير عن المطالبة باسترجاع العسير، وهذا ما تمّ بالفعل. واستمرّت الحكومة اليمنيّة متمسّكة بسياسة العزلة خشية تدخّل الدول الأوروبية في شؤونها، لا سيما وقد كان اليمن طوال فترة ما

بعد الحربين عرضة لمنافسة شديدة بين بريطانيا التي كانت حريصة على المحافظة على مصالحها في جنوب الجزيرة العربية وبين إيطاليا التي كانت تسعى منذ ذلك التاريخ إلى التمركز في البحر الأحمر واستعمال اليمن كقاعدة انطلاق لغزو أثيوبيا.

وفي سنة 1948 اندلعت في ضواحي صنعاء ثورة شعبيّة على الإمام يحيى احتجاجاً على سياسته الاستبداديّة، وأسفرت عن اغتياله وفرار كبير أنجاله الأمير أحمد، وتشكيل حكومة جديدة برئاسة عبد الله بن الوزير.

فتضافرت جهود كلّ من عبد العزيز ابن السعود صاحب المملكة العربيّة السعوديّة وفاروق ملك مصر وعبد الله أمير شرقي الأردن وعبد الإلاه الوصيّ على عرش العراق، لمساعدة سيف الإسلام أحمد على قمع الثورة واسترجاع عرش أبيه. وبالفعل فقد تمكّن من الانتصار على الثورة وقتل عبد الله بن الوزير. وبعد اعتلائه العرش عيّن ابنه سيف الإسلام البدر وليّاً للعهد، مخالفاً بذلك التعاليم والمبادىء الزيديّة التي تقتضي أن تكون الإمامة بالانتخاب والمبايعة من أهل الحلّ والعقد، وليست بالتعيين ولا بالوراثة. ثم قتل أخاه سيف الإسلام عبد الله الذي كان معروفاً على الصعيد الدولي بسعة اطلاعه وحسن سلوكه.

وإثر انتصاره على الثورة تخلّى الإمام أحمد عن صنعاء المعروفة بكثرة انتفاضاتها على حكم الأئمّة، واستقرّ في مدينة تعزّ التي اتّخذ منها عاصمة جديدة لليمن، مواصلاً بأكثر حدّة سياسة أبيه القمعيّة والاستبداديّة.

وفي سنة 1955 تعرّض الإمام أحمد لمحاولة اغتيال وأصيب بكسور في رجله، ففوّض الكثير من صلاحياته إلى وليّ عهده الأمير البدر الذي تقرّب أكثر فأكثر من الرئيس جمال عبد الناصر وأبرم معه في سنة 1959 اتّفاقيّة الوحدة ـ ولكن بصورة شكليّة ـ بين اليمن والجمهوريّة العربية المتّحدة التي كانت تجمع بين مصر وسوريا[1].

(1) انظر: محمد علي طاهر، ماذا يجري في اليمن؟ جريدة «الشرق» بيروت، 11/4/1961.

4 ـ الجمهوريّة اليمنيّة:

إثر وفاة الإمام أحمد يوم 19 سبتمبر 1962 اندلعت الثورة في صنعاء يوم 26 من نفس الشهر وأفضت إلى الإطاحة بالإمام الجديد سيف الإسلام البدر الذي فرّ إلى شمال البلاد ملتحقاً بالقبائل التي بقيت موالية له. وفي صنعاء أُعْلِن عن سقوط حكم الأئمّة وقيام النظام الجمهوري، وعُيِّن قائد الثورة عبد الله السلّال رئيساً للجمهوريّة اليمنيّة. فاندلعت في اليمن حربٌ أهليّة طاحنة بين الجمهوريّين الذين ساعدتهم مصر دبلوماسيّاً وعسكريّاً، وبين الملكيّين الذين ساندتهم كلّ من المملكة العربيّة السعوديّة والمملكة الأردنيّة الهاشميّة. واستمرّت الحرب التي تدخّلت فيها الجيوش المصريّة، إلى أن تمّ إبرام الصلح بين الطرفَيْن في سنة 1969 إثر انسحاب الجيوش المصريّة من اليمن واعتراف الجميع بالجمهورية العربيّة اليمنيّة[1].

وفي نفس تلك السّنة، اعترفت بريطانيا باستقلال عدن والمحميّات التابعة لها في جنوب الجزيرة العربيّة، وقد أطلق عليها اسم «الجمهوريّة اليمنيّة الديمقراطيّة والشعبيّة» وعاصمتها عدن.

وفي 22 ماي 1990 أُعْلِن عن تحقيق الوحدة بين الجمهوريّة العربيّة اليمنيّة أو اليمن الشمالي وبين الجمهوريّة اليمنيّة الديمقراطيّة والشعبيّة أو اليمن الجنوبي، باعتبارهما دولة واحدة عاصمتها صنعاء. وهكذا تحقّق الحلم الذي طالما خالج نفوس جميع اليمنيّين منذ عهد بعيد، وحاول الشيخ عبد العزيز الثعالبي أثناء رحلته إلى اليمن سنة 1924 أن يساهم في تحقيقه، ولكنّ الظروف الداخليّة والملابسات الدوليّة لم تسمح بتوفير أسباب النجاح لهذا المشروع الطموح إلاّ بعد ذلك بستٍّ وستّين سنة.

---

(1) وقد التجأ الإمام البدر بن أحمد حميد الدين في سنة 1970 إلى لندن بعد 8 سنوات من الحرب الأهليّة وأقام بها بعيداً عن الأنظار إلى أن أدركته المنيّة يوم 22 أغسطس سنة 1996.

الفصل الأوّل

الرحلة اليمنيّة

(12 أغسطس ـ 17 أكتوبر 1924)



Camp, Aden
(Arabia)
"HASANALI"

صورة الصفحة الأولى من المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدّمـة

عدن يوم السبت **11** أكتوبر **1924**:

ابني النابغ وصديقي الكامل سيّدي محمد المنصف المستيري[1] أعزّه الله وأكرمه. السلام عليك وعلى آلك وكلّ من شمله ناديك.

وبعـد، فقد وافتني رسالتك العزيزة المؤرّخة في 30 محرّم الحرام فاتح شهور سنة 1343 [1 سبتمبر 1924]، وما أشدّ سروري لمّا قرأتها ولمحت

(1) محمّد المنصف المنستيري من مواليد مدينة تونس في 6 أغسطس 1901. وهو ابن الشيخ حمّودة المنستيري أحد مؤسّسي الحزب الحرّ الدستوري التونسي الذي انبعث في سنة 1920. وقد ناضل محمد المنصف المنستيري في صفوف هذا الحزب ـ الذي أصبح يعرف بعد سنة 1934 بالحزب الدستوري القديم (أو اللجنة التنفيذية) ـ إلى أن انحلّ من تلقاء نفسه في مطلع الستّينات، بعد استقلال البلاد التونسيّة سنة 1956، واضطلاع الحزب الدستوري الجديد بمهامّ الحكم بمفرده.

وتميّز محمد المنصف المنستيري بنشاطه الصحفي، حيث ساهم منذ مطلع العشرينات في تحرير جميع الصحف الوطنيّة المتعاطفة مع الحزب الدستوري، مثل الصواب والأمّة وإفريقيا والاتحاد. ثم أسّس جريدة «الإرادة» التي أصبحت الناطقة بلسان الحزب الدستوري القديم، وتولّى رئاسة تحريرها منذ صدورها في 8 يناير 1934 إلى احتجابها في 18 مارس 1955. كما تولّى فيما بعد رئاسة تحرير جريدة «الاستقلال» التي أصدرها هذا الحزب من 30 سبتمبر 1955 إلى 22 أفريل 1960، وانقطع بعد ذلك عن أيّ نشاط سياسي إلى أن توفّي في 29 يناير 1971 (انظر: محمد حمدان، «أعلام الإعلام»، ص 147 ـ 149، تونس 1991).

توقيعك إثر انقطاعك المديد عنّي. ومن شأني أن أُسَرّ بتلقّي أنباء وطني وأعلم علم قومي. فأشكرك على هذه العناية بقلمي وبلساني، ومن واجبي أن أشكرك لأنني قد صرت بينكم نِسْياً منسياً، ولم تعد لكم بي حاجة تحملكم على مراسلتي، اللّهمّ إلاّ من كان منكم يودّني من أعماق قلبه، ولا أمر للتصنّع في وداده لي، وبالرغم من كثرة من كنت أعدّهم من الأصدقاء المخلصين وأحسبهم من الأبناء البررة، فقد كفت سنة واحدة أمضيها في الخارج لتلاشي وانحلال كلّ صلة كانت تربطني بهم فرادى وجموعاً[1]. والآن يُخيّل إليّ أنه لم يبق على ولائي أحدٌ منهم سواك، هذا إن سلمتُ من عَثر الدّهر ومنافسة الأيام فيك، وإلاّ فلا أمل يبقى ولا رجاء.

قلتَ في كتابك إنّك تريد أن تبثّ إليّ ما تجده في صفوفكم من الفراغ الذي تركتُه بعدي، فبسطتَ من حديث السيّد صالح فرحات[2] وعمله في باريس

(1) خرج الشيخ عبد العزيز الثعالبي من تونس يوم 26 يوليو 1923.

(2) صالح فرحات (1930 ـ 1977) أحد قادة الحزب الدستوري القديم، انتُخب كاتباً عاماً مساعداً لهذا الحزب منذ تأسيسه سنة 1920، ثم أصبح كاتباً عاماً إثر وفاة الزعيم أحمد الصافي سنة 1935. وانتُخب رئيساً للّجنة التنفيذيّة أثناء المؤتمر قبل الأخير الذي عقده الحزب الدستوري القديم يومَيْ 16 و 17 أبريل 1955. وتقلّد قبل ذلك مهامّ وزير العدل في الحكومة التونسيّة من أول يناير إلى 15 مايو 1943 في عهد الملك الوطني محمد المنصف باي.

وعُرف المرحوم صالح فرحات بمساهمته في تحرير الصحف الوطنيّة الناطقة باللغة الفرنسيّة لمقاومة الاستعمار والدفاع عن قضية بلاده إلى أن أحرزت استقلالها في 20 مارس 1956. ويبدو من خلال رسالة الشيخ عبد العزيز الثعالبي، مؤسّس الحزب الحرّ الدستوري التونسي، أنه يعيب على رفيقه في الكفاح اتخاذ هذين الموقفين:

— فقد نشر صالح فرحات في جريدة «تونس الاشتراكية» (الناطقة بالفرنسيّة) فصلاً بتاريخ 3 أغسطس 1923، أعلن فيه أن الثعالبي لم يكن الممثّل الوحيد للحزب الدستوري، وبالتالي فإن خروجه من تونس لن يؤثّر أبداً في نشاط الحزب.

— ومن ناحية أخرى، سافر صالح فرحات إلى باريس إثر نجاح الكتلة اليساريّة في انتخابات مايو 1924 وأعلن عن ثقته التامة في الحكومة الفرنسيّة الجديدة التي يرأسها إدوار هيريو.

وتونس ما اسودّت به الدنيا في وجهي. حقّاً أيها الصديق كنتُ أعتقد جزماً يوم أخرج من تونس أنّني سأترك فراغاً لن يُسدّ بعدي، والناس يعتقدون في كلّ مملكة حللتُها أنّني يوم أخرج منها أيضاً أترك فيها هذا الفراغ. فهم يألمون كما تألم أنت أيضاً، ولكن هناك فرق عظيم بين الفراغ الذي أتركه في تونس ـ وأنا مبدع حركتها ـ والفراغ الذي أتركه في فلسطين أو الحجاز أو اليمن، ولم تكن لي فيها سوى شخصيّة بارزة وأقوال مأثورة في وسطهم، أن يكتفوا عنّي بصورتي وأن يسمعوا أقوالي من كل مكان، لم يكن وجودي في تونس مثل وجودي في غيرها، فقد كنت أنمّي الحركة وأغذّيها بروحي وأسيّرها بيديّ وأدفع عنها بحجاجي، ولا يوجد أحد يتجرّأ أمامي على التنقيص من قيمتها أو يسعى في تعطيلها أو يتنكّب عنها ما لم يعرّض بنفسه إلى مقت الشعب وغضبه، كما حصل لذلك الرهط المعروف[1] ومَنْ إليه من النّكِرات والأحداث والمستأجَرين. فبالرغم ممّا كان لديهم من حوْل وطَوْل، كانوا محتقرين حتى لدى أنفسهم ومهزلة في نظر الناهضين وأُباة الضيم. كانوا يتّهموننا ويرموننا بكلّ نقيصة ويغرون بنا أصحاب القوّة، وقد خُيّل مراراً لبعض البسطاء والقاصرين منّا أن القارعة يوشك أن تحلّ بنا وترى المنهزمين ينفضّون من حولنا ويفرّون إلى حيث. . . تُوهمهم أحلامهم القاصرة أنها مواطن السلامة. . . فكان يكفي أن أقضي على ترّهاتهم ومكايدهم وكل ما به يمترون بعد اجتماعَيْن أو ثلاثة في

(1) يشير الثعالبي إلى الأستاذ حسن قلاتي (1880 ـ 1966) وهو من كبار المحامين في تونس وأحد أعضاء حركة الشباب التونسي. وقد انفصل عن الحزب الدستوري في سنة 1921 مع مجموعة من أنصاره وأسّس الحزب الإصلاحي الذي أيّد الإصلاحات الهزيلة التي منحها المقيم العام الفرنسي لوسيان سان ورفضها الحزب الدستوري رفضاً باتّاً. كما أصدر حسن قلاتي جريدة ناطقة باسم الإصلاحيين تحمل اسم «البرهان» للدفاع عن وجهة نظر حزبهم. وقد شنّ الحزب الدستوري حملة شعواء على الإصلاحيّين ممّا أدّى إلى مقاطعة الشعب لجريدتهم البرهان الذي انتهى بها الأمر إلى الاحتجاب نهائيّاً في 19 ديسمبر 1922. وإثر فشل حسن قلاتي في انتخابات المجلس الكبير سنة 1928 اعتزل النشاط السياسي وتفرّغ للمحاماة إلى أن أدركته المنيّة يوم 27 نوفمبر 1966.

دار الحزب وأقول كلمة تبتلع كلّ ما يقولون ويعملون ويأفكون. والسبب في ذلك أنّني لا أقول إلاّ ما توحي إليّ به نفسي وما أعتقده حقّاً، لا متأثّراً بإرهاب ولا واجلاً من قوّة ولا مؤمّلاً ثواباً ولا منتظراً مكافأة. وعندما أتكلّم أتصوّر حالة ليس في المستطاع الإعراب عنها، فما تكلّمت قطّ وأنا أعتقد في نفسي أنّني رجل عاديّ يتكلّم بلسان الناس، بل إنّه لينبثّ في روحي أنّني آمر والسامعون يأتمرون بأقوالي. وفوق ذلك أظنّكم تعلمون أنّني كنت صادقاً مخلصاً ما تطرّق الهوى قطّ لفكري أو عملي، فأنا أنا منذ نشأت إلى اليوم ما وضعت يدي أبداً في يد حكومة ولا واليت ظالماً ولا أيّدت حاكماً مستبدّاً، بل نشأت وعشت شاباً وكهلاً وها أنا ذا على أبواب الشيخوخة[1] قريع الاستعمار وعدوّه المبين. فبهذا وأمثاله كنت أغذّي الحركة التونسيّة وأنمّيها وأربّيها وأنتقي لها الصّيد الصّناديد من حَمَلَة الهمم الكبيرة والنفوس المتمرّدة يسيرون معي في الطريق ويرفعون الأثقال التي ينوء بها ظهري، فعلت ذلك وأنا في تونس، واليوم مَنْ لها بعدي؟....

نعم تركت قوّاداً من خيرة من عرف الناس، لهم سلطان على الأفكار والعقول، ولكنّهم لم يستطيعوا النفوذ إلى أعماق الضمير العمومي وهو كلّ ما ينبغي لهم وما هو بالشيء القليل، ولو كان لهم هذا النفوذ لما شذّ عنهم صالح فرحات ولا سلك مسلك المنهزمين وهو سائر في سبيل الشهرة ومرشّح لزعامة الأحرار الدستوريّين، ولما وهن الشعب بالإرهاب ولا استكان للقوّة وهو متطلّع للاستقلال والحريّة.

نعم! كان يجب أن أبقى في تونس وأستمرّ على الجهاد والتضحية حتى تدرك ساعة النصر ونحرز على الفوز. ولكن لماذا خرجت؟ لم أخرج أشراً ولا بطراً، بل خرجت مضطرّاً، وكُلّكم تعلمون ذلك. أم تريد أن أكاشفك بالسرّ

(1) رأي فيه مبالغة إذ من المعلوم أنّ الشيخ عبد العزيز الثعالبي هو من مواليد سنة 1876 بحيث كان عمره في عام 1924 لا يتجاوز 48 سنة.

المخجل؟ وأنا آنف أن يخطّه قلمي. لكنّ تدوينه واجب لرجلٍ مثلي حياته اليوم ليست له بل هي للأجيال والتاريخ. إنّ تونس التي كنت أنفق عليها من مواهبي وأغذّيها من روحي تركتني على أسوأ ما يكون من حالات الاضطرار، وأظهرت عجزها التامّ عن تغذية جسمي. فخرجت ألتمس الرزق في غيرها، بعد أن آليت أنّني سأواليها بما عوّدتها به من الأغذية الروحيّة، وقد فعلت وما فترت عنها أبداً.

رجوتكم أن تصلوني بمساعدة تقيني العوز والاحتياج في هذه الرحلة الطويلة العريضة بعد أن نفد كلّ ما كان بيدي، فوعدتم وبالغتم في التنويه بالوعد، وألجأتموني لانتظار الوفاء أن أقضي أشهراً بمصر زادتني ثقلاً على ثقل حتى وهنت، فخرجت هائماً على وجهي في الآفاق دون أن تفوا لي بوعد. وعدتموني أن تكفلوا عائلتي من بعدي، وما كفالتها عليكم بالأمر العسير، ولكن الرسائل الواردة منها في شهريْ أوت وسبتمبر دلّتني على أن حظّها لم يكن أحسن من حظّي، بل كلّنا معكم على حدّ سواء، هداكم الله ووفّقكم.

عفواً يا صديقي إذا طغى القلم بالشكوى منكم فلا يضير والشكوى إليكم.

سافرت من مصر إلى فلسطين، فمكثت بها 47 يوماً دوّنت فيها أجمل صفحة بيضاء لتونس وأسمعت فيها العالم أنين التونسيّين. وكلّ ما تحدّثت به إليها عنكم وما قالته صُحُفُها عنّا ردّدته صحف أمريكا والهند ونقلت أهمّه الشركات الإخباريّة الإنجليزيّة إلى العالم. وقد أنفقت من جيبي في هذه السياحة 25 ليرة حسب الوصولات التي بيدي، زيادة عمّا أَنْفَقَه عليّ الفلسطينيّون في غدواتي وروحاتي بين مدنها الكثيرة، وفي المآدب والاحتفالات والزينات.

وأنفقت في الحجاز والسفر من جدّة إلى عدن 18 ليرة ولو لم أكن ضيفاً على الطاغية حسين[1] لاستغرقَتْ نفقاتي 50 ليرة. وصلت إلى عدن يوم 2 أوت

(1) حسين بن علي (1856 ـ 1936) تقلّد خطة شريف مكّة خلفاً لأبيه، تحت سلطة الخلافة العثمانيّة. وفي سنة 1910 أعلن الثورة العربية الكبرى على الدولة العثمانية بالتعاون مع=

فأقمت بنزل أوروبا 11 يوماً في كلّ يوم 12 روبية، وكان يومئذ صرف اللّيرة 15 روبية، فأعطيت للأوتيل وحده 9 ليرات عدا ثلاث ريالات، وبلغت نفقاتي الأخرى بين مصاريف النزول والتفتيش والتأشير على الباسبورات [جوازات السفر] نحو الثلاث ليرات.

سافرت إلى اليمن مساء يوم الأربعاء 14 أوت وعدت منه إلى عدن صبيحة يوم الاثنين 6 أكتوبر، وقد بلغ ما أنفقته فيه من جيبي نحو 20 ليرة، وأمّا ما أنفقته عليّ الحكومة فلن أستطيع تقديره. ومن هذه الأرقام تجدون أنّني أنفقت من جيبي في هذه الرحلة نحو 75 ليرة أي نحو 7.500 فرنك صرفتها من قرض عقدته في القاهرة بمائة ليرة، أضف إلى مصاريفي 10 ليرات أرسلتها للعائلة وقد كتبت تستجديني أرسلتها لها من عدن لتسدّد بها ديونها التي اقترضتها في شهريْ أوت وسبتمبر. وقصارى القول، إنّني سأخرج من عدن وأنا لا أملك من الدنيا بعد المصاريف اللاّزمة وأجرة الركوب غير 4 أو 5 جنيهات.

هذا والمصيبة الكبرى والداهية الدهماء أنّ الوجاهة والشهرة تتبعانني إلى كلّ جهة أتوجّه إليها، وفي كلّ مكان يتوهّمون أنّني زعيم وأنّ بيدي أموالاً طائلة، خصوصاً في اليمن، فبعضهم يقول عنّي أمير، والبعض الآخر سلطان، وما إلى ذلك من النعوت الحمقاء الباعثة على الطمع الأجوف.

فكان طلاّب صلاتي في كلّ بلد نزلته أضعاف عدد الأيام التي أمضيتها في بلادهم. فكنت أوّلاً أعطي القاصد منهم عدداً من الريالات، ولما كثر الطالبون

= الحكومة البريطانية التي وعدته بتأسيس دولة عربيّة متّحدة تحت سلطته، إثر انتصار الحلفاء في الحرب العالميّة الأولى. وفي انتظار الوفاء بهذا الوعد نادى بنفسه ملكاً على الحجاز.

وإثر انتهاء الحرب أخلف الحلفاء وعدهم ولم يمدّوا يد المساعدة إلى الشريف حسين لمّا هجم عبد العزيز ابن السعود سلطان نجد على الحجاز وأرغم شريف مكّة على الالتجاء إلى جزيرة قبرص حيث أقام بها من سنة 1924 إلى سنة 1930. وتوفّي بعمّان سنة 1931 ودُفن بالمسجد الأقصى في القدس.

شقّ عليّ الأمر وصعب ردّ الطلاّب خصوصاً العلماء والأشراف وأرباب الوجاهة، وعندهم الطلب من الأمراء جائز غير محظور. فكنت لا أعطي أكثر من ريالَيْن، وكان الآخذون يتناولون هذه العطيّة السخيفة بكل فرح وسرور، وهو دليل واضح على انتشار الفقر والفاقة في اليمن، وهي من أغنى بلاد الله.

أمضيت اليوم بالباسبور [جواز السفر] في قلم الجوازات إلى الهند وخليج فارس والبحرين ونجد والعراق. وقابلت مدير الأمور السياسيّة مقابلة طويلة استغرقت ساعتين، وقد وجدته عالماً بأطواري وأسرار حياتي السياسيّة ومقدّراً لذاتي وشهرتي، وبالرغم من كلّ ما يعلمه عنّي، فقد أجاز لي أن أسافر إلى كلّ مكان، بينما فرنسا تمنعني من المرور من سوريا إلى العراق...!.

كتبتُ إلى العائلة كلمة موجزة عن الرّحلة ولا أظنّها تمكّنكم من الاطّلاع عليها، كما كتبت أيضاً كلمة للشيخ صالح بن يحيى[1] وكلمة للسيد محمّد بن عمّار[2]، وأرجأت التفصيل إلى كتاب أحرّره لك أو إلى محيي الدين [القليبي][3]. ولمّا سبق كتابُك كتابه بعثت بخلاصتها إليك لتقرأها ـ إن رأيتَ

(1) الشيخ صالح بن يحيى مناضل من الرعيل الأوّل من أصل جزائري ومن المقرّبين للشيخ عبد العزيز الثعالبي. انضمّ إلى الحزب الحرّ الدستوري التونسي منذ تأسيسه وناضل في صفوفه إلى جانب إخوانه من بني ميزاب إبراهيم طفّيش ومحمد الثميني وإبراهيم بن الحاج عيسى المعروف بأبي اليقظان. وكان الشيخ صالح بن يحيى يمثّل داخل الحزب الدستوري الشقّ المطالب بالاستقلال.

(2) محمد بن عمّار مناضل من الرعيل الأول ومن أشدّ الدستوريّين تعلّقاً بالشيخ عبد العزيز الثعالبي، وقد التحق بجوار ربّه سنة 1947. انظر القصيدة التي رثاه بها أمير الشعراء محمد الشاذلي خزنه دار والواردة في الجزء الخامس من ديوان هذا الأخير، ص 312 ـ 313، تونس 1996.

(3) محيي الدين القليبي (1899 ـ 1954) أحد قادة الحزب الدستوري القديم ومن أنشط المناضلين الدستوريّين، انضمّ إلى الحزب منذ سنة 1920 وتولّى إدارته إثر هجرة الثعالبي إلى الشرق سنة 1923. وتميّز القليبي بنشاطه الحثيث في الميدان الصحفي حيث سخّر قلمه للتشهير بالسياسة الاستعمارية والدفاع عن القضية التونسيّة ومقاومة =

في قراءتها فائدة ـ على إخواننا الدستوريّين في نادي الحزب

خصوم الحزب الدستوري من التونسيين والأجانب. وفي سنة 1947 تحوّل إلى القاهرة لتمثيل حزبه في مكتب المغرب العربي والدفاع عن المطالب التونسية ثم رجع إلى تونس 1949 لاستئناف نشاطه السياسي والثقافي. ورجع مرة ثانية إلى القاهرة سنة 1952 ثم توجّه إلى فلسطين للمشاركة في المؤتمر الإسلامي الثاني بالقدس وأقام فترة من الزمن بفلسطين مسخّراً جهوده للدفاع عن القضية الفلسطينية. وأخيراً استقرّ به المقام في دمشق إلى أن أدركته المنيّة يوم أوّل ديسمبر 1954.

الرّحلة إلى اليمن

[التحوّل من عدن إلى سلطنة لحج]:

خرجت من عدن ـ التواهي[1] صبيحة يوم 12 أوت [1924] من فندق أوروبا إلى قرية المعلا الواقعة بين عدن العربيّة والتواهي، وهي مركز السكّة الحديديّة الممتدّة إلى مسافة 32 كيلومتراً، أي من عدن إلى مركز النقطة العسكريّة الإنجليزيّة الواقعة في سلطنة لحج المسمّاة الخداد التي أقامتها انجلترا لحراسة المناطق اليمنيّة الداخلة تحت نفوذها عقب هجوم اليمن على مركز الدريجة التابع لسلطنة الحواشب أواخر سنة 1339 هـ/ 1921 م. ولمّا وقفت أمام مكتب صرف التذاكر تقدّم إليّ بوليس سزي وقال: «أين تريد السفر؟»، فقلت: «إلى لحج». فقال: «أين الرّخصة؟». فأخرجت له ورقة الجواز. فقال: «لست أريد هذه وإنما أريد ورقة أخرى تصرفها الحكومة لمن تأذن له بالسفر إلى لحج». فقلت له: إنّني لم أحرز عليها ولم أطلبها. فقال: «تعال إلى القسم وتفاهم مع المأمور». فذهبنا ولم نجد المأمور لأنّ الساعة كانت السابعة وهو لا يأتي إلاّ بعد الثامنة. فخرجت من القسم وركبت سيّارة وأخذت معي الشنط [الحقائب] وسرت إلى بيت حسن علي، فصادفت الصديق عبد الكريم، فأخبرته بالقضيّة فغضب غضبة مضريّة على البوليس وجهله. وقال: «الآن تسافر». فأمر بإعداد سيّارته. وبعد بضع دقائق استوينا فيها ومعنا الشنط وسرنا إلى مدينة

(1) عدن: تقع المدينة العتيقة قرب الشاطىء الشرقي لشبه جزيرة عدن. أما المدينة الحديثة فتقع في شمال غربي شبه الجزيرة حيث يوجد ميناء التواهي.

الشيخ عثمان فأدركنا بها قطار لحج، فركبت عربة الدرجة الأولى وودعت الصديق. وعلى الساعة التاسعة بالضبط وصل القطار إلى مدينة الحوطة[1] عاصمة لحج. وكان حضرة السلطان عبد الكريم[2] عالماً بقدومي. فأرسل بعض رجال حاشيته لاستقبالي، فنزلت في أجمل وأبهى أقسام القصر. وبعد أن استرحت قليلاً قابلت السلطان وجلست معه في مجلسه العامّ مع رجال الحكومة. وبعد العصر ركبنا السيّارة وخرجنا للنّزهة في ضواحي المدينة ثم عدنا بعد الغروب، وكانت ليلة من ليالي الحرّ الشديد. فجلسنا في مقعد خلوي جميل في بستان القصر وتناولنا العشاء هناك وأقبل لزيارتي في تلك الليلة أغلب أمراء البيت السلطاني وفي مقدّمتهم: الأمير أحمد بن فضل[3] شقيق السلطان والقائد العام للجيوش السلطانيّة، وهو من أذكياء المتعلّمين ومؤلّف تاريخ لحج وبلاد القحطانيّين - ومؤلّفه هذا من أدقّ وأحفل التواريخ التي رأيتها وهو بيد الناسخ ومتى تمّ نسخه يُسلّم للطبع -، والأمير مهدي بن علي والي الحوطة والسيّد علوي الجفري الوزير الأكبر للسلطنة. ومكثنا نتسامر ونتباحث في المسألة العربيّة وأطوارها وما ينبغي أن يُعمَل لإنهاضها وانتعاشها وجمع كلمة أمرائها، إلى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، ثم مضى كلّ منّا إلى مضجعه. ولم تكد تشرق غزالة اليوم التالي 13 أوت حتى دعاني السلطان إلى الحضور واستأنفنا حديثنا بالأمس. وهو رجل عصري له اطّلاع وقد زار أغلب ممالك أوروبا وشاهد ما فيها من الترقيات، وله عناية بنهضة بلاده ويودّ لو تشترك معه كافّة البلاد العربيّة.

وبعد الغداء أفهمته أنّي مزمع على السفر إلى اليمن وأنّني كلّفت من هنا

(1) الحوطة: عاصمة سلطنة لحج تقع على وادي يخرج إلى بحر عدن قرب قرية الجيب، انظر: «صفة جزيرة العرب» للهمداني، تحقيق الأكوع الحوالي، 1/204.

(2) هو السلطان عبد الكريم بن فضل العبدلي.

(3) هو المؤرخ أحمد بن فضل العبدلي شقيق السلطان عبد الكريم مؤلّف كتاب تاريخ سلطنة لحج، «هدية الزمن»، الزركلي، 1/187.

المراكب وسأغادر لحج الساعة السادسة مساءً، فحاول أن أمكث لديه بقيّة اليوم وأسافر في اليوم التالي، فأبيت وأصررت على السفر ووعدته أنّني سأمكث في ضيافته أيّاماً بعد العودة، فقبل ذلك وأهداني قبل مفارقتي إيّاه قارورة من الغالية وما كنت أعرفها من قبل إلاّ في كتب الأدب، فسررت بها كثيراً ولكنّها لم تكن من نصيبي، بل كانت كأنّها أمانة حملتها من لحج إلى صنعاء للصديق الوفيّ السيد أحمد الكبسي حاكم بلاد الرؤوس (اسم مقاطعة في اليمن عاصمتها بلد وعلان)[1]، وعضو مجلس المبعوثان العثماني عن اليمن في عهد الدولة العثمانيّة الجليلة. فأمر السلطان في الحال بإعداد العساكر اللاّزمة لمصاحبتي وحراستي في الطريق، فعيّنوا خمسة: اثنان منهم من جيش المهاري[2]، وثلاثة من الفرسان. ومعي أنا أربعة أتباع، أحدهما مكلّف بحفظ الأشياء، والآخر مكلّف بالماء والمحافظة عليه، لأنّه لا توجد مياه مصفّاة، بل شرب كلّ المسافرين من مياه النهر وهي غير نقيّة، واثنان يمشيان إلى جانب البغلة. أمّا العساكر فهم: باغث ومحمد علي ومحمود عبد الله وسعد محمّد ونصر غالب. والخدم: سيّد أحمد العبدلي وناجي الأبي وعلي غالب والحاج حمّودة طه البحراني.

[التوجّه إلى سلطنة الحواشب]:

سرنا في طريقنا، وما كنت خبيراً بالسفر من قبل على ظهور الدوابّ، ولم يكن في تلك الساعة الخادمان يمشيان إلى جانبي، ولمّا وصلنا إلى المكان المعروف بميدة أدركنا القطار من خلف فأجفلت البغلة واندفعت إلى وسط الحقول فوقعتُ على وجهي وانكسرت سنّي، ولكن سلم بدني والحمد لله. وبعد أن أصلحت من شأني استأنفت الركوب وأحاط بي الخدم من تلك الساعة على الصورة الآنفة. ولمّا وصلنا إلى المكان المعروف بالحسيني لحق بنا شقيق

(1) وعلان: حصن باليمن في ناحية ردمان، ياقوت: معجم البلدان.

(2) المهاري، جمع مَهْري: سلالة من الإبل.

السلطان، أحمد بن فضل في سيّارة، لمّا بلغ السلطان وقوعي من على البغلة، فأعلمته بالحادثة على صورتها وأكّدت له سلامتي، فودّعني وعاد إلى الحوطة. وتمادينا في سيرنا إلى أن بلغنا قرية الشقعة، فحضر عاقل القرية (شيخها) وأنزلنا في منزل حسن بُني حديثاً، فنمت تلك الليلة نوماً عميقاً، وعلى الساعة الرابعة صباحاً كنّا على ظهر الطريق. وفي الساعة الخامسة ونصف وصلنا إلى قرية دكيم التي كانت مركزاً للقيادة العامّة للجيوش الإنجليزيّة في أوائل الحرب العموميّة [1914 ـ 1918]، قبل هجوم العثمانيّين على لحج، وآثار التحصين لم تزل موجودة فيها إلى الآن. فاسترحنا بها قليلاً ثم استأنفنا السير، وبعد قليل دخلنا «خنقة»(1) وادي الطنان، وهو مضيق طويل تكتنفه الجبال من الشمال إلى الجنوب، فينخفض تارة ويصعد أخرى وهو طريق مخيف في اليمن بالنسبة للقوافل والمسافرين، لا يمرّون فيه إلاّ وأصابعهم على لولب البنادق استعداداً لإطلاق الرصاص. فقد اتخذته قبائل الصبيحة مكمناً للصوصيّة والقتل والفتك بالأرواح والاعتداء على أمن البرايا والسلب والنهب. وقد كنّا نمشي بين مقابر الشهداء، لا الذين ماتوا في ساحات الوغى دفاعاً عن الوطن والشرف، ولكن الذين قُتِلوا غيلة في سبيل الدعارة والغباوة، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وقد وقفت بنفسي على قبر الشريف الشهيد محسن بن علي قتله طنج الصبيحي في رمضان سنة 1341 هـ (1922 م)، وترك من خلفه ذريّة ضعافاً وعائلة فقيرة فكفلهم سلطان الحواشب(2)، ورأيت أبناءه يمرحون في القصر، أحدهما اسمه فضل والآخر محمود، الأوّل في سنّ الخامسة والثاني في الرابعة، كان الله لهم وجازى الله السلطان خيراً.

والصبيحة اسم لبطن من العرب. وهم عريقون في الوحشيّة والسذاجة

(1) خنقة أو فجّ: اصطلاح عامّي يعني ممرّ جبلي.

(2) الحواشب: إحدى المحميّات البريطانية التسع التابعة لمستعمرة عدن.

تتفرّع منه أنجاد كثيرة، منهم: المخدومي والمنصوري والبعسوسي والحميدي والجبري والحريمي والغليبي والمطرفي والموظّف والعرطّط. وجملة هذه القبائل لا يزيد عددها عن 2000 نسمة، وهم ينقسمون إلى قسمين: قسم منهم آخذ في أسباب التمدّن والترقّي والتقدّم وهم: فريق المخدومي والمنصوري. فالأوّلون عمّروا أرض مرسة والآخيرون أرض المشاري، وبنوا المساكن وفلحوا الأرض وزرعوها. أما بقيّة الفرق فباقون على سذاجتهم يسكنون الجبال ويلتجئون في أغلب الأوقات إلى وادي ذر. ومن مميّزاتهم أنّهم لا يحملون الجنابي التي يتمنطق بها العرب، ولا يحترفون بشيء غر قطع الطريق عن المسافرين وسلب أمتعتهم، مسكنهم الغابات ومنامهم على الأرض تحت الأشجار وهم يأكلون مرّة واحدة في اليوم واللّيلة وأكلهم مقدار حفنة من الدُّخن(1) يكرعون عليها الماء فيشبعون.

مكثنا نسير في وادي الطنان ثلاث ساعات بين أنجاد وأغوار، وأصعب عقبة جزناها في هذا الوادي «عقبة السامل» وهي مرصوفة رصفاً طبيعيّاً من الحجارة المائيّة الملساء، لا أثر فيها للرمال أو الأتربة، تتزحلق تحت الأقدام. وكنتُ كلّما خَطَتْ بي البغلة خطوة أحسبها القاضية، وما كدنا نصدّق بالنجاة حتى نزلنا من العقبة وسرنا في وادي الخندق، وهو وادي متّسع تسيل فيه المياه المنحدرة من أواسط اليمن من جبل بعدان المطلّ على مدينة آب، ومنه صعدنا إلى قرية الفندق محلّ مقيل القوافل. فنزلت في بيت عطّار [بقّال] القرية ضيف بن عبد الله، وأمرت بذبح خروف لغدائنا اشتريته بثلاث روبيات [21 فرنكاً]، فأكلنا منه جميعاً هنيئاً مريئاً وتركنا نصيباً منه لعشاء صاحب البيت وعائلته رغم لؤمه.

وفي الساعة الثالثة شددنا الرّكاب وقصدنا الطريق المعروف بطريق المتقاودات، يريدون بها الربى والآكام المتّصلة ببعضها. وبعد ساعة نزلنا إلى

(1) الدُّخن: نبات حبّه صغير أملس، الواحدة دُخنة.

وادي قيف، وهو من أجمل الأودية وأكثر أشجاره من السَّمُر[1] والأراك[2] والضبيان والعلفق. وقد رأيت العرب يتفكّهون بأكل عروق السّمُر ويعضهم يمزجها باللبن. بعد الساعة الخامسة غشيتنا سحابة في نصف الوادي أمطرتنا مطراً غزيراً ولم تنقطع حتى قطعنا الوادي وهبّ على أثرها نسيم عليل منعش للأبدان. وهنا يعجز قلمي عن وصف الراحة والسرور اللّذين أدركتهما بعد أن كادت نفسي تزهق من حرّ السموم الذي كابدته من يوم وصولي إلى العقبة. فقد كنت أشعر كأنّني في تونس أستنشق نسمات السحر في ليالي الربيع المُقمِرة حول أفنان البستان العمومي.

ولمّا انتهينا من الوادي سلكنا طريق أجمة غيضاء اشتبكت أغصانها وصعدنا إلى عقبة مريب، ثم نزلنا إلى قرية مريب محلّ مبيت القوافل، ومنها إلى جبال المقحف، ومنها إلى عقبة القشلة، وهي من أصعب الطرق، أكثرها ضيّق مرصوف بالحجارة المائية تتزحلق فيها الأقدام وابتنا سائرين إلى الساعة الثامنة ليلاً.

وما كادت تدقّ حتى كنّا على أبواب بلد المسيمير عاصمة سلطنة الحواشب.

[في ضيافة سلطان الحواشب]:

قصدنا قصر السلطان، ولمّا دنونا منه أطلق العساكر طلقَيْن ناريّتين من بنادقهم إشعاراً بأنّ القادم من ذوي الأخطار حسب عرف البلاد. فخرج لنا العساكر والعبيد فاستقبلونا أحسن استقبال، وأنزلونا في بناية ملاصقة للقصر داخل السور من ناحية اليمين. وصلت وأنا لا أعي من التعب، فنمت مِلْءَ جفوني إلى الصباح.

(1) السَّمُر: نبات من نوع العضاه، والعضاه شجر يعظم وله شوك.
(2) الأراك: نوع من الشجر واحدته أراكة.

وفي صبيحة يوم الجمعة 15 أوت نزل إلينا السلطان محسن بن علي وهو شابّ صغير لم يبلغ السادسة عشرة من عمره، ومعه الأمير علي بن سلام وصيّ السلطنة، فسلّما علينا ورحّبا بنا أجمل ترحيب. وأطلعتهما وقتئذ على رسالة سلطان لحج يوصيهما بي خيراً، فأمرا في الحال بنقلي إلى داخل القصر، فقلت لهما أيّ فائدة في مكوثي داخل القصر ساعة أو ساعتَيْن وأنا أريد الرحيل في هذا اليوم، فأبيا ذلك وأقسما عليّ أن أمكث في ضيافتهما هذا اليوم وأسافر في اليوم التالي. فبقيت مكرهاً. وقبل أن أدخل من باب القصر ذُبِحَت أمامي الذبائح من الخرفان وتنافس الطُّهاة في إعداد صنوف الطعام. وقد برزت الأميرة نعمى والدة السلطان إلى المطبخ بنفسها تراقب طبخ طعامي، وهي لم تزل في عنفوان الشباب. فقد تزوّجت بوصيّ المملكة وهي القائمة على تدبير أمور السلطنة وإدارة شؤون القصر ومثلها قليل في النساء العربيّات، لا عيب فيها إلّا كرمها ومبالغتها في اصطناع الناس وحملهم على محبّة واحترام ابنها الفتى الشابّ. وقد أمرَتْه أن يلازم خدمتي في هذا اليوم، فقام بذلك أفضل قيام. وفي الغد عاد العساكر القادمون معي من لحج وعيّن السلطان محسن بن علي عساكر آخرين من قِبَله بصحبوتني إلى ماوية[1] عاصمة حدود بلاد الإمام. وحول الساعة الثامنة نزلت من القصر بعد أن ودّعت كلّ من به من الأميرات والجواري وخرجت في موكب حافل إلى ظاهر البلدة، فودّعت السلطان ورجال حاشيته فعادوا إلى قصرهم وسلكت عرض الطريق. فقطعنا وادي جبل علاب ومنه طعنا إلى أكمة طريقها صعبة السلوك. ثم نزلنا إلى وادي دوبقة وهو مُلتَوٍ كثير الانحدار كثير الحجارة لا يسلكه السائر إلا بمشقّة وفيه غابة أغلب أشجارها من السَّمُر والصبر[2]

(1) ماوية: مدينة تقع على حدود المحميّات البريطانية، انظر: **صفة جزيرة العرب**، ص 176.
(2) الصَّبِر: هو نبات ورقة كورق السوسن، في كلّ ورقة شيء يشبه الشوك، ثقيلة الرائحة مرّة المذاق، كثيرة الرطوبة، انظر: «**حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقّار**»، لأبي القاسم الغسّاني، تحقيق محمد العربي الخطابي، ص 210.

والسرح(1) والعلّيق(2)، وهو متّصل بوادي تبن ومنه يتّصل الطريق بوادي الفقير.

حديث خرافة:

بينما كنّا نسير وإذ بمحمّد مرزوق شاويش العساكر المرافقين لي يقول: قف أيها السيّد! قف أيها السيّد! فوقفت مبهوتاً أنظر إليه. فسألته ما الخبر؟ فقال: انظر إلى هذا الجبل الواقع على يميننا، واسمه جبل ورور، وهو محلّ إقامة مولانا سعيد بن المنصر سلطان الجان، وهو حارس المكان مقابل جُعْل على كلّ مسافر لم يسبق له طروق هذه البلاد. وهو أن ينذر له قرباناً يذبحه ويتصدّق بلحمه. وعلامة النذر أن يضع حجارة وعوداً فوق رهوة(3) دويقة (وهي ربوة صغيرة من الحجارة)، وإن لم يَفِ بنذره يغضب عليه السلطان وينزل به مرضاً يشرف به على الهلاك ولا ينجو منه إلاّ متى وفى بالنذر. فما كان من الخادم الحاج حمّودة طه إلاّ أن أسرع إلى التقاط العود والحجارة ووضعهما على الرهوة ونوى الوفاء بالنذر. كنت أشاهده يفعل ذلك وأنا أتعجّب وأضحك وأستغرب من نفسي كيف صرت أسمع هذه الأقاصيص بارتياح تامّ ولا أعمد لتسفيه رأي القائلين بها؟.

[مواصلة الرحلة في أرض القحطانيّين]:

من هناك نزلنا إلى الملحة، وهي قرية بدويّة مؤلّفة من خصاص(4) متلاصقة غير متناسقة، فنزلنا بيت العاقل [شيخ القرية] نصر فريد فألفيناه خرج في الصباح مع شويهاته يرتاد لها الماء والكلأ. فتلقّتنا أمّه العجوز وأدخلتنا إلى حفش(5) من أحفاش البيت وأحضرت لنا غداءنا، فقدّمت لي طيراً من الدجاج

(1) السرح: كلّ شجر طال أو كلّ شجر لا شوك فيه، واحدته سرحة.
(2) العُلّيق: نبت يتعلّق بالشجر وثمره كثمر التوت.
(3) الرهوة: المكان المرتفع.
(4) خصاص: جمع خُصّ وهو البيت المبني من قصب أو شجر.
(5) الحِفْش: هو البيت الصغير.

مقليّاً وأدنت من العساكر والخدم الذرة وقدحاً من السمن فأكلنا حتى اكتفينا ومكثنا في ضيافتها من الساعة العاشرة إلى الساعة الرابعة بعد الظهر، ثم ودّعناها وارتحلنا. فسلكنا طريق وادي ورزان، وكان سيله متدفّقاً وهو ملتوي المسالك كثير التعاريج يسير فيه السالك بين ضفّتيه مراراً وماؤه عذب لا شائبة فيه. ثم انتقلنا منه إلى وادي شم ومنه إلى وادي مجباية ثم إلى وادي القويح، وهو من أنضر وأبهج الأودية في أرض القحطانيّين. وما كدنا نسير فيه إلاّ قليلاً حتى اكفهرّ الأفق وتلبّد ولمع البرق وزمجرت الرعود ثم نزل المطر مدراراً. فكان يُخيّل إليّ، وأنا في وسط الوادي بين الأشجار، والنسيم يهبّ من آونة إلى أخرى كأنّه طالب حاجة يريد أن يدنو منّي فيقعده الحياء، أنّني صرت سيّد هذه البقعة وحاكمها المطاع، من شدّة ما حلّ بي من السرور بذهاب الحرّ واعتدال الطقس وتمتّعي بالهواء النقيّ في جوّ صافٍ ضللت عنه منذ شهور.

ولمّا توسّطنا الوادي صعدنا في طريق وعر إلى مرتفع شاهق ومنه وصلنا إلى أكمة الدمية، وفيها غابة كثيفة أكثرها من شجر الأثل(1)، ومنها سرنا صعداً إلى قرية الدريجة، محلّ مبيت المسافرين. أما نزولنا فقد كان مقرّراً بمرسوم سلطاني في بيت الشيخ صالح عبادة عاقل الدريجة الموجود في المحلّ المعروف بالسروة. وهو يبعد عن القرية بسير الفارس المجدّ بنحو نصف ساعة. فسرنا إليه وقد مررنا في طريقنا بجبل الضلعة الذي تطاحنت فيه جيوش الإمام [إمام اليمن] بجيوش الحواشب سنة 1339 هـ/ 1920 م. ولولا انضمام الطيّارات الإنجليزيّة لهذه الأخيرة، لكانت طعمة للإمام ولبلغت عساكره إلى أطراف عدن، والشجاعة مهما كانت لا تستطيع أن تكافح وحدها قوّة الطيّارات. ولما انتصرت الحواشب عاد الجيشان إلى حدودهما والتزم الإمام بالمكوث داخل حدوده القديمة وأن لا يعتدي في المستقبل على أرض الحواشب.

(1) الأثل: من جنس الشجر العظام، ولون خشبه أحمر تصنع منه الأواني والقِصَع والجفان، حديقة الأزهار، ص 34.

[الوصول إلى حدود اليمن]:

وصلنا السروة الساعة السابعة والنصف ليلاً فنزلنا أجمة غنّاء اسمها قرقحان، وهي واقعة أسفل قصر العاقل وفوق السبالة إلى جانب المزارع، وما كاد يتّصل خبر قدومنا بالعاقل حتى خفّ للقائنا في أتباعه وعشيرته وحمل إلينا الزاد والعلوفة[1] وبتنا تلك الليلة على أحسن حال. ونهضنا في الغد مبكّرين على الساعة الرابعة صباحاً فخرجنا من قرقحان وبعد ساعة وصلنا إلى نقطة الحدود الفاصلة بين مملكة الإمام وأرض الحواشب، وهي المعروفة بالواقدية[2]. وبعد أن قطعنا الآكام[3] نزلنا إلى وادي ذابة المتّصل بماوية، وهو واقع بين سلسلتين من الجبال يتّسع تارة ويضيق آونة، وبه أشجار كثيفة ضخمة من الأثل والمدح والسك والأثب وأغلب مزارعه الذّرة والحناء[4]، وفي نهاية الوادي صعدنا إلى صفا[5] محضار، وهو أكمة مرتفعة كلّها قطع ضخمة من صمّ الصفا متّصل بعضها ببعض، مسافتها نحو كيلومتر، وبمجرّد ما قطعناه، أشرفنا على البلدة، والحمد لله على السلامة.

دخلنا ماوية عاصمة بلاد الغماغرة في الساعة الثامنة صباحاً، وهي مدينة حديثة ليس لها شأن، ولكن لما آلت حكومة اليمن إلى الإمام [يحيى] وقويت مطامعه في الاستيلاء على الإمارات القحطانيّة الداخلة تحت الحماية البريطانية جعلها قاعدة عسكريّة وأقام بها فرقة كاملة من الجنود واتّخذها مركز لجمرك الحدود وأوجد فيها كافّة الفروع اللاّزمة للحكومة، فعمرت وصار لها مستقبل عظيم حتى أنّها ستصبح من أهمّ المراكز التجاريّة التي تربط اليمن بمدينة عدن وملحقاتها.

(1) العلوفة جمع علف، ما تُطعَمه الدواب.
(2) مدينة الواقدية، انظر: الهمداني، ص 145.
(3) الآكام: جمع أكمَة وهي التلّ.
(4) الحنّاء: نوع من النبات من جنس البقل، له ورق كورق الآس أو ورق الزيتون الناعم.
(5) الصفا: جمع صفاة أي الحجر الصلد الضخم.

ولكنّني علمت في الأيام الأخيرة أنّ الحكومة الإماميّة عدلت عن هذا العزم، وهي تريد تحويل التجارة من عدن إلى مخا[1] وعدول القوافل من نقطة الشّياني عن طريق ماوية إلى تعزّ[2] ومنها تسير إلى مخا رأساً.

وبمجرد ما وصلت أمام دكّان تجاري رمت النزول، فخرج صاحبه القائد محمّد وأسرع لملاقاتي وألحّ عليّ أن أنزل لديه، فنزلت وأرسلت الدوابّ التي معي إلى الفندق. ولم أكد أنزل حتى غصّ الدكّان والساحة التي أمامه بالقادمين للسلام عليّ. ولما استرحت بعث إليّ العلاّمة الفاضل الأستاذ الشيخ محمد بن أحمد الجنيدي حاكم الجهة، وهو من أصلاء البلاد اليمنيّة وأحد كبار أعيانها، بابنه عبد الله ورجال حاشيته يدعونني إلى النزول في دار الحكومة. فأسرعت بتلبية الدعوة، وكان معي كتاب إليه من سلطان الحواشب يلتمس منه أن يمهّد لي الطريق إلى صنعاء. فتلقّاني بأتمّ ما يكون من الحفاوة والسرور، ولما تبيّن عزمي أبرق إلى أمير الجيوش ومتصرّف لواء تعزّ السيد علي الوزير يعلمه بقدومي وعزمي على زيارة الإمام. فأبرق إليّ الأمير بتحيّة القدوم وأمر الحاكم أن يسهّل لي كافة معدّات السفر وأن يرسل معي نفراً من الجيش يحافظون عليّ في الطريق.

ولما ذاع خبر وصولي في البلدة والقرى المجاورة لها، خفّ للقائي والسلام عليّ خلق لا يحصى من طبقات مختلفة أخصّ بالذكر منهم: الأستاذ المفتي بقضاء ماوية الشيخ الأبرّ الحاج عمر مصلح ومدير التلغراف إبراهيم أفندي والشريف السيد هاشم بن أحمد عوادي وحسن أفندي بن إسماعيل المغربي

(1) مخا: ميناء على البحر الأحمر يقع «بين زبيد وعدن» (ياقوت)، ولكنه اضمحلّ في الوقت الحاضر وعوّضه ميناء الحديدة، أكبر موانىء اليمن على البحر الأحمر.
(2) تعزّ: المدينة الثانية في اليمن، كانت تعدّ لما زارها الشيخ عبد العزيز الثعالبي حوالي 20,000 نسمة، وقد جعلها الإمام أحمد عاصمة اليمن بعد انتصاره على ثورة ابن الوزير في صنعاء.

وكيل عامل الجهة وعبد الإلّه أفندي أمين مالية القضاء والقاضي علي بن محمد صبرة باش كاتب المحكمة الشرعيّة. وأقبل لزيارتي أيضاً بلبل الإنشاد الفريد الشيخ عبد الباقي بن حسن التعزي مطرب السيد علي الوزير. وبالرغم من شيخوخته وكبر سنّه فإن فيه بقيّة صالحة، وقد قضينا هزيعاً من الليل يسمعنا طرائف الأشعار بصوته الرخيم وهو ينقر على الدفّ نقرات تهتزّ لها أوتار القلوب.

في تلك اللّيلة أعددنا كلّ وسائل السفر وما وافت الساعة الثامنة من صبيحة يوم الاثنين 18 أوت حتى نزلت من سراي الحاكم مُشيّعاً بمئات من الأعيان والأشراف والموظفين والعلماء، فودّعتهم جميعاً واستويت على ظهر البغلة وأبى جمّ غفير منهم أن ينصرف عنّي فتبعوني إلى رأس العصرية وفي مقدّمتهم الشيخ المفتي ومدير إدارة البرق وأمين المال، وهناك ودّعوني مرّة ثانية وألسنتهم تدعو الله لي بالسلامة والتوفيق.

[استئناف الرحلة داخل البلاد اليمنيّة]:

سلكنا عقبة العصريّة التي يسير فيها الراكب كأنّه يتسلّق جداراً من شدّة ارتفاعها وكثافة حجارتها فقطعناها في نحو عشرين دقيقة، ولكن بعد شقّ المرائر. ثم دخلنا في نجد البكري وكلاهما كان مكسوّاً بالأعشاب والأحراش الكثيفة وأكثرها من شجر العلب وهناك تسمع لغى الطير وصفيره وأنغامه الشجيّة وتراها تطير وتجري أمامك ومن حولك كأنّها مرحّبة بك تناشدك الرحمة والولاء، بعد أن كنّا لا نرى إلا أشعّة الشمس المحرقة تتموّج فوق الجبال الجرداء فتنعكس حرارتها بين المضايق والمعابر بصورة لا تذكر معها نار السموم، والطبيعة من وراء ذلك واجمة حزينة تشكو سوء حظّها للّه. ثم سلكنا سلسلة جبال بني علي وهي خالية من السكّان كثيرة الأحراش والحيوانات البريّة. ومن أشجارها القرظ[1] والعمق، ومن حيواناتها نوع من القردة إذا

(1) القَرَظ: شجر له شوك يتدوّح كثيراً، مفرده قَرَظة وهي الأقاقيا (Acacia)، حديقة الأزهار، ص 248.

انتصبت ساوت قاماتها الإنسان، وإذا انفردت برجل من غير سلاح افترسته. وبطون هذه الجبال موفورة من المعادن خصوصاً الرصاص وما إليه. وبمجرّد ما نزلنا من الشُّعَب تغيّرت الطبيعة وبدأت الأرض تتّسع عن سهولها الخصبة والمياه تتدفّق مثل سيل من لجين بارد عذب. ومَن يعرف أوروبا يكاد يظنّ هذه الجهة قطعة منها، رغماً من خلوّها من آثار الصناعة والتمدّن، هذا إن لم نقل إنه ربّما فضّلها عليها. ويسمّون هذه الجهة بلاد عومن يسير فيها الراكب مسافة ساعتين ولا تمتاز عن غيرها من بقاع اليمن الجميلة إلا بضخامة أشجارها وتقادم العهد عليها وكلّها من العلب والأثْل والعمق. وقد راق لي أن أنزل وأتفيّأ ظلال شجرة من الأنب يبلغ قطر دائرتها نحو أربعة أمتار وكانت جذورها ناتئة عن الأرض وكل جذر يبلغ قطره أعمق الأشجار عمراً المعروفة في أوروبا وعلى السفور، وقد رأينا جذرَين ناتئَين فوق بعضهما حسبناهما أكمة بيضاء تظلّلها الجذوع والأغصان والأوراق.

وفي منتهى أرض عومن تجد وادياً صغيراً جارياً يفصل بينهما وبين بلاد شرمان. وهذه الأخيرة أكثر عمارة وأوفر خصباً وغيطانها زاهية بزراعة الدُّخن والذرة ممتدّة إلى مسافات لا يبلغ مداها البصر. وتوجد في أطرافها الغابات وفوق آكامها القصور الشاهقة والمباني الجميلة مبنيّة على طراز الحصون والقلاع العظيمة تشبه كثيراً قلاع الفنيقيّين. ومن حولها البيوت والأكواخ، ويظهر أنها مساكن الوجهاء والعُقّال وغيرهم من سادات القوم ورؤساء البلاد. وتوجد بأعلى ربوات شرمان قلعة حصينة قديمة العهد أقيمت بها مفرزة عسكريّة لمراقبة أهل الجهة، قيادتها موكولة للشيخ عبد الله بن ناصر البحر الزيدي. ثم تمادينا في السير إلى أن بلغنا قرية الحُمَيْرَة[1] للمبيت بها وليتنا لم نفعل.

نزلنا الحميرة ولمّا رأيت مسجدها فضّلت النزول فيه على بيت العاقل، وهو أحسن وأجمل بناء فيها. وقد أردت أن أنام مبكّراً حتى نسافر في وقت

(1) هكذا في الأصل، وعند الهمداني (ص 185): الحميراء.

السحر، وأنا غير واقف على آفاتها الخبيثة. فإننا ما كدنا نضطجع بعد صلاة العشاء حتى هبّ علينا جيش من البقّ (يسمّيه العامة ناموساً)[1]، يلسعنا مثل الزنابير[2] ويبقى مكان اللّسع مكدوماً ناتئاً أسابيع ملتهباً، ومتى حكّه الإنسان تقرّح وسال منه الصديد. وقد كانت أماكن اللّسع في جسمي من «ناموس» هذه القرية ظاهرة الأثر في رأسي ويديّ ورجليّ واستمرّت إلى أن أزالها الأطبّاء في صنعاء أثناء مرضي. ولم أستطع النوم في هذه الليلة إلى الصباح، لذلك اضطررت أن آمر بشدّ الرحال في الساعة الثالثة صباحاً. وبعد دقائق خرجنا من هذه القرية ونحن غير مصدّقين بالنجاة منها ومن لؤم «ناموسها» وأهلها البخلاء. وسلكنا طريق الشعب الكبير من أرض شومان، ولم نتمكّن من اجتيازه إلاّ في الساعة السابعة صباحاً، وقد شهدت أنواعاً كثيرة من حيوانه وطيره زيادة عمّا ذكرناه، لم يبق منه في الذاكرة غير الغزال، وهو شبيه بمعز اليمن ولكنه شرود يقطن الجبال. وفيه أيضاً طائر يسمّونه القرع أكبر من الدجاج ويقولون إنه ألذّ منه طعاماً، لونه أبيض منقوط بالسواد. ثم سلكنا أرض الأزارق وفيها قرى عديدة أشهرها قاشع. ولأهل شومان والأزارق عناية عظيمة بتربية النحل وعسلهم مشهور في اليمن باللّذاذة.

ولما نزلنا من ربوة قاشع اتّسعت دائرة الأفق أمام أبصارنا فكنّا نرى القرى والمزارع والقصور والأحراش والمداشر منتشرة في كلّ مكان وهي عامرة بالسكّان كأننا نسير في أواسط بلاد أوروبا، وهكذا إلى أن وصلنا إلى نهر البرّاقة؛ فصعدنا إلى أكمة المرفدين فقطعناها في ساعة. ثم خرجنا إلى وادي نخلان وفيه مزارع كثيرة للذرة والدُّخن وتوجد فوق الرُّبى المحيطة به القرى والقصور، وأوّل ما وقع بصري على منارة جميلة تشبه منائر الأستانة العليّة، منارة أبصرتها من قرية المربد وهي منها على بعد ساعتين، ولما دنونا من سائلة

(1) والناموس عندنا في تونس: البعوض.

(2) الزنابير: جمع زنبور أو زنبار وهي حشرة أليمة اللّسع.

نخلان دنت منا المنارة والقرية فشاهدنا بها ستّة قصور هي من أجمل وأحكم القصور اليمنية التي شاهدتها في طريقي. والجامع موجود أسفل القرية وهو عتيق، وأمّا منارته فحديثة البناء جدّدها صديقنا النقيب الشيخ محمد بن أحمد الصلاحي سنة 1338 هـ/ 1919 م، وهو سيّد القرية ووجه الناحية بلا منازع. وأنا لم أتعرّف به في قريته، إنّما تعرفت به في صنعاء جاءها على إثري، ولما مرضت كان يوافيني إلى منزلي بلا انقطاع، وهو من أكبر زعماء الزيديّة في البلاد.

وقد سلكنا إلى سائلة نخلان من الأزارق طريقاً مخالفاً حذوه، وهو ضيق وعر به اعوجاج كثير وجانباه مسيّجان بالأشجار الشائكة وهي لا تقلّ في إيذائها عن «ناموس» الحميرة ولكنّ إيذاءها إذا اندمل يزول ولا يحصل فيه التهاب، فقد آذتني في رجلي اليسرى وأسالت دمي. سلكنا هذه الشعبة لأننا ضللنا الطريق وأردت أن أتقدّم الركب والعساكر ولم يكن معي غير الخادمَيْن الملازمَيْن لي، وهما يجهلان المسالك، وطريق السائلة ركيك يحصل به وحل كثير عند نزول الأمطار، وبعد انحسارها تنزح المياه. وفي منتهى السائلة توجد فوق ربوة عالية بلدة مطرح السياني، فنزلناها حول الساعة الحادية عشرة واخترنا لإقامتنا بها بيت التاجر الحاج محسن السياني. وكان في حسباني أن أمكث في البلدة إلى أن أستريح وأتغدّى ثم أستأنف السير حتى أجتاز نقيل السياني والمحرس ولا أنام إلا بمدينة جبلة وتكون مرحلة الغد إلى آب قصيرة. ولكن ركوب تسع ساعات متوالية وقطع عقبات صخرية ضيقة واجتياز مضايق صعبة ملتوية يكبو فيها الجواد ونزول المطر عقب وصولنا كانت كلّها أسباباً تبعث على تأجيل العزم إلى الغد وتفضيل الراحة على التعب.

[محادثة صريحة مع نسوة يمنيات]:

لم أكد أستقرّ في البيت حتى وافاني إليه الزائرون على اختلاف منازلهم وجاءني المداحون وطلاّب العطايا والصِّلات، بحيث لم أتمكّن من الغداء إلاّ

وقت صلاة العشاء. وفي تلك الساعة آذنت العساكر أن لا يسمحوا لأحد بمقابلتي وعلمت فيما بعد أنّهم كانوا يعتقدون أنّني من رجال الدولة التركيّة، وقد جاؤوا يتلمّسون الأخبار والتعليمات لأنهم ينتظرون منهم النجدة لتخليصهم من حكم الإمام! . . .

منعت الناس من الخارج ولم أدرِ أن هناك جموعاً أخرى كانت تنتظر في الداخل. ففي الساعة التاسعة أقبل الحاج محسن ومعه نسوة كثيرات وقال: إن بناتك يردن زيارتك فهل تسمح لهنّ، فأذنت لهنّ فدخل عليّ نحو اثنتَيْ عشرة امرأة فلبثن في حضرتي إلى منتصف اللّيل ولا أظن أنني التقيت برجال أسمى عقلاً من بعض الفتيات اللائي كنّ بينهنّ، خصوصاً بنت الحاج محسن صاحب البيت، فقد كانت تتكلّم بصراحة عن كلّ شيء وتنتقد أموراً كثيرة انتقاداً صحيحاً دعامتاه الفطرة والذوق. سألتني أوّلاً عن رأيي هل يعود الأتراك إلى اليمن، فأخبرتها أن الأتراك لا يعودون وإنما الواجب على أهل اليمن أن يكونوا هم أتراك بلادهم. فقالت: وكيف؟ ونحن جهّال لا نعرف شيئاً، لا نعرف كيف نعيش فضلاً عن كيف نشتغل ونكتسب، ولا أتكلّم عن مسألة تسيير الحكومة ووضع نظام للبلاد. إنّ أهل اليمن لا يهمّهم شيء غير الكسل وقتل الوقت في أكل القات، حتى إن الفقير الذي لا يجد مالاً لشرائه يبيع كساءه وطعامه ويشتري بثمنهما قاتاً. وهل تفتكر أن أمة هذه حالها يوكل إليها أمرها وتؤتمن على سلامة بلادها؟ نحن نودّ الأتراك لأن وجودهم في البلاد ضمان لبقائنا فيها، وأما حكم الزيديّة فنحن لن نرضى به أبداً ولا يمكن أن يدوم. فهم بدويّون لا يدرون قيمة للحريّة ولا يذوقون طعماً للعدل، دأبهم أن يوقروا كواهلنا بالجبايات وينعموا بها. وماذا فعلوا في البلاد وقد مضى على حكمهم سنوات طويلة وهي كافية لإصلاحها وقلب نظمها رأساً على عقب؟ أنشأ لنا الأتراك مدارس للعلوم والصّناعات، فقفلوها. وأنشأوا لنا المحاكم والإدارات المنظّمة فنسخوها ومسخوها. وهذه أراضينا الواسعة الغنيّة التي كانت تُزْرَع في عهد الدولة التركيّة صارت أرضاً مواتاً بسبب الظلم ومبالغة المحقّقين في تقدير

الأعشار[1]، فإنهم يقدّرونها بأضعاف ما يحصل منها، ولا تسمح لشكوى الشاكين منّا بل تغتصب منهم رأس المال وما أنتجوه. لهذا وأمثاله تكاسل الناس عن العمل وأخلدوا للبطالة والإهمال، وأصبح الفقر والفاقة سائدَيْن يهدّداننا بأسوإ منقلب. لذلك فإنّنا لا نرى وسيلة لتفريج كربتنا إلاّ بعودة الأتراك لحكم البلاد.

فقلت لها: «هذه أمنية ثانية، لكنّها لا تكفي لحمل الأتراك على الرجوع إليكم، إذا لم تكن لهم في أنفسهم هذه الأمنية، وأنا لا أظنّها موجودة لأنّهم لم يخرجوا من اليمن إلا بعد أن يئسوا منكم، فقد قتلتم من رجالهم في نحو اثنتَيْ عشرة سنة نحو مائتَيْ ألف عسكري من خيرة جيوشهم وأبطالهم حتّى أنّهم كانوا يسمّون اليمن «مقبرة العساكر التركيّة» وهل هذه الحالة تشجّع على الرجوع إليكم؟».

فقالت: «لا تتّهمنا باطلاً، فإنّنا لم نقاتل الأتراك، بل كنّا نموت إلى جانبهم فداءً لهم، وإنّما قاتلهم الزيديّة، وهم أعداؤنا وأعداؤهم ونحن لا نبتغي شيئاً غير إسقاط حكمهم والتخلّص منهم، وكلّ الذين جاؤوا يسلّمون عليك إنما جاؤوا ليسألوك رأيك في هذه المسألة، لكنّهم تهيّبوك».

فقلت لها: «قولي لهم: إنّ الأتراك لا يعودون إلى اليمن، وما على اليمنيّين إن كانوا يريدون التخلّص من الظلم إلاّ أن يخلّصوا أنفسهم بأيديهم وإلاّ فهم جديرون ببكائكنّ وترحمّكنّ عليهم».

ثم سكتت هذه المرأة الجريئة وتكلّمت إثرها أخرى كنت أظنّها فتاة ولكن علمت من رفيقاتها أنّها زوجة أحد كبار تجّار السياني. سألتني عن حياة المرأة

(1) كانت الضرائب في اليمن في عهد الأئمة تُجْبَى حسب أساليب عتيقة تجعل تقديرها يجري تحت رحمة المقدّرين واستبداد الجنود المكلّفين بتحصيلها. فهم ينزلون في بيوت القرويّين ويرغمونهم على إطعامهم ولا يبرحون القرى إلاّ بعد تحصيل ما يفرضونه على أهلها من الضرائب المجحفة.

التونسيّة ولباسها ومعيشتها وعلاقتها مع زوجها وتأثيرها في البيت، وعن تعدّد الزوجات.

وقالت: «أمّا حالتنا نحن فيكفيك أن تتعرّف إليها من بيت الحاج إسماعيل، فإنه تزوّج اثنتين وأشارت إليهما بيدها، وكانتا جالستين. أمّا أمّ التي كانت تحادثك عن اليمن فهي للطبيخ وعجن الخبز وكلّ ما له مساس بالبيت. وأما الثانية فللدّلال والراحة والفراش». فضحكت النساء كلّهنّ. وقال الحاج محسن: «إذا شاخت إحداكنّ فأيّ فائدة تبقى لرجلها منها غير الخدمة؟».

فانتصرتُ للنساء وأخذتُ أسلق صاحب البيت بلسان حادّ حتى أضجرته. فقالت ابنته: «لِمَ تتخاصمان وأمّي راضية؟». «فقطعت جهيزة قول كلّ خطيب». وانتهى الحديث وقام صاحب البيت وقامت معه النساء وكنّ يتكاثرن أثناء المباحثة حتى امتلأت الغرفة والدّهليز الذي أمامها.

نِمْتُ تلك الليلة حول منتصف اللّيل وقمنا في الغد مبكّرين على الساعة الرابعة. فركبت وخرجنا إلى نقيل السياني (النقيل في اصطلاح اليمن أكبر من العقبة)، وهو طريق وعر، ضيّق في جبل صخري مرتفع قائم كأنّه جدار. وقد جزناه في ساعة ونصف، ثم دخلنا إلى وادي المحرس، وماؤه عذب بارد شهيّ واسمه وادي شابان. وبعد أن سرنا نصف ساعة بين الغيطان والمزارع والقرى العامرة والقصور المرتفعة وصلنا إلى نقيل المحرس وفي مدخله وادٍ ثانٍ تتكوّن مياهه من الينابيع الكثيرة المحيطة به اسمه الحوبان، ولم نتعب في اجتيازه لأنّه مرمّم ومُرَصّف بالأحجار، والصعود إليه والنزول منه سهل. ثم تابعنا السير إلى وادي شابان، وفيه بدأت آثار الرقيّ في اليمن تظهر لنا بصورة محسوسة. فقد رأيت زيادة عن مزارع الذرة والدخن مزارع القمح والشعير والفضّة[1]

(1) الفِصّة أو الفِصفِصَة نبات له ورق يشبه الأظفار في شكلها وفيها طول يسير وتعلو من الأرض بنحو الذراع، كثيرة الأغصان، تخرج من أصل واحد. وتستعمل لعلف الدوابّ والمواشي، حديقة الأزهار، ص 220.

والخردل[1]. ثم دخلنا إلى طريق المحمول وتركنا مدينة جبلة على يسارنا بمسافة ثلاثة أميال. وهي مدينة قديمة فيها مسجد جامع لصلاة الجمعة وعشرة مساجد للصلوات الخمس، ولها أنهار تجري بين شوارعها ولها وادي كثير الأشجار والبساتين تنصبّ فيه مياه الأنهار جنوب المدينة يزرعون عليه البنّ والورس[2]، وسكّان المدينة يبلغون نحو 3000 نسمة وأبنيتها كلّها على نحو ما سنذكره عن آب.

[التوجّه نحو مدينة آب]:

ثم انتقلنا من المحمول إلى طريق آب وهو منخفض يمرّ في أوّله وادي السيل النازل من أسفل مدينة جبلة، ثم إلى وادي الجباجب ومن حوله أراضٍ واسعة تمتدّ إلى مسافات بعيدة تشبه الخضمّ مزروعة ذُرة، ولقد قسنا قصبة واحدة فكان ارتفاعها أربعة أمتار. ثم انتقلنا إلى سائلة نعمان، وفي وسطها عين الفوارس المنصبّة من جبل نعمان، وهي تخترق شمال اليمن إلى أن تتّصل بالأرض الجُرُز التي ذكرها الله تعالى في القرآن[3] والتي هي الحواشب ولحج وأبين[4].

وفي أعلى النهر من ناحية القبلة وادٍ كبير يسمّى سهل المخزوج الأعلى يبلغ طوله ستة أميال في عرض ثلاثة كلّه مزروع ذرة، وعلى يمين الطريق المخزوج الأسفل، وهو يمتدّ إلى عزلة ميتم طوله ثمانية أميال في عرض

(1) الخَرْدل: من نوع البقل، منه ما يُزرع وما لا يزرع، وهو قريب الشبه بالفُجل، طبيعته حارّ يابس، نفس المرجع، ص 313.

(2) الوَرْس: هو غُبار شبيه بالزعفران المسحوق ونباته كنبات القطن، وقيل: الورس هو الكُرْكُم، نفس المرجع، ص 101.

(3) يشير المؤلّف إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ سورة السجدة، الآية 27.

(4) أَبْيَن: مخلاف مشهور بجنوب اليمن على ساحل المحيط الهندي، وقديماً كانت أبين قرية تقع على الساحل بين عدن غرباً ولحج شرقاً.

خمسة، وهو أخصب بقعة في اليمن السفلى كلها مغطّاة بزراعة الذرة. ومن هناك مررنا بوادي الذهب وفي وسطه يمرّ نهر البجور النازل من جبل بعدان إلى سائلة نعمان، بينه وبين آب مسير ثلاثة أميال.

[مدينـــة آب]:

آب مدينة فارسيّة أزليّة[1] بناها دارا الأكبر[2] لمّا فتح اليمن. وصوابها آب لا إب بهمزة مكسورة، ومعناه المياه، وهي مبنيّة بالحجارة وأكثر دورها متشابهة وبناؤها مؤلّف من عدّة طبقات أكثرها أربع وأقلّها طبقتان، وطرقاتها معوجّة ضيّقة أشبه ما يكون بطرقات المدن الرومانيّة[3]، وعليها سور ضخم له أربعة أبواب: وهي الباب الكبير وباب النصر وباب سنبل وباب الراجزة. وفيها أبنية عموميّة كثيرة أغلبها غير معتنى به وبعضها مهمل، وفيها من المساجد فقط 32 مسجداً منها المسجد الجامع بناه أحد المحسنين من الهنود ولم يتمكّن من إتمام بنائه، فأتمّه الإمام المنصور الزيدي في القرن السادس من الهجرة، وهو يسع 5000 نسمة. وأمّا معاهد التعليم فلم يبق منها سوى سبعة كتاتيب للصبيان فيها 700 تلميذ ومدرسة علميّة واحدة لتعليم النحو والفقه وما إليها من الفنون، والتعليم فيها كل يوم من صلاة الصبح إلى الضحى على الطريقة القديمة. وبها من السكّان نحو 6000 نسمة كلهم مسلمون عدا 25 نسمة من اليهود.

دخلت آب يوم الأربعاء 20 أوت على الساعة التاسعة صباحاً من الباب الغربي وهو المسمى بالباب الكبير فمررت على سوق الحبوب وسوق الصائغين، ثم انتهينا إلى دار الحكومة حيث تقرّر نزولي. وبعد برهة يسيرة أقبل مولانا الأستاذ العلّامة الشيخ يحيى بن محمد الارياني (نسبة إلى أريان بلدة

(1) مدينة أزليّة أي يرجع عهدها إلى العصور القديمة.
(2) دارا أو داريوس الأوّل ملك الفرس من 522 إلى 486 قبل المسيح.
(3) المعروف من آثار الرومان أنّ طرقاتهم كانت ممتدّة مستقيمة متقاطعة لا اعوجاج فيها.

معروفة من قضاء يريم)[1]، لمؤانستي وتهنئتي بسلامة القدوم. ثم أقبل على إثره عميد قومه وهامهم الشيخ إسماعيل بن محمد باسلامة عامل آب وفي معيّته أعيان المدينة وأكابر موظّفيها وهم: السيد إسماعيل العرباني، والقاضي أحمد عبد الله صميرة مأمور الماليّة، ويحيى صميرة مأمور الأوقاف، ويحيى بن علي الحدّاد كاتم أسرار العامل، والحاج محمد المنصوب وآخرون لم تعهم الحافظة، تقدّموا للسلام عليّ، وبعد التعارف والتأنس خفّ العامل والقاضي ومعهما الحاضرون وودّعوني لأستريح. وفي صبيحة اليوم التالي أقبل العامل لزيارتي بصفة رسميّة يحيط به الموظّفون والمشايخ وأعيان البلديّة، ثم قدّم لي هديّة لطيفة، وهي صحفة من زهور المدينة وبعض القوارير من ماء الورد المكرّر صنع آب. وبعد أن أخذ الحاضرون أماكنهم واستراحوا قليلاً، قمت فيهم خطيباً، فحثثتهم على الاتّحاد والتآخي وإقناع العامّة بوجوب التضامن وعقد الخناصر على إحياء الروح الإسلاميّة ورفع شأن المملكة وبثّ النعرة القوميّة بشرط أن لا تتنافر مع الدين، وحثثتهم على الاهتمام بالزراعة وإصلاح الأراضي وتعميرها بالآلات الحديثة حتى يكثر المحصول وتنمو المكاسب وتتنوّع طرق العمل في الأمّة. فأحدثت كلماتي وقعاً حسناً في النفوس بصورة حملت العامل على الإجابة والثناء على سعيي المحمود بما هو أهله بكلمات منتقاة مؤثّرة. ولما حان وقت الزوال استأذنني العامل في الانصراف، فخرج وخرج معه الزائرون ونزلوا إلى خارج المدينة بنحو 200 متر. ثم عاد راكباً بغلته تتقدّمه مفرزة من الجيش ومعهم طبلات صغيرة تشبه طبلة رمضان ينقرون عليها، ومفرزة ثانية تحيط بهم، وكلّهم يترنّمون بأناشيد الحرب الحماسيّة على وزن النقرات. وسمعت أنه يفعل ذلك عند الزوال من كلّ يوم، والعامّة لا يعرفون وقت الزوال إلاّ حين يمرّ بهم موكب العامل يخترق أهمّ شوارع المدينة ويعود إلى قصره.

(1) يريم: حصنٌ باليمن في جبل تيس، ياقوت والهمداني.

جبـــل بعـــدان:

يوجد فوق مدينة آب إلى جهة الشرق جبل نضر خصب اسمه جبل بعدان، والخضرة لا تفارقه طول السنة بسبب كثرة ما فيه من المياه العيون وما ينزل فيه من الأمطار. تزرع فيه أصناف الحبوب والبقول من قمح وشعير وذرة وعدس وفول وحمص ودُخن وجلجلان وخشخاش وبصل وثوم وبطاطس وهندباء[1] وطماطم وفلفل وباذنجان وكرّاث ونحو ذلك. ويغرس فيه من أشجار الفواكه الرّمان والتين والأترجّ[2] والتين الشوكي والبُنّ والوَرْس، ومن الزهور الورد والياسمين والقرنفل وغير ذلك مما هو معروف في المناطق الباردة والحارّة، بسبب اعتداله وكثرة مياهه. وقد يستمرّ نزول المطر فيه أيّام الخريف مدّة عشرة أيّام، ويستمرّ فصل الشتاء في هذه المنطقة ستّة أشهر. ويقدّر الطبيعيّون كميّة المياه التي تنزل في قضاء آب بأضعاف ما ينزل في غيرها من بقيّة الأقضية اليمنيّة[3].

أما المياه الكثيرة التي تنزل من جبل بعدان فإنها تتجمّع في نقطتَيْن متوازيَتَيْن، واحدة في الشمال والأخرى في الجنوب. فالتي في الشمال تسكب في وادي ميثم الواقع حول آب ومنه تنصبّ في وادي المسيمير، ومن هناك تتحوّل إلى لحج. والتي في الجنوب تنصبّ في سائلة الزبيدي ومنها إلى وادي المشيرق وهو يجري إلى جهة القبلة ثم يلتقي بجبل حريب فيسيل غرباً ويسقي أراضي زبيد[4] ومنها يتحوّل إلى جبال تهامة.

---

(1) الهِنْدَباء: من أنواع البقول، منابتها السياجات والمواضع الرطبة الظليلة في الخريف والشتاء، حديقة الأزهار، ص 94.

(2) الأُتْرُجّ أو الأترنج من جنس اللّيمون لا يؤكل «ونباته كثير بأرض المغرب بقرب المياه»، نفس المرجع، ص 20.

(3) تنقسم البلاد اليمنيّة إداريّاً إلى ألوية وينقسم اللواء إلى أقضية.

(4) تقع مدينة زبيد على البحر الأحمر بين الحديدة شمالاً ومخا جنوباً.

عــدد الأَصْبُل بقضـاء آب:

يمتاز قضاء آب عن غيره من البقاع والأعمال اليمنيّة بوجود أبنية عمومية يلتجيء إليها المسافرون والقوافل عند نزول الأمطار، وهي منتشرة من السياني إلى المخادر، وكلها على نسق واحد بناؤها من الحجارة وشكلها مربّع، شيّدها أهل البرّ والمعروف لوقاية المسافرين من أخطار الأمطار. وقد أحصيتها من مبتداها إلى منتهاها فكانت عدّتها 20 صبلاً: الأوّل في عقبة السياني، والثاني أسفل نقيل المحرس، والثالث في أعالي وادي شبا، والرابع في رأس نقيل المحمول عند السقاية، والخامس أسفل نقيل المحمول، والسادس في صبر العرمة وسط وادي السيل، والسابع حول سائلة دار الشرف، والثامن جوار السائلة المنسكبة من جبل بعدان، والتاسع في شعب الذغار، والعاشر في مغل الحمل، والحادي عشر حول رمضان، والثاني عشر عند سقاية الذهوب، والثالث عشر قبالة نعيم عند الماء، والرابع عشر أسفل النقيل النازل من آب عند الأحواض السفلى، والخامس عشر العثرب وسط وادي السحول، والسادس عشر في شعب الحجل ويسمّى جبل الكربة، والسابع عشر دار مواقع وسط السحول، والثامن عشر في سوق السبت جانب السحول، والتاسع عشر قبالة ماء لاذة، والعشرون جانب ماء المخادر. وبين الصّبل والصّبل مسير ميلَيْن عدا ثلاثة أصْبُل الواقعة بين الذهوب وأسفل عقبة آب، فبين كلّ واحد منها ميل واحد. وتوجد أصْبُل أخرى بين جبلة وآب يلتجيء إليها المسافرون وغيرهم عددت منها أربعة.

[مغادرة آب في اتّجاه صنعاء]:

كنت مزمعاً عشيّة اليوم الثاني على زيارة شلّال الماء النازل من بعدان الذي تستقي منه مدينة آب وكذا بعض البساتين، ولكن نزول المطر واكفهرار الجوّ جعلني أقبع في السراي ولا أخرج منها، بل اهتممت بإعداد وسائل السفر

في صبيحة اليوم التالي. فقد أعددت بغلتَين لركوبي وجملاً لحمل أثقالي وأقلت الحاج حمودة طه البحراني من الخدمة وعيّنت بدله الشابّ محمد الدشن.

وفي صبيحة يوم الجمعة 22 أوت أقبل العامل الشيخ الحاج إسماعيل باسلامة في حاشيته وموظّفي إدارته لتوديعي. وقبل قيامي حرّر نصوص التلغرفات [البرقيّات] إلى جهات الاقتضاء بشأني. فقد أرسل تلغرافاً إلى حضرة الإمام يعلمه بوجهتي إلى صنعاء لملاقاته، وتلغرافاً آخر إلى الأمير السيد عبد الله [الوزير] متصرّف ذمار وأمير الجيوش يعلمه بقيامي من آب اليوم إلى صنعاء على طريق ذمار، حتى يأمر عمّال الجهات التي أمرّ بها بإعداد الوسائل اللازمة لإقامتي وراحتي. وأبرق إلى عامل المخادر يخبره بقيامي وأنّني سأصل إلى مركز العمل قبيل الظهر ليستعدّ لاستقبالي. وأبرق للأمير علي الوزير متصرّف تعزّ يخبره بأنّني متوجّه اليوم إلى العاصمة الإمامية. وبعد اطلاعي على نصوص البرقيّات أمر مدير البرق بإرسالها حالاً، وقام العامل وقام معنا حضرات الأعيان: الشيخ منصور الصنعاني، والحاج أحمد عمر صبّان، والقاضي عبد الله بن علي الغيسي، ومحمد الحاج القدسي، وأحمد البصير، وعبدالله المخادري، والقاضي يحيى بن علي الحدّاد كاتم أسرار العامل والقاضي صالح بن علي والشيخ غالب الروضي وكيل رئاسة البلديّة والقاضي أحمد صبري وكيل بيت المال ويحيى الحبشي حارس الخزينة والسيد حسين الشريف، والشيخ ابن ناي، والسيد حسن الظفيري، والحاج محمد عبّود، والحاج علي عبّود، وأحمد محمد باسلامة عمّ العامل عبده بن محمد باسلامة، ومعهم من العامّة خلق كثير لا يُحصَى. فسرنا تتقدّمنا فصيلة من الجند، وخرجنا من الباب الشرقي ولبثنا سائرين إلى أن وصلنا إلى عقبة الذهوب، وهي من أجمل ضواحي آب، وتوجد على جانبيها البساتين الأنيقة، فيها أغلب الفواكه والخضر. وهناك أردت أن أودّع المشيّعين فأبوا، فسرنا إلى العنقيّة، وهناك وقفت وأقسمت على العامل ومَنْ معه أن يعودوا، فودّعوني فرداً فرداً وداعاً شيّقاً ثمّ رجعوا إلى المدينة.

[استئنـاف الـرحلـة]:

تماديتُ في سيري إلى أن وصلت إلى مدينة المخادر. فركبت إحدى البغلتين، وخرج معي من العساكر للمحافظة عليّ: علي سيف ومحمد مصلح وحسين محمد ويحيى علي شاوش وعلي حزام وأحمد بن محمد الديواني. وتبعنا جمهور من اللفيف والشبّان إلى الأحواض العليا، ثم ودّعونا وسرنا في طريقنا حتّى بلغنا الأحواض السفلى. فالتقينا بقافلة من الإبل، فشرد منها البغل الثاني ومن لطف الله أنّني لم أكن على ظهره. وحينئذ أخبرني بعض العساكر أن البغل حَرُون شَرُود، وأنّه يعرفه معرفة جيّدة ولا يرضى لي أن أجعله مركباً لأيّ جهة من الجهات. فأجمعت الرأي على ردّه، فأعدته مع بطاقة إلى العامل قصصت عليه فيها نبأ البغل ورجوته حمل صاحبه على ردّ المال واستئجار غيره، ثم تمادينا على السير في الطريق. ولمّا انتهينا من العقبة سلكنا سهول ابن ناجي ومنه إلى سوق السبت، وكان منظر الجهات جميلاً بهيّاً يأخذ بمجامع الأبصار والقلوب. ففي وسط الأرض مزارع من الذرّة تغطّي الراحلة وعلى حافتي الطريق الأحراش وأكثرها من شجر الخنس والعمق والطلح الشائك وبينها أشجار الياسمين وزهر العشي وغيرهما من الزهور الطيّبة الزكيّة.

نزلنا سوق السبت للاستراحة به قليلاً وقد رأيت الدكاكين التي يجلس فيها الباعة يوم انتصاب السوق، وهي عبارة عن بيوت قصيرة مرصوفة من الحجارة بدون أن تلحم باللبن والطين، وما لبثنا غير قليل حتى طلع علينا الشابّ أحمد القحطبي خادم العامل الخصوصي راكباً بغلته الخصوصيّة، وهي من أحسن البغال وأصبرها على مكابدة الأسفار، وفي يده كتاب من سيّده يقول: إنه أرسل بغلته لتكون مطيّتي إلى ذمار، وهي تغني عن غيرها من البغلين اللين اكتريتهما بدون علمه ولا مشاورته، فرددت البغلة الأولى مع خادم لي وركبت بغلة العامل قاصداً المخادر. فمررنا برأس نجد البرق الخالي من المياه ويملؤون سقايته بالقِرَب محمولة على الأكتاف من وادي قرية الجبّانة، وهو يبعد عن الطريق

بمسافة 500 متر، ثم سلكنا إلى لاذة، فألفينا بها ساقية نازلة من جبل بني شمسان يرتوي منها المسافرون ودوابهم، ثم جزنا سدّ بني مليل، فوجدنا فسقية آسنة المياه عليها طبقة كثيفة من الطُّحْلُب[1] تجتمع مياهها من الأمطار يرتاد منها أهل الجهة، فمنعت العساكر والخدم من الشراب منها، ثم مررنا بسائلة البخاري النازلة من الجبل المعروف بهذا الاسم. ومنها صعدنا إلى عقبة المخادر. ثم صعدنا إلى برقع وفيه سقاية نازحة من الماء، ثم تمادينا على السير إلى رأس عقبة المخادر، فألفينا هناك بئراً يدعونها بئر البلخي يسنون عليها بالبقر ومنه يشرب أهل المخادر وترتوي دوابهم وأنعامهم، والقلعة العسكريّة مبنيّة فوق البئر وفيها حرس من عساكر الإمام، ومن هناك دخلنا إلى المدينة. وهي مبنيّة فوق البئر وفيها حرس من عساكر الإمام وبناؤها مؤلّف من طبقات لكنّها أقلّ جمالاً من آب وفيها ناموس كثير وحرّ شديد.

وصلنا إلى المدينة قبل الزوال ووجدنا العامل أحمد بن صالح الصبري قد اختار لإقامتنا بيت الزباري وبئس ما اختار. فقد قضينا به ليلة من أشأم ليالي الدهر وما صدّقنا حتى تنفّس الصباح فقمنا إلى الرحال فشددناها وركبنا الطريق.

خرجنا من المخادر صبيحة يوم السبت 23 أوت وسرنا في الطريق المارّة بأعالي بيوت الوادي وكنت أسير وزهر الياسمين يبسم لي من أنفاسه الشذيّة طول الطريق إلى أن نزلنا إلى وادي المحفل وهو من أخصب وأنضر أودية اليمن. ففيه تبصر مزارع البنّ والأترج والخوخ والرّمان والسفرجل والموز والقات، وفي وسطه واد كثير المياه يسقي في طريقه كافة المزارع والبساتين ولم ينقطع عنّا إلا حينما أخذنا في الصعود إلى نقيل عنق الغزال. وهو طريق حلزوني في جبل قائم فوق سطح الأرض والذي يلقي عليه نظرة قبل صعوده لا يصدّق أبداً بإمكان الوصول إلى قمّته. والقوافل يشتدّ وجلها وخوفها إلّا عند قطع هذا النقيل، وكذا

(1) الطحلب النهري هو نبات يتكوّن على الماء الراكد يحدث من الحركة اللطيفة التي تحرّكها الرياح، مع الرطوبة واللزوجة الممتعة، حديقة الأزهار، ص 128.

نقيل سمارة القريب منه.

ولمّا قطعنا النّقيل وصعدنا إلى الجبل وأشرفنا على ضفاف وادي الشعوب وشاهدنا مزارع القات والذرة والموز، أدركنا وقتئذ مبلغ كدّ اليمنيّين وعنايتهم بالزراعة، وأنّهم شعب قويّ نشيط لا يحتاج إلا إلى قليل من عناية الحكومة حتى ينهض ببلاده بنفسه وينافس بكدّه أقدم وأرقى الأمم الزراعيّة، ثم تمادينا في سيرنا إلى أن بلغنا قرية المنزل.

[في قرية المنزل]:

ولمّا وصلنا إلى قرية المنزل، نزلنا بساحة الجامع وإلى جانبه سقاية وخزّان للمياه، والماء ينزل من ينابيع تخرج من جبل عقد. ولم أجلس سوى ربع ساعة حتى دبّ إلى جسمي الانحلال والوهن وانحطّت قواي انحطاطاً شديداً وامتقع لوني حتى أشفق عليّ القريب والبعيد وصاروا يتساءلون عمّا بي، فأنكروا ما يبدو لهم من حالتي خوف المكوث هناك وإمساكي إلى أن أستريح. وبعد أن أرحنا الدوابّ بادرت إلى الرحيل. ولما رآني أهل القرية ناشطاً بدا عليهم سرور عظيم واجتمعوا حولي رجالاً ونساءً يدعون لي بالفوز والسلامة في الذهاب والإياب والرجوع إلى الأوطان وهم لا يعلمون أن نشاطي من قبيل التجلّد.

غادرنا قرية المنزل في الساعة التاسعة صباحاً وسرنا صاعدين في نقيل سمارة وهو أكبر من عنق الغزال وأصعب من كلّ نقيل قطعناه، وطريقه مختلّ وقد قيل لنا إنه لم يُرمَّم من عهد الأتراك. وتوجد في أعلى النقيل قرية تسمّى المقام وعلى رأسها حصن اسمه معقل سمارة بناه الأتراك من عهد غير قريب وهو متحكّم في كافّة الجهات التي حوله.

عند رأس النقيل تنتهي حدود البلاد الشافعيّة وتبتدىء بلاد الزيديّة، ومنه يصعد المسافر إلى بلاد المطلع ويرى رأي العين خصب وعظمة المملكة

اليمنيّة، حيث يشاهد الأراضي الزراعيّة الشاسعة وجهاد اليمنيّين في إصلاحها وتعميرها.

[من البلاد الشافعيّة إلى بلاد الزيديّة]:

وأوّل ما وقع بصري على أرض سهلة في اليمن لا تختلف عمّا كنت أشاهده في الممالك الأوربيّة: قاع سمارة، فإنه أشبه ما يكون بمزرعة واحدة لا أثر فيها للإهمال والأرض الموات، مع كبر مساحتها واتّساعها، وهي مزروعة برّاً وشعيراً وفولاً وذرة وجلجلاناً وحمصاً وعدساً ووَزساً وجلبّاناً وغير ذلك من الحبوب المفيدة التي تجلب الثروة والرخاء للبلاد.

ولمّا خرجنا من النقيل سلكت طريق العوارض الواقع على رأس جبل بني الحارث ولم ننفكّ عن السير إلى الساعة الثانية عشرة حتى انتهينا من الجبيل، وكانت الحمّى في تلك الساعة العصيبة تنفش في جسمي. فنزلت إلى الأرض وأنا دَنِف منهوك القوى، واضطجعت قرب حوض من مياه المطر على بساط من الحشيش نحو ساعة. ولما خفّت النوبة توضّأت وصلّيت الظهر ثم استأنفت السفر ونزلنا إلى قرية الضربة، ومنها أبصرت قاع الحقل ومساحته أضعاف مساحة سمارة وهو يموج بمزروعاته الزبرجديّة، وفي وسطه آلاف من قطعان البهم ترعى أراضي البور.

وتوجد حول أطراف القاع الممتدّ مع الفضاء قرى ومداشر كثيرة قائمة على الربى والأكمات منها: لاحم والخربة وعرب والحقل والحيلة. وفي منتهى القاع من ناحية الجنوب توجد بركة صناعيّة صغيرة تتكوّن مياهها من السهول معدودة للورود، ومنها يشاهد المسافر أطلال المريمة، وهي مدينة أزليّة من مدائن حِمْيَر ولها آثار باقية فوق رؤوس الجبال وحصن مطلّ على الجهات، وبها عين جارية من الماء يستقي منها أغنياء مدينة يريم. ولم تَدُنُ الساعة السادسة حتى نزلنا المدينة، وكان نزولنا طبعاً في دار الحكومة. فخفّ للقائنا الوجوه والأشراف والموظّفون والعلماء، ومكثوا يؤانسونني إلى ما بعد الغروب. ثم

رجوتهم أن ينصرفوا ويتركوني أستريح عند رجوع النوبة التي ظهرت أعراضها عند الظهر، فخرجوا يدعون لي بالشفاء والراحة.

نمت تلك الليلة نوماً متقطّعاً ولم أصدّق بالنّجاة حتى لمع نور الصباح وعاودني بعض ما كان لديّ من النشاط، فخرجت من مخدعي وأيقظت الخادم والعساكر حتى تستعدّ للرحيل.

التعريف بيريم:

هي مدينة بدويّة قد كانت زاهية على عهد الأتراك، ثم انحطّت. ويبلغ عدد سكّانها نحو 3000 نسمة وأغلب أبنيتها من الطوب، وهي أشبه ما يكون بقرى مصر الكبيرة، وعليها سور وهي مركز عمل. ويوجد بها 53 ولداً من رهائن البلاد الشافعيّة التي يخاف الإمام ثيارها عليه، وكلّها من ذوي اليسار وأبناء المشايخ والمقدّمين. وقد اجتمعت بكثيرين منهم وذكروا لي أنّ حالتهم أشبه ما يكون بحالة المساجين، وأن البعض منهم فريد في عائلته وليس لأبويه غيره، ومنهم من لم يبصر أمّه، وأقاربه منذ خمس سنين ومنهم من أوتي به وهو دون سِنّ العاشرة والآن بلغ مبلغ الرجال وهم لم يزالوا قيد الأسر، ولا يوجد من بينهم من أدرك سنّ العشرين بل كلّهم أحداث. وأهمّ ما يجب أن لا أغفله بل أذكره مع التنويه أنّ الإمام لم يتركهم عرضة للجهل وفوضى الأخلاق، بل عيّن لهم المعلّمين والمربّين وأكثرهم يحفظ القرآن وجانباً من متون العلوم ولهم نصيب من التحصيل مناسب لأعمارهم.

[مواصلة السفر]:

في الساعة السابعة من صبيحة يوم الأحد تركنا يريم وسلكنا طريق نجد الأسلاف، ثم نزلنا إلى قاع عمران وهو أشبه بقاع الحقل في مزارعه ونضارته ولكن ليس له فضاؤه واتّساعه. وتوجد في أغلب جهات القاع ينابيع عذبة باردة. وفي ناحية الجنوب توجد قرية عمران، وفي أسفلها بئر فوّارة يخرجون

ماءها بالدّلاء. ولم نزل مجدّين في السير حتى خرجنا إلى البياضة ثم إلى المنزل الذي تنزله القوافل المعروف بذيجزب. وهو وسط المرحلة بين ذِمار[1] ويريم. فنزلنا واسترحنا حصّة زمانيّة وبعد صلاة الظهر شددنا الركائب وعدنا إلى السير بمرورنا بالعوارض، وهي جادة ملتوية كثيرة الحجارة متعبة للمسافرين أشبه ما يكون بطريق شعب بني على تلك التي تقدّم وصفها في المرحلة الأولى من ماوية، وقد قطعناها في ساعتين. ثم دخلنا إلى القاع الأحمر، ولم نزل سائرين فيه إلى أن أشرفنا على بلدة قرن ذمار، وهي على جبل عالٍ ومن حولها المزارع على أكتاف الجبل. وبعد أن خرجنا من سيالة القرن دخلنا إلى قاع المنزلي وهو أشبه ما يكون بطريق شعب بني علي التي تقدّم وصفها في المرحلة الأولى من ماوية، وقد قطعناها في ساعتين. ثم دخلنا إلى القاع الأحمر، ولم نزل سائرين فيه إلى أن أشرفنا على بلدة قرن ذمار، وهي على جبل عالٍ ومن حولها المزارع على أكتاف الجبل. وبعد أن خرجنا من سيالة القرن دخلنا إلى قاع المنزلي وهو أشبه ما يكون بقاع الحقل في اتساعه وجودة أراضيه وزراعته. وعلى بعد من ذِمار يوجد مسجد صغير اسمه مسجد المنزلي أنخنا به ساعة من الزمن، وعليه بئران ماؤهما عذب، ومنهما شرب أهل المدينة وخصوصاً أهل اليسار منهم. وبعد أداء فريضة العصر أسرعنا إلى المدينة.

[في مدينة ذِمار]:

لمّا بلغنا المدينة تلقّانا في مدخلها أعوان السيد عبد الله [الوزير] أمير الجيوش، وأنزلونا في سراي الحكومة وأنزلوا حاشيتي في منزل آخر عام معدود للمسافرين يسمّونه السمسرة، ولكن على نفقة الحكومة. ولم أكد أستريح في قصر الولاية حتى أوتي لي بطعام الغداء حول الساعة السادسة وهو مؤلّف من لحم ومرق (يسمّونه المفوّر)، وخبز رقيق. فحاولت أن أتناول منه ولو نزراً يسيراً فلم أستطع، خصوصاً وأنا مُتعَب الجسم وآثار الحمّى كامنة في مفاصلي.

(1) ذمار: قرية على مرحلتين من صنعاء أو 16 فرسخاً. انظر أيضاً، الهمداني، ص 224.

فطن رجال الأمير أنني لم أستطب أكلهم، فأسرعوا إلى الأمير وأعلموه بذلك. فأمر طبّاخه أن يحضر لي طعاماً في تلك الليلة شهيّاً وأن يلازم خدمتي في الصباح والمساء وأن لا يطبخ لي أكلاً إلاّ بعد استئذاني والوقوف على رأيي فيه. ولم تحن الساعة التاسعة حتى هيّأ لي طعاماً فاخراً مؤلّفاً من عدّة أصناف؛ دجاج محمّر ونوع من المرمز وشعرية وكريمة، فتعشّيت ولم أكن أشتهي الطعام ولم أشأ أن أقابل أحداً في هذه الليلة غير رُسُل الأمير.

ولما انبلج نهار اليوم التالي لم أشعر إلاّ برجل واقف أمام شبّاك غرفتي على قارعة الطريق ينشد أقوالاً وصوته أقرب إلى النّعيق أو النّهيق منه إلى الإنشاد. ولكنّني فهمت من فحوى جمله أنه ينوّه بي ويمدحني على نحو ما يفعله الطبّالون عندنا في أفراح البادية ويسمّونه هنا «الدَّوْشَن»[1] وهو بمثابة المطرب عند المصريّين، صناعته تلقّي ذوي الأخطار ومدحهم بما يخترعه من الأناشيد البلديّة مقابل نفحهم إيّاه بالعطايا الجزيلة. ويظهر أنّ له شأناً عند القوم، فإنّه لمّا شرع يلقي هذيانه تقدّم إليّ الشابّ القحطبي خادم عامل آب وقال لي: «أستأذنك أيّها السيّد في فتح الشبّاك لأنّه لا يحسن بمثلك أن يعرض عن سماع أقوال الدوشن». فأمرته بفتحه، فشاهدت حوله خلقاً كثيراً، خصوصاً من الفضوليّين الذين أكره رؤيتهم، لأنّهم كانوا يضايقونني في كلّ مكان. ولمّا أردت إسكاته وصرف الناس عنّي أعطيت للقحطبي ريالاً وقلت: «احمله للدوشن واصرفه عنّي». فقال: «أنا لا أستطيع أن أحمل إليه هذا المبلغ الزهيد، وأنت الرجل العظيم، وأقلّ ما ينبغي لك أن تنفحه أربعة ريالات وهي ليست من العطايا التي تتكرّر». ففعلت مُرْغَماً لأنّ القحطبي ممارس لنظام البروتوكول [المراسم] أكثر من غيره. ولكن ما الحيلة؟ فقد ذهب الدوشن وجاء طلبة العلم والأشراف. وماذا أصنع وفي كلّ بلد أمامي دوشن وأشراف وطلبة؟.

ولمّا تناول الدوشن عطيّته انصرف إلى حال سبيله وبقي الفضوليّون ثابتين

(1) لا وجود لهذه الكلمة لا في اللّسان ولا عند دوزي.

في أماكنهم لا يتحرّكون بالرغم من مطاردة العساكر لهم ومنعهم من الاقتراب من أبواب السراي وساحتها ينتظرون نزولي. ولبثوا على تلك الحالة من الساعة السادسة إلى الساعة الثامنة. وكنت مضطرّاً في تلك الساعة إلى الخروج لزيارة سراي الأمير ومحادثته. فنزلت وخرج معي بعض الضبّاط والعساكر وكانوا يمنعون الناس من طريقي وهم يتكاثرون، وما كنت أدري أنّني صرت أحمق إلاّ في هذا اليوم، بحيث وددت لو أقتل الناس جميعاً حتى يخلو لي الطريق، ولا أدري السبب الذي حملني على ذلك: هل التعمّق في الديمقراطيّة أم كراهية ومقت الفضول المتفشّي في أخلاق الناس؟.

ولمّا وصلت إلى سراي الوزير تلقّاني باحترام لا مزيد عليه وسلّم عليّ معانقة سلاماً حارّاً، ومكثت معه في مكتبه وليس معنا إلاّ كاتم أسراره وشقيقه، نحو ساعتين تفاهمنا فيها في كلّ المسائل الإسلاميّة، وهو رجل ذكيّ الفؤاد قويّ العارضة له إلمام بكلّ شيء. ثم تكلّمنا عن سياسة العزلة والانكماش وغلق أبواب اليمن في وجه أوروبا. فقلت له: إنّها سياسة حسنة لو كنتم تقرنونها بقاعدة استثمار البلاد بواسطة أيدٍ ورؤوس أموال إسلاميّة صرف. وأما صرف الأجانب وترك البلاد بدون استثمار فإنه يمكّن الأعداء الذين يطمعون في ابتلاع اليمن من إقامة الحجّة على قصور الحكومة وجهلها بطرق التعمير والتمدين، فوقعت هذه الكلمات موقع الإعجاب والتأثير من نفس الوزير.

ثم تكلّمنا عن الإصلاح الزراعي وشرحت له ما وقفت عليه من حاجات ونقائص البلاد وأنّه لا بدّ لإنهاض الزراعة من جعل بنوك تقرض المزارعين وإنشاء النقابات لهم تمكّنهم من الاستقراض وشراء الآلات لآجال طويلة وأقساط قليلة، وتخفيض وطأة الضرائب على المشترين للآلات وإحداث بساتين للتجارب الفلاحيّة يتعلّم فيها المزارعون تطعيم الأشجار وتلقيمها وغراستها واستثمارها وإيجاد صناديق توفير يحمل العمّال في الأعمال الحرّة على الاشتراك فيها بمبالغ تؤدّى في أوقات دوريّة تتعيّن لذلك، ثم توفّر لأصحابها حتى تتألّف

بهذه الطريقة رؤوس أموال شعبيّة تساعد الصناعة والزراعة على الرقيّ والنموّ.

ولمّا دنت الساعة العاشرة استأذنته في الانصراف فأذن لي، وودّعني وداعاً جميلاً. فنزلت في سراي الوالي وزرت المدرسة الزيديّة التي يتعلّم فيها الطلبة العلوم. وهي مسجد كغيره من المساجد الإسلاميّة، فسمعت بعض الدروس في الفقه والنحو والأصول، ولاحظت أن المشايخ يقرّرون المسائل مثلما تُقرّر في جامع الزيتونة والأزهر والقرويّين ومدارس الهند، بدون فرق، وذلك ممّا يدلّ على أن طريقة التعليم وأسلوبه واحد وأنّها هي التي أفسدت عليهم تربيتهم وأبعدتهم من التحصيل واجتناء ثمرات العلم.

ولمّا خرجت ذهبت لزيارة الأسواق فألفيتها نسخة مصغّرة من أسواق بلد الخليل وحالتها تدلّ على انحطاط ثروة البلاد وأنها لا تعرض فيها غير الأشياء الضروريّة.

التعريف بمدينة ذِمار:

مدينة ذِمار هي من أقدم المدن اليمنيّة، وكانت في بعض الأوقات عاصمة للدولة الزيديّة الإماميّة وبها تُربهم ومقابرهم التي يكرّمونها ويعظّمونها.

والمدينة تنقسم إلى أربعة محلاّت وهي: الحوطة والمحلّ الأسفل والمحلّ الأعلى والجراديش. وفي الحوطة من الأبنية العموميّة: المسجد الكبير، وضريح الإمام يحيى بن حمزة الملقّب بعماد الدين المتوفى سنة 749 هـ [1348 م]، وضريح الإمام المطهّر المتوفّى سنة 877 هـ [1472 م]، ومشهد الإمام الحسين بن القاسم، وهو من أئمة العلم لا الولاية، وقد قُتل في ثورة ذمار الأهليّة سنة 1050 هـ [1640 م]، وستّة مساجد تقام فيها الصلوات الخمس. والمحلّ الأسفل وفيه ضريح السيد صلاح وضريح السيد الأخضر وثلاثة مساجد. والمحلّ الأعلى وفيه مسجدان وقصر أمير الجيش، والجراديش وفيه المدرسة العلميّة وثمانية مساجد وسراي الحكومة.

وتفصل هذه الأحياء عن بعضها ساحات عموميّة، وهي غير منظّمة ولا منسّقة وطرقاتها مهملة. وأشدّ ما ينكر فيها على أهلها جعل مآزيب لبيوت الراحة تنصبّ في الطريق في أوقات الاستراحة والوضوء في الأدوار العالية، فتراها وهي نازلة على الأرض كأنها شلّالات. لذلك أينما توجّهت في ذمار لا تشمّ إلا الروائح الكريهة، والسبب في ذلك خلوّ المنازل من المجاري العموميّة التي تحفظ فيها الأقذار، وعدم وجود إدارة بلديّة أو مجلس صحّي يسعى لمنع هذه المخازي والمضارّ المفسدة للصحّة العموميّة.

. **المسجد الجامع**: هو بناء أثري قديم العهد بُني على عهد سيّدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه، بناه دحية الكلبي الذي أرسله النبيّ ﷺ ضمن الدعاة السبعة لتعليم أهل اليمن دينهم وتفقيههم. وبناؤه ووضعه أشبه ما يكون بجامع الفسطاط الذي أسّسه عمروُ بن العاص رضي الله عنه، ثم زيد في أصله في رواقَيْه الشرقي والغربي، حتى صار قائماً على 150 أسطوانة وفوقها أقواس مفتولة عليها السقف. وفيه أربعة محارب: محرابان قديمان ومحرابان جديدان، أحدهما في الرواق الغربي والآخر في الرواق الشرقي، ومنبره من الخشب وصناعته بسيطة للغاية لا أثر فيها للفنّ وكذلك المسجد. أما صحنه فصغير جدّاً بالنسبة إلى ضخامة بيت الصلاة واتّساعه، وهو في حاجة أكيدة للإصلاح. وله منارة حسنة فيها أربع حجارات بيضاء، ثلاثة منها عليها كتابة حِمْيَريّة والرابعة مكتوبة بقلم غير معروف لديّ. وقد أسفت كلّ الأسف لعدم وجود مصوّرة فوتوغرافيّة معي في هذه الرحلة، كنت آخذ بها رسم تلك الحجارة لنعرضها على رجال العلم يفكّكون رموزها.

[وصـف المدينة]:

أما منازل المدينة فقد أُحصِيَتْ وعدّتها 2000 منزل وأغلبها مؤلّف من أدوار عديدة بعضها بُني بالحجارة وأكثرها بالطوب، وفيها قصور جميلة الهندام حسنة الوضع، غير أن سلاليمها رديئة ولكن غرفها حسنة وأكثرها مبيّض بالكلس

ولها شبابيك عديدة. وقد بلغ عدد السكّان في الإحصائيّات الأخيرة 14.000 نسمة بينهم نحو 500 من اليهود ولهم محلّة خاصّة بهم تُعرف بقرية اليهود موجودة شرقيّ المدينة.

والسجن العمومي موجود داخل سراي الحكومة وقد رأيت كافّة المساجين حتى أصحاب الجرائم المثقلة يخرجون في أوقات الصلوات المكتوبة من السجن وهم يحجلون في قيودهم، فيذهبون إلى الميضاة ويتوضّأون ويدخلون الجامع يصلّون الفريضة ثم يعودون إلى السجن، ويخرجون للرياضة والراحة في وقت الضحى، بحيث إن السجين يمكنه أن يختلط بالناس ويرى أهله وأقاربه ويرى العالم ولا جناح عليه في ذلك. وهو دليل على أنّه ليس من طبيعة الحكم الإسلامي الحرمان والتعذيب كما نرى ذلك بصورة واضحة في أحكام وشرائع الأوروبيّين..

[مغادرة ذمار في اتّجاه صنعاء]:

مكثت في ضيافة السيد عبد الله الوزير إلى يوم الجمعة، وتقرّر أن أسافر صبيحة يوم السبت. ولم تكد تشرق غزالة هذا اليوم حتى توافد على سراي الحكومة الناس زرافات ووحداناً، أشرافاً وعلماء وموظفين وتجّاراً. فجلست لهم من الساعة السادسة صباحاً إلى الساعة الحادية عشر، وكانت الركائب والعساكر واقفة على باب السراي والجموع الحاشدة تملأ الساحات لمشاهدتي وتوديعي. فنزلت من السراي وركبت البغلة وخرجت وخرج معي الخاصّة والعامّة وبينهم كثير من اللّفيف والفضوليّين. ولمّا وصلنا إلى القشلة، وكانت على مسافة كيلومترَيْن من المدينة وجدت خلقاً كثيراً، تقدّمت إليهم فشكرتهم جميعاً ورجوتهم أن يعودوا إلى المدينة، تركنا القشلة وسلكنا طريقنا إلى ناحية القبلة، وبعد سير ساعة صعدنا إلى جبل هران، وفيه مزارع كثيرة للعدس والذرة والبرّ والشعير والفاصولية، وفي منتهاه أشرفنا على قريتَيْن إحداهما شرقيّة تسمّى المواهبة والأخرى غربيّة مقابلة لها اسمها منقلة، وهما مبنيّتان من الحجارة

والطين وأهاليهما يستقون من صمارة (فسقيّة) تجتمع فيها مياه الأمطار لأنّه ليست فيها ينابيع ولا عيون ولا سائلة للمياه. ثم علونا جبل يافع وفي ذروته قرية مسمّاة بهذا الاسم، وهناك شعبة تتفرّع من هذا الطريق إلى ناحية الشمال فيها قرية عامرة اسمها قرية الدّرب. ثم نزلنا إلى وادي الضيق وهو كثير الحجارة مُتعِب للمسافرين ومنه يبتدىء قاع جهران وهو أخصب وأوسع قيعان اليمن، فجزنا أوّلاً قرى ومزارع رضابة، ويصفونها بخيرة القرى، وقد اشتهرت بهذا الوصف حتى صار علماً عليها بالغلبة، وفيها تبصر آلافاً من قطعان البهم ترعى الكلأ وإنّك لتخالها إذا أبصرتها من بعيد وهي تروح وتغدو في مسارحها كأنّها بحرٌ أمواجه متلاطمة، وهي تُزرَع مثل الأراضي التي سلفتها وإنما تزيد عنها بزراعة الفول. ثمّ علونا أرض غيم وفيها قرية صغيرة سُمّيَت بهذا الاسم. ومنها انتقلنا إلى أراضي طلحامة وإلى جانبها بركة عظيمة تجتمع فيها مياه الأمطار يستقي منها السكّان ويردها المسافرون. وعلى بعد ميلَيْن من البركة إلى ناحية الغرب توجد قرية المجرّة، وفي الناحية الشرقيّة توجد قرية شناضب، وهذه من أكبر وأعمر القرى، ثم تليها قرية العليس ومنها دخلنا إلى ضواحي بلدة معبر، وكانت الساعة الخامسة بعد الزوال بعد مسير ستّ ساعات متوالية بلا راحة. فألفيت خلقاً على سقايتها، وقد بلغني أنّهم خرجوا لاستقبالي قبل الظهر، ولكن لما تأخرت في ذمار مكثوا ينتظرونني إلى هذه الساعة. وقد ناب عن العامل ابناه أحمد ومحمّد بسبب مغيبه في صنعاء، ومعهما فرزة من الجند وأعيان البلدة. وبمجرّد وصولي تقدّموا للسّلام عليّ، وبعد أن صافحتهم تقدّمنا الجند واحتفى بي المستقبلون، ودخلت البلدة في موكب لا عهد لها بمثله. وكانت الحكومة قد أعدّت لإقامتي منزلاً جديداً ضخماً على ملك الوجيه يحيى بن أحمد المعبري. فنزلنا وفي الحين أقبل الدوشن وتلاه صبيان الكتاتيب مع المؤدّبين يقرؤون القرآن، فنفحتهم بعطيّة، ثم خفّ الناس على اختلاف طبقاتهم لزيارتي: قاضي الجهة الشيخ محمد بن حسين العرشي وحاكم البلدة حسين الهجدة والشاب أحمد بن الشيخ عبد الله عامل المقاطعة، ودامت هذه الزيارة إلى الساعة

الثامنة ليلاً. ولمّا انصرف الزوّار مُدّت لي الموائد عليها الصحاف السوداء وهي شبه الصيني من نوع الرخام نُحِتت نحتاً، وعليها أشهى مآكل اليمنيّين من لحوم وحلويات، فأكلنا حتى اكتفينا.

التعريف بمعبر:

معبر بلدة صغيرة حديثة العهد بالحضارة لا يزيد سكّانها عن 400 نسمة لكنّها مركز مهمّ للقوافل التي تسير من أعالي اليمن إلى أسافله وكانت أيّام حكم العثمانيّين مركز لمديرية (مشيخة) تابعة لقائم مقاميّة ذروة. ولما انتقلت الدولة للإمام جُعلت قاعدة للعمل وانتقلت إليها مصالح الحكومة. ويوجد على مسافة ثلاثين كيلومترات من البلدة من ناحية الغرب جبل ذروة تنبع فيه مياه معدنيّة حارّة عليها حمّام يسمّونه حمّام علي يقصده المرضى من كلّ مكان للاستشفاء بمياهه. وفي هذا العمل مشاهد كثيرة لأئمّة الزيديّة، ففي قمّة الجبل قبر المتوكّل على الله إسماعيل، وفي مدينة ذروة قبران للإمامين القاسم والحسين.

وفي صبيحة يوم الأحد أعددنا عدّتنا للرحيل وما وافت الساعة الثامنة حتى اجتمع في ساحة البيت الرجال والنساء والأطفال من سكّان معبر والقرى المجاورة لها وعلى رأسهم الشيخ القاضي وأحمد ومحمد ابنا العامل، وكان كلّ واحد منهم ممتطياً فرساً من عتاق الخيل النجديّة المؤصّلة. وتقدّمتنا فرقة من العساكر تنشد الأهازيج الحماسيّة...

قطعنا المسافة من معبر إلى آخر القاع القبلي في ساعتين، وهناك ودّعنا المشيّعون فعادوا إلى ناحيتهم وسرنا نحن في طريق نقيل سليح، وهو مضيق بين آكام كثيرة التعاريج والارتفاع والانخفاض يقطع تلك الجبال الجرداء. ولم نزل سائرين إلى أن وصلنا إلى المكان المعروف بسفار النقيل، فألفينا به قهوة [مقهى] ينزلها المسافرون في وقت الظهيرة، وبالقرب منها سائلة للماء ومن خلفها نبع تسيل منه سلاسل كاللّجين ماؤها بارد عذب. فنزلنا القهوة ومكثنا بها زهاء ساعتين، تغدّينا وأرحنا الدوابّ، ثم استأنفنا السير، فصعدنا النقيل ومرتقاه

صعب له طريقان: الطريق القديم الذي سوّته العساكر العثمانيّة وهو حلزوني الشكل قائم على سلّم من الحجارة، والطريق الجديد الذي أحدثه الإمام قبل ثلاث سنوات على يد المقاول أحمد خان، وهو أطول من الأوّل، لكنّه مريح، وتوجد في الناحية الجبليّة منه سقايات وينابيع للمياه العذبة، ولم نجتز هذا النقيل إلا بعد سير ساعتين، وهو غير صالح لسير الدوابّ، فما بالك بالعجلات وقد بُني من أجلها حتّى يقطعه الإمام على سيّارته في طريقه إلى ذمار، وهو يتشوّق إلى رؤيتها كثيراً.

خرجنا من نقيل سليح إلى قاع بيت الزيادي، وهو عبارة عن شريط ممتدّ من الأرض تكتنفه الجبال من جانبيه لا يزيد عرضه عن ميلَين إلى أن يتّصل بمدينة وعلان عاصمة بلاد الرؤوس. وفي هذه الجبال صيد كثير، يرى المسافر قطعانها تعدو أمامه من مكان إلى مكان بعضها معروف وأكثرها مجهول لدينا. فمن الصيد المعروف الوعل والظباء والأرانب، أما الصيد غير المعروف فقد شاهدت منه حيوان في حجم الخروف الكبير وجلده يشبه النمر، ويسمّيه أهل البلاد «الوبر» ويقولون لحمه أفكه وألذّ من لحوم الطير. ورأيت حيواناً آخر في حجم الكلب الكبير وشكله، منه الأبيض والأحمر والأسود، اسمه «الريم». ويقولون: إنّ هناك حيواناً آخر في حجم الفرس، وهو من الضواري الفاتكة، يفترس الإنسان، ويثب مثل النمر على الأشجار والجبال، وهم يحاذرونه كثيراً وهو من الأنواع التي توشك أن تنقرض بسبب كثرة ما يُقتَل منها في كلّ سنة.

وما زلنا نسير في هذا الشريط الطويل حتى وصلنا إلى بلدة وعلان في الساعة السابعة مساء. دخلناها على حين غفلة من أهلها ولم يشعر بنا الدوشن ولا طلبة العلوم، وأمرت العساكر أن يفتّشوا لنا عن محلّ نأوي إليه في تلك الليلة، وأبيت أن أدعهم يطرقون أبواب الحكومة، خصوصاً وأنّها لم تستعدّ لاقتبالنا كما كانوا يصنعون معنا في رأس كلّ مرحلة نبيت بها. فاختاروا سمسرة يحيى بن علي، فنزلنا بها الطابق الثاني، ومن محاسن الاتّفاق أن كان نازلاً بها

السيد أحمد بن محمّد الملقّب بسيف الإسلام المتوكّل محسن الإمام، قدم صبيحة هذا اليوم من صنعاء وهو مسافر إلى تعزّ لتقلّد ولاية عمل فيها. وهو أديب ظريف وشاعر مطبوع كان يتشوّق إلى لقائي ويتمنّاه، خصوصاً وقد سمع بترجمتي في حضرة الإمام، فآنسني بلطفه وأدبه في هذه الليلة، وقد أهدى إليّ سلّة من أجود أصناف العنب في صنعاء وقدّم لي عشاء فاخراً لم أتذوّق منه شيئاً لشدّة ما لحقني من التعب، فكان من نصيب الخدم والعساكر. ونمنا على الساعة الحادية عشرة، وقمنا من الغد مبكّرين في الساعة الخامسة صباحاً.

خرجنا من وعلان باكر يوم الاثنين موفّى أوت، وسلكنا الطريق والمزارع زاهية في كلّ جهة تموج بالذُّرة والبُرّ والعدس والحلبة والخردل، وأمام كلّ فدّان [يوجد] بيت لحراسة الغلال ينام فيها الحرّاس يوم يبدو صلاح الزرع. وقد أبصرت في مخفر منها عجوزاً شمطاء نائمة على وجهها ومقلتاها إلى المزرعة وأصبعها على زناد البندقيّة والتسمّم ظاهر عليها كأنها حيّة رقطاء، نعوذ بالله من شرّها! ثم مررنا بقرية الضبر الواقعة فوق جبل الضبر، ثم سلكنا جبيلاً طويلاً إلى أن وصلنا إلى البرك المسمّاة «حترت». وهي تمتلىء من مياه السيول والأمطار التي تنزل من الجبال، ثم طرقنا وادي الإلحام، ومنه تغيّرت الأرض وتبدّل الخصب مَحْلاً، منظر محزن يفتّت الأكباد. فإنّك ترى قصبة الذّرة لا يزيد ارتفاعها على وجه الأرض عن شبر واحد، وشجرة البُنّ عن بعض صانتيمات، وسنابلها صفراء ذابلة. ويقول أهل الجهة إنهم كلّما غشيتهم سحابة ظنّوا أنها ستمطر، فلا تلبث حتى تنقشع وتمطر أرضاً سواها، نسأل الله العطف بعباده.

وقد مررنا بالجبال والمضايق التي دارت فيها المعارك المشهورة بين الزيديّة والعثمانيين أثناء حرب الإمام مع الدولة التركيّة. وقد رسمت تمثالاً من الحزن العميق في فؤادي. ومنها انتقلنا إلى سواد حزين، وهو عبارة عن آكام متّصلة ببعضها [بعضاً]، وفي وسط الطريق صخور وجنادل كثيرة تحفى منها الحوافر والأظلاف. وبعد أن جزناهاأشرفنا على وادٍ خصيب فيه أشجار ومراعٍ

ومزارع كثيرة، يسمّونه دار قاع حزين، ويجري في وسطها وادٍ غزير المياه ينزل من جبال قرية حزين، وهي نصف الطريق بين وعلان وصنعاء. فنزلناها وأرحنا الدوابّ، وكان محلّ نزولنا سمسرة حسن محمد، فأكلنا وشربنا ثم عدنا إلى الرواحل فشددناها وسرنا صوب صنعاء.

فمررنا أوّلاً في طريق وسط بين القرية الجرداء ودار سالم. ثم انتقلنا إلى أرض سهلة تتخلّلها المزارع والسواقي والينابيع مدّة ثلاث ساعات، وكانت الشمس المحرقة تشوي ما يبدو من أطرافنا، ثم جزنا بيت معبد وهي من أجمل القرى في ضواحي صنعاء. وبعد مسير ساعة وصلنا إلى الصافية وهي من دخانيّة [؟] المدينة، ولمّا مررنا بمسجد البليدي، وكان مؤدّب صبيان الناحية واقفاً إزاء الباب، وما كادت عينه تقع علينا حتى أسرع إلى داخل المسجد وأمر تلاميذه الذين جاؤوا ليلقّنهم الكتاب العزيز وأحكامه وحكمه، أن يسرعوا خلفنا يسألوننا صدقة. فكانوا يَعْدُون وراءنا عدو الجراد، ويمدّون أيديهم ويقولون في سؤالهم: «المسامحة». فلم أفهم الغرض الذي يريدونه، فتقدّم إليّ الشاويش يحيى وقال: «إنّ الأطفال يسألونك أن تعطيهم شيئاً يرفعونه إلى معلّمهم حتّى يسامحهم من القراءة بقيّة اليوم. وأمّا إن عادوا صفر اليدين فإنّه يحبسهم في المكتب ولا يطلقهم إلاّ عند الغروب». فآلمني هذا البيان ألماً شديداً، وفي تلك اللّحظة أدركت سرّ فشوّ السؤال بين طلبة العلم في اليمن، وقلت هي عادة فشت فيهم من الصغر في الكتّاب، وعقدت في نفسي أن لا أعطيهم شيئاً. وأمرت العساكر بصرفهم عنّي، ولم يتمكّنوا من صرفهم إلاّ بعد مشقّة وعناء.

مدينة صنعاء[1]:

صنعاء مدينة أزليّة من بقايا حِمْيَر يراها القادم عليها من ناحية حزين على بعد 12 ميلاً وهي ممتدّة من الشرق إلى الغرب من جبل نعيم في الشرق إلى

(1) صنعاء: عاصمة اليمن في عهد الإمام يحيى، تقع على سفح جبل قصم، وهي أكبر المدن اليمنيّة وأغناها لكثرة مياهها.

الجبل الأسود. وأوّل ما يشاهد منها مناراتها الجميلة الصاعدة في الفضاء، ثم المباني العسكريّة مثل قشلة الطبجيّة وقشلة البيادة ثم قبابها وقصورها العالية المنتشرة على طول المدينة، وهي من أجمل مدن الشرق من حيث ضخامة البناء وتعدّد القصور. ولكن ماذا تفيد الأبنية؟ وليس في المدينة مصلحة تنظّم ولا إدارة بلديّة تتولّى ترميم الطرقات وتحسينها حسب الأصول العصريّة وغالبها اختلّ بسبب ما تجرفه منها السيول، وتخرّبت بسببها منازل كثيرة.

والمدينة تنقسم إلى قسمَيْن: القسم القديم وهو نصفها الشرقي قائم على أكمة ثم تنحدر قليلاً إلى أن تتّصل بالوادي الذي يخترقها وكان نازحاً في هذا الفصل من المياه. ثم يليه القسم الغربي وهو المدينة الحديثة التي بناها الأتراك على الأصول الحديثة، وأحدثوا بها الطرقات الواسعة وشُيِّدت على حافتيها الأبنية المزخرفة والمساكن الجميلة، واسمها بئر العزب، ويندر وجود بيت في هذا القسم خالٍ من بستان يرتاض فيه أهل المنزل.

أمّا تعداد سكّانها فإنّه يبلغ نحو 60.000 نسمة منهم بضعة آلاف من اليهود وأغلب تجارتها بأيديهم. لذلك ترى كلّ حركة فيها موقوفة يوم السبت بسبب تأثير اليهود في حركة الأسواق الماليّة، وليس فيها من تجّار المسلمين الذين يضارعون اليهود غير أفراد قلائل يُعَدُّون على أطراف الأصابع. ولليهود غناء فاحش وأكثرهم يقرض المسلمين الأموال القليلة بالفوائض الكثيرة ولا يدفعون من الضرائب غير الجزية، وهي قليلة جداً لا تكاد تذكر بالنسبة إلى ما يستفيدونه من الأرباح. فإنّ الغنيّ يدفع ثلاثة ريالات في السنة ومتوسّط الحال ريالَيْن والفقير الصانع ريالاً ونصف والشاب البالغ ريالاً واحداً ولا يدفعون الأعشار ولا الزكاة لأنّ مذهب الزيديّة لا يراهم مخاطبين بفروض الشريعة. وكان الواجب على الحكومة أن تجد وجهاً شرعيّاً تجبرهم به على مساواة المسلمين في دفع الزكاة والأعشار، لا سيما وأن المذهب الزيدي لا يمنع الإمام من الاجتهاد.

[الوصول إلى صنعاء]:

تقدّم أنّنا وصلنا إلى المدينة من ناحية بئر العزب، ولمّا دنونا من باب خزيمة تقدّمنا عسكري وسار إلى قصر الإمام مخبراً بوصولي إلى صنعاء. فعاد في الحين ومعه رجل من خاصّة الإمام اسمه محسن قلّالة، فتلقّاني بالترحاب وأبلغني تحيّة الإمام. فدخلنا من الباب المتقدّم وسرت إلى بئر العزب وأخبرني مندوب الإمام أن نزولي تقرّر أن يكون في بيت مطيّة، وهو من العمارات الفاخرة التي انتقلت إلى الحكومة بعد سفر الأتراك، وأنه أعِدّت لي فيه كافّة وسائل الراحة، وهو واقع في الساحة العموميّة أمام سراي ولاة الأتراك السابقين. فنزلنا البيت بعد الغروب، ووجدت فيه أسباب الراحة متوفّرة بكل معانيها. ونمت تلك الليلة نوماً مهزوزاً متقطّعاً لم أدرِ سَبَبه.

يوم الثلاثاء أوّل سبتمبر: كان أوّل زائر قدم عليّ صديقي القديم السيد أحمد الكبسي، تعارفنا في عهد الصّبا وتلاقينا وافترقنا مراراً في القاهرة والأستانة، وقد أسعفنا الحظّ أن نتلاقى مرّة أخرى في صنعاء. وكان مبعوث اليمن في مجلس النوّاب العثماني، وهو من أذكى ما أنجبت البلاد. تلاقينا بعد أن افترقنا في الأستانة في ديسمبر 1912، وكان شاحب الوجه، هزيل الجسم، فكاشفني بما كابده في المدّة الأخيرة من العلل والأسقام الناشئة عن البول السكّري وقال: إنّه كان ينتظر وصولي وهو على أحرّ من الجمر خوفاً عليّ من آفات الطريق، حيث علم ذلك من حضرة الإمام حينما دخلت إلى ماوية. ولبثنا نتحادث ويكاشف كل واحد منّا صاحبه بما لقيه في هذه الحقبة الطويلة من أعراض الحياة. وعند انصرافه وعد أنه سيلاقيني بعد الظهر اليوم في حضرة الإمام.

وفي الساعة الواحدة والدقيقة 30 أقبل محسن قلّالة يدعوني من قبل الإمام إلى زيارة القصر، وهو خلف سور قسم بئر العزب ويُعَدّ من مفاخر قصور صنعاء، وفي وسطه زهريّة غنّاء على الطراز الإنجليزي وحول القصر سور عليه

باب ضخم تحرسه العساكر ولا يَدَعُون أحداً يدخل إلاّ إذا كان من ذوي الشأن وأصحاب الحيثيّات. وأمّا طلاّب الحاجات فإنّهم يرفعون أمرهم على أوراق إلى الإمام وينتظرون الجواب خلف الباب. كان القصر في القديم مسكناً للإمام المتوكّل فهدمه الأتراك وأقاموا على أنقاضه مستشفى عسكريّاً طبق قواعد الفنّ وجعلوه أقساماً منفصلة عن بعضها [بعضاً] بالحدائق والزهريات. ولما انتقلت الدولة إلى الإمام هدم المستشفى وبنى من صخوره وحجارته السوداء وأدواته الحديديّة والخشبيّة المجلوبة من الخارج القصر الموجود وسمّاه «قصر السّعادة»، وسبحان من يغيّر ولا يتغيّر!.

مجلس الإمام:

للإمام مجلسان: مجلس للعامّة ومجلس للخاصّة.

1 ـ مجلس العامّة:

أمّا مجلس العامّة فهو واقع داخل سور القصر على يمين الداخل من الباب حيث يوضع للإمام كرسي عادي يجلس عليه كلّ يوم من الساعة السابعة إلى الساعة العاشرة، وتارة إلى وقت الظهر، يتناقش فيه مع الوافدين ويذاكرهم في كلّ ما له مساس بالأمن والدولة. وهذا المجلس هو الذي يسوس به الإمام مملكة اليمن ويسيّر به أحوال العامّة. وهو رجل حاذق بصير مطّلع على نفسيّة الشعب يمتلك قلوب سامعيه ويؤثّر فيها حسبما يريده، فحيناً تراه رجلاً خلوقاً ظريفاً محتشماً ذا دعابة وكمال، وتارة يصبح رجلاً بدويّاً خشن القول رفيع الصوت تسمعه من مكان بعيد، ليس عليه مسحة من دعة الحضارة ولا رقّتها كأنه ذلك الرجل الحديدي الذي لا يعرف غير القراع والجلاد ولا من وسائل التهذيب غير النطع والدم.

2 ـ مجلس الخاصّة:

يجد الزائر لقصر الإمام في الواجهة التي أمام الباب سلّماً خارجيّاً من الحجارة ينتهي به إلى قاعة طويلة، وبعد خطوات من باب القاعة تجد على

يسارك زاوية حادّة أقيمت فيها غرفتان متقابلتان إحداهما جُعِلَت مكتباً للأحداث من أبناء الإمام يتعلّمون فيها، والثانية هي التي يجلس فيها الإمام، وهي على شكل المنادر المعروفة في الشرق، وليست من منادر الطبقة العالية أو المتوسّطة، بل الطبقة العادية من الناس، مفروشة بالطنافس التركيّة وعلى أطرافها مضارب [حشايا] من القطن فوقها الوسائد. وإلى جانب الباب طاقة فيها دولاب من الخشب فوقه كاسة من الحديد [خزنة] وشنطة [حقيبة] من الصفيح. فالدولاب للأوراق والحجج والكاسة لحفظ المال والشنطة للمستندات القيّمة المتعلقة بالمسائل السياسيّة العالية. والإمام يجلس في وسط القاعة على طنفسة عجميّة [سجّادة فارسيّة] ثمينة، وإلى جانبه منضدة صغيرة فوقها الأوراق والأقلام والأختام، وإلى جانب المنضدة يجلس الوزير الأكبر القاضي عبد الله العمري، ويليه الكاتب الخاصّ للإمام القاضي محمد بن المطهر، ويليه الكاتب الثاني القاضي حسين بن المطهر. وعن يساره الإمام القاضي عبد الكريم وطائفة من المستشارين وهم من كبار علماء الزيديّة وأكثرهم تمرّنوا على القضاء والإدارة في عهد الأتراك في المناصب الكثيرة التي تقلّبوا فيها.

[الاجتماع بالإمام يحيى]:

لقد حضر هذا الاجتماع من غير الملازمين الرسميّين السيد حسين عبد القادر والي لواء صنعاء والحسن والحسين ابنا الإمام. دخلت عليه فتلقّاني من غير تكلّف، كما يتلقّى خاصّة ضيوفه وعامّتهم، فكان يبسم لي ويقول: «حيّى الله من جاء»، وهي كلمة التحيّة الرسميّة التي يحيّي بها اليمنيّون ضيوفهم، ثم أشار إليّ بالجلوس في مكان أُعِدّ لي أمامه، فجلست. وكان قبل دخولي منهمكاً في مطالعة الأوراق والعرائض وهي ركام، وكلّما قرأ واحدة منها وقّع عليه بخطّه، وهو ذو بديهة وقلم سيّال. فترك الأوراق وأقبل عليّ يحادثني، وفي تلك اللّحظة وافى المجلس السيّد أحمد الكبسي، فاكتمل بحضوره عقدنا النضيد، وقد لاح لي أن الإمام كان لا يودّ حضوره، فكان

يتحدث إليّ وأتحدّث إليه، ولكن كنّا نتكلّم في الشؤون العموميّة. فتكلّمنا عن سياسة أوروبا والنزاع الخفيّ القائم بين دولها واختلاف نظرها في تقدير المصالح والمشاكل التي ولّدتها الحرب، واختلاف وجهات نظرها في الحلول التي تعرضها من وقت لآخر. وبحثنا عن أسباب إخفاق المؤتمرات التي عقدها المتحزّبون [الحلفاء] للتجدّد والنموّ السياسي. وتكلّمنا عن علاقة أوروبا بالشرق، واستضعاف الأوروبيّين للشرقيّين وجهل الشرقيّين بأحوال الأوروبيّين وكيف خدع هؤلاء أمراء الشرق وحكّامه قديماً وحديثاً. وأوضحتُ له أنّ أكبر همّ الأوروبيّين هو استثمار واستغلال مجهودات الشرقيّين وإضعاف روح الاستقلال والنبوغ فيهم، حتّى يكونوا عبيداً لهم إلى الأبد. ثم انتقلت إلى الكلام عن واجبات الشرق نحو نفسه، وما هو العلاج الناجع لوقايته من خطر الاستعمار، فتكلّمت عن الوحدات القوميّة وحياة الأمم. وهنا أفضتُ القول في مسائل الجامعات الكبرى مثل الجامعة السلافيّة والسكسونيّة واللاّتينيّة والطورانيّة والعربيّة والمغوليّة. ثم انتقلت إلى مبحث الجامعة الإسلاميّة، وأفضت في ذكر فوائدها بصورة أدهشت الحاضرين وأثارت النخوة في أدمغة المشايخ المؤلّفة من قضايا سلبيّة. وكان هذا الموضوع خاتمة هذه المحاضرة القيّمة التي لم يسبق للإمام حديث له فيها مع أحد [هكذا]. ولما سكتُّ التفت الإمام إلى السيّد الكبسي فقال: «إنّ سعة مدارك السيّد وقوّة بيانه يسحران سامعه، وقد أصبحت قيمتُكَ ضئيلة في نظرنا بعد أن كانت محلّ إعجاب وإكبار، تضاءلت أمام تلك القوّة المؤثّرة العجيبة».

فقلتُ: «أرجو منك مولاي أن لا ترفعني فوق المستوى الذي أنا فيه. فمن أين المتقاصر مثلي أن يبلغ شأوَ السيّد الكبسي في علمه وتجاربه؟ وأنا شديد الحاجة للأخذ عنه».

فقال الإمام: «تأدّبْ ما شئتَ في القول ولكنّك لا تستطيع أن تحوّلنا عن عقيدة رسخت فينا. والسيّد الكبسي نفسه يعترف لك بعلوّ الكعب والتوفّق، كما

كاشفني بذلك قبل وصولك، وقد وجدتُك بحمد الله فوق ما قال. وإنّي لشديد السّرور بمقدمك مغتبط بك».

ثم اتّفقنا على تعيين وقت خاصّ للاجتماع في كلّ يوم لا يحضره أحد سوانا، وقال: «سأعلمك بهذا الوقت غداً إن شاء الله». ثم ودّعته وانصرفت وخرج معي السيّد الكبسي وكانت الساعة الثامنة ليلاً وهو أطول اجتماع حضرته مع الإمام.

[الإصابة بمرض مخيف]:

خرجنا من قصر السعادة إلى بيت الكبسي فجلست به قليلاً، فأقبل علينا الدكتور ديبوزي الإيطالي الذي وصل إلى صنعاء مع بعثة إيطاليّة، ولما عادت البعثة بقي الدكتور وفتحت له الحكومة عيادة لمباشرة المرضى ومداواتهم على نفقة الحكومة الإيطاليّة، وهو يقيم في قصر خاصّ ضيفاً كريماً على الإمام وله أخلاق طيّبة للغاية وواقف على أحوال اليمن تمام الوقوف. وبعد أن استرحت في بيت الصديق أسرعت إلى بيتي وكنت أشعر في تلك الساعة بثقل في الرأس وفتور عامّ في الأعصاب، وعوض أن أتلافى الداء قبل استفحاله أهملته لأنّني خلت أن ما نزل بي هو نتيجة إجهاد قواي في البحث بمجلس الإمام، وهو غير صحيح بل بداية مرض مخيف كاد يودي بحياتي(1)، نشأ عن ضربة الشمس التي كنّا معرّضين لها ونحن بين حزين وصنعاء وهي محرقة كما وصفناها.

عدت إلى البيت وقضيت الليلة ساهداً وزارني في صبيحة اليوم التالي يوم الأربعاء 2 سبتمبر في الساعة الثانية السيّد أحمد الكبسي وحسين بن علي عبد القادر الذي قدّم إليّ طائفة مهمّة من كبريات جرائد مصر وسوريا وفلسطين أتسلّى بمطالعتها في ساعات الفراغ، وقد كنت في شوق شديد إلى قراءة الجرائد

(1) حسب المرحوم الدكتور أحمد بن ميلاد، أصيب الشيخ عبد العزيز الثعالبي أثناء هذه الرحلة بحمّى المستنقعات (الملاريا).

لأنّني حُرِمْتُ منها منذ خرجت من فلسطين إلى مكّة المكرّمة. فمكثا لديّ ساعة وعند منصرفهما أخبرني حضرة الوالي أنه أعدّ لي عربة خصوصيّة تحملني إلى زيارة المعالم والمشاهد التاريخيّة في المدينة وإلى أماكن الفسح المشهورة فيها، وتكون تحت طلبي بعد ظهر هذا اليوم. فشكرته على هذه العناية الفائقة ثم انصرف الصديقان. ولم أركب بعد ظهر هذا اليوم بسبب تهاطل الأمطار مدّة أربع ساعات متوالية. وقد عراني بعد العصر ضعف شديد أوهن قوّتي علّلته بعدم النوم ليلة أمس. فنزلت قبيل الغروب إلى بستان دار الوالي للرياضة ثم عدت إلى الأثر وأويت إلى الفراش.

وفي يوم الخميس 3 سبتمبر أصبحت مثقلاً لا أستطيع حراكاً، فتناولت مسهلاً وزارني مدير الإنشاءات في الحكومة الإماميّة. وبعد الظهر ظهرت عليّ أعراض حمّى شديدة وبلغت درجة الحرارة 40. ولمّا نمى هذا الخبر إلى الإمام أوفد إليّ الدكتورَيْن القائم مقام حسني بك الجرّاح المشهور والقائم مقام سليمان بك مدير الأمور الصحيّة بالمستشفى العمومي. فأجريا تدبيراً وقتيّاً لتخفيف وطأة الحمّى، وقد كنت في حالة إغماء شديد أشعر بشيء ما يدور حولي.

وفي يوم الجمعة 4 منه حصل لي انحطاط عامّ ونزل منّي عرق بارد بلّل الفراش، وقد يبست أطرافي وجمدت رجلاي وتحرّج نفسي وظهرت عليّ أعراض الموت. ولمّا كان رأي الطبيبَيْن بالأمس مشوّشاً فقد رأى الإمام تأليف كومسيون طبّي ثانٍ يضمّ الدكتورين السالفين ويضاف إليهما الدكتور ديبوزي، وأمرهم أن يرفعوا إليه تقريراً صحيّاً عن حالتي وأنجع الوسائل لتلافي المرض. فحضر الأطبّاء الثلاثة وفحصوني فحصاً تامّاً، فظهر لهم أن الإصابة ناشئة عن حمّى صلبيّة وقعت من ضربة الشمس، وكانت تقدّمتها حمّى معديّة خفيفة لكنّها اشتدّت بتأثير الحمّى الصلبيّة، وقد تسبّب عنهما ضغط شديد على القلب حتى اختلّ النبض ويُخشى أن تتعطّل وظيفته تماماً، وهناك الخطر المحقّق. وقد

اتفقوا على السعي أوّلاً في إنعاش القلب وتقويته وبعد ذلك يهتمّون بتلافي أعراض الحمّى وتنقية البدن من أدرانها الخبيثة. ومكثتُ جثّة هامدة من يوم 4 سبتمبر إلى يوم 8 منه، في حين كان الأطبّاء يعقدون ثلاثة اجتماعات في كلّ يوم لإعطاء تقرير عن الحالة: في الصباح والظهر والغروب. أما الدكتور ديبوزي فإنه يعودني ثلاث مرّات زيادة عن المرّات الأولى التي يحضر فيها جلسات الكومسيون، [اللجنة]، وهو الذي يتولّى عمليّة التبريد والحقن تحت الجلد ولا يتكل في ذلك على الممرّضين الذين أوتِيَ بهم لهذا الغرض من المستشفى. ولم يكن قطّ على رأي زميلَيْه في اليأس منّي، بل كان قويّ الأمل بنجاتي.

عاد لي الشعور بالحياة يوم 7 سبتمبر، فكنت لا أشعر بشيء غير الألم ولا أشتهي غير الرحلة من دار المحن والأكدار إلى دار السعادة الأبديّة والنعيم المقيم. ولكن عندما يخطر لي أنّني سأترك حميد الدين[1] طفلاً صغيراً لا سَنَد له ولا معين، أتراجع وأسأل الله أن يمدّ عمري إلى أن يشتدّ ساعده ويبلغ مبلغ الرجال. وما كادت تشرق شمس هذا اليوم حتى أصبح كلّ شيء في البيت يؤلمني حتى الحركة والهمس. فنقلني الخدم إلى غرفة ثانية، فسكنت هواجسي قليلاً ثم عادت إلى أشدّ ممّا كانت عليه ونزلت الحرارة إلى 38 درجة ونيف. وحاول الأطباء أن يسقوني جرعات من الحليب فلم أستطع وعوّضوها بشراب الليمون، فتناولت مصّاصة منه خلتها سمّاً فقذفتها. ومع ذلك فقد كنت أُمْنَع الماء القراح، فإنهم كانوا يغلّونه ثم يبرّدونه ثمّ يناولونني إيّاه، وأمر الأطبّاء بتقليل كميّة ما يسقونني به في كلّ مرّة.

أمّا حالتي الصحيّة فإنّها لم تتغيّر في يومَيْ الثلاثاء والأربعاء 8 و 9 سبتمبر. وفي يوم الخميس 10 منه ذهبت أعراض الحمّى وهدأت أعصابي وعدتُ إلى الغرفة الأولى. وفي الصباح شربت كأسَيْن من الحليب خلافاً للعادة وعند الظهر تناولت مرق الدجاج وعند العصر حادثت زوّاري بعد أن كنت لا

(1) حميد الدين هو ابن الشيخ عبد العزيز الثعالبي الوحيد.

أراهم ولا أكلّمهم، وأشار عليّ الأطبّاء بالنزول صباح كلّ يوم على الساعة السابعة إلى بستان دار الولاية والجلوس بين الأشجار، ولكن متى شعرت بقشعريرة أعود إلى البيت حالاً.

وفي يوم الجمعة 11 سبتمبر أحضرتُ الحلاّق وقصّرتُ شعري واغتسلتُ بماء فاتر، فأعقبه ضعف شديد وانحطاط عامّ في المجموع العصبي حتى خشيت النكسة، ولكن لمّا دلكني الخدم بشيء من ماء الكولونيا عاودني النشاط، فقمت ولبست ثيابي وتطيّبت ثم خرجت إلى سراي السيد أحمد الكبسي مستنداً إلى اثنين من الخدم، فوجدته جالساً مع ضيوفه العديدين حول بركة المياه، فخفّ وخفّ معه الحاضرون لملاقاتي وهم مستبشرون بسلامتي ونجاتي. فجلست بينهم قليلاً ثم تحوّلت إلى قاعة المقابلات، وهناك نمت نوماً عميقاً لم أَصْحُ منه إلاّ وقت الظهر. فقدّموا لي طعاماً من مرق الدجاج، فأكلت قليلاً ثم اتّفقت مع الكبسي على مواجهة الإمام اليوم. وفي الساعة الثانية ركبنا العربة إلى قصر السعادة، والضعف آخذ منّي كلّ مأخذ. فتلقّاني الإمام بما هو أهله، وأظهر وزيره وكتّابه ومستشاروه سروراً بإبلالي لا مزيد عليه. فمكثت في حضرته حصّة قليلة من الزمن، وقبل منصرفي تواعدنا على اللّقاء غداً في الساعة السابعة صباحاً في القصر. فخرجت مُوَدَّعاً بمثل ما قُبلت به وعدت إلى البيت.

اجتماع يوم السبت 12 سبتمبر:

وافاني اليوم السيّد أحمد الكبسي على الساعة السادسة، فجلسنا حصّة، ولمّا قرب الموعد نزلنا وركبنا العربة إلى قصر السعادة، فألفينا الإمام منفرداً في غرفته ينتظرنا. فدخلنا عليه ومكثنا في حضرته إلى الساعة العاشرة ونصف. فطرح عليّ أسئلة تتلخّص في المباحث التالية:

ــ حالة الحجاز اليوم ورأي المسلمين في حلّ هذه المشكلة العويصة.

ــ الخلافة وهل في الحسين [شريف مكّة وأمير الحجاز] كفاية للقيام بأعبائها الشاقّة؟

– ما هي القواعد التي ترتكز عليها الجامعة العربيّة؟ وهل في مستطاع العرب أن يؤلّفوا حلفاً قوميّاً؟.

– من هم العرب وأين مواطنهم؟ وهل هناك فرق بين الجامعة العربيّة والجامعة الإسلاميّة أم هما شيء واحد؟

– أيّ السياستَيْن أصلح لليمن سياسة الباب المفتوح أم الباب المغلوق؟

– أيّ الدول الأوروبية يُرجَى نفع منها ولو قليل للمسلمين؟

– أيّ عمل ينبغي للعرب الشروع فيه قبل غيره؟.

أمّا الأجوبة فقد كانت مرضيّة للغاية. وخلاصتها أنه لا يوجد مسلم على وجه الأرض تطمئنّ نفسه لبيعة الحسين بالخلافة مهما كان سخيف العقل، ضعيف الدين، وذلك لسببَيْن مهمَّيْن: الأوّل: الخيانة العظمى التي ارتكبها في حقّ المسلمين وشقّ عصا الطاعة في وجه الدولة الإسلاميّة الوحيدة [الخلافة العثمانيّة] وموالاة أعدائها عليها، وهم الذين يتنازلون الإسلام منذ قرون طويلة. والثاني: صغر مملكة الحجاز وعدم قابليّتها لتأليف شعب يدرأ الخطر عن الإسلام، وليست في بلاده مصانع ولا موارد طبيعيّة تساعد على نموّ الثروة العموميّة، وتكفل حاجات الحكومة. وفي حين يجب على البلاد التي ترشّح نفسها للخلافة أن تكون لها ثروة طبيعيّة وأراضٍ شاسعة قابلة لإيواء المهاجرين الذين ينفرون من حكم الأجانب، وأن تكون خصبة تقوم بكلّ ما تتطلّبه تشكيلات ومشروعات الخلافة، وأين هذا من الحجاز؟.

يمكن للمسلمين أن يختاروا الحجاز ويجعلوه مقرّاً للخلافة وأن ينفقوا عليه من مواردهم بكرم زائد. ولكن ما دام ذلك الرجل المشؤوم الحسين بن علي جالساً فوق عرشه فلا يوجد واحد من المسلمين يفكّر في شيء من ذلك، بل تجدهم منصرفين بكليّاتهم لإنقاذ الحجاز من حكم ذلك الطاغية غير المشروع صنيعة المتحزّبين [الحلفاء].

يقولون: إنّ هذه المسائل يمكن حلّها بواسطة المؤتمر الإسلامي، وهو

قول وجيه لو كان هناك مؤتمر تمثيلي يُعقَد ببرنامج معقول صحيح. أما والمؤتمرات التي نسمعهم يدعون إليها قائمة على أعمال فرديّة غايتها خدمة مقاصد معلومة لا يحضرها غير نفر مختارين ومن ينحاز إليهم من الآفاق، وهم لم ينتخبهم أحد وإنما ينوبون عن أنفسهم، فهي لا تأتي بنتيجة وربّما كان وجودها أضرّ على مجموع الأمّة الإسلاميّة من عدم وجودها.

إنّ مشاكل الأمم الكبرى لا تُحلّ بسهولة، ولا يكفي لحلّها عقد مؤتمر واحد أو مؤتمرات متعدّدة تنعقد بمحض الشهوات، بل لا بدّ لذلك من عمل تمهيدي تشترك فيه الأمم الإسلاميّة قاطبة، وهو إيجاد مؤتمرات وطنيّة محليّة تُعرَض فيها البرامج العامّة لكافّة المشاكل الإسلاميّة، وتكليف كلّ مملكة مستقلّة كانت أو مستعبدة، بعقدها للنظر في تلك البرامج وإبداء رأيها فيها، وتأليف لجنة دائمة مسؤولة بالانتخاب تنوب عن المؤتمر. وهذه المؤتمرات تنعقد دوريّاً في كلّ سنة ولها أن تقرّر ما تشاء فيما يتعلّق بأنظمتها الداخليّة السياسية. ولكن يجب عليها أن تحافظ على روابط الجامعات الأخرى القوميّة والدينيّة... وبواسطة هذه اللجان الدائمة تُعقَد المؤتمرات العموميّة للنظر في المسائل العالية الإسلاميّة، مثل الخلافة وما يتعلّق بها والجامعة الإسلاميّة وتأليف شركات التعاون الإسلامي وجعل أصول إسلاميّة جديدة للتربية والتعليم وما إلى ذلك من المسائل العامّة التي لا تخصّ فريقاً دون فريق. وقرارات هذا المؤتمر العالي يجب أن تكون تشريعيّة تنفّذها الهيئات الإسلاميّة التي يرجع الأمر إليها.

مضت الحرب الأوروبية الكبرى [1914 ـ 1918] وكانت من خير الفرص لتجديد حياة الممالك الإسلاميّة وتمكينها من الاستقلال. ولكن نظراً لفقد هذه المؤسّسات القوميّة وعدم وجود تشكيلات قوميّة فيها ضاعت عن المسلمين هذه الفرصة واستفاد منها أعداؤهم، بل أضاعوا بقيّة ممالكهم المستقلّة. كانت إنجلترا قبل الحرب توهم الشرق الإسلامي أنها غير طامحة في امتلاك جزيرة العرب، بل كانت توهم مشايخها أنّ مصدر الخطر عليهم من

الأتراك، ولم تزل بهم حتى أقنعتهم بذلك ونفّرت المسلمين من المسلمين وكانت تعاقدهم على الدخول في حمايتها والتسليم في سيادتها الخارجيّة والتمثيل السياسي.

ولما أُعلِنت الحرب ناصروا أعداءهم وأمدّوهم بكلّ ما لديهم من بأس وقوّة. حتى غُلِب الأتراك وتركوا البلاد. ولمّا وضعت الحرب أوزارها قلبت لهم انجلترا ظهر المجنّ وصار الأوروبيّون هم وُلاة الأمر يصرفون الأمور كما يريدون ويشتهون.

ولا يوجد اليوم قطر عربي يستطيع الإنسان أن يدّعي استقلاله غير اليمن، فهو أوفر الأقطار العربيّة حاصلات، وأخصبها تربة، وأكثرها مالاً. وهو أولى بانتحال الرئاسة والزعامة من بقيّة البلاد الأخرى، وفوق ذلك فإمامه من صفوة قريش، وقد انتهت إليه الرئاسة في العلم. فمَنْ يليق دونه للخلافة؟ وأيّ قطر يصلح للقيام بأعبائها العظيمة غير اليمن، وهو البلاد الوحيدة الخارجة عن مناطق النفوذ ولا يتحكّم فيها أجنبيّ؟.

فقال الإمام: «أراني مسروراً مغتبطاً بهذه الكلمات الجذّابة». ثم تبسّم وقال: «هل يقدّر المسلمون لليمن هذه القيمة العالية في الخارج؟ مع أن البعض ربّما كان يَعُدّ هذه البلاد كعضوٍ زائد في جسم العالم».

فقلت: «أصارحكم ولا أكتمكم الحقيقة، والحقيقة أن المسلمين كانوا إلى عهد قريب يتعبّدون باستظهارات علمائهم، ليس في الأحكام والفتوى فحسب بل وفي السياسة والدين، وفي هذا إعلان عن تأثيرهم في مجاري الأحوال العامّة السياسيّة والاجتماعيّة، ولو بقي لهم استقلالهم ولم تتكالب أوروبا على ممالكهم لما فكّر واحد في اليمن واليمنيّين. ولكن بعد أن سُلِب المُلْك من أيديهم وأصبحوا لا همّ لهم إلا استنشاق نسيم العزّة الإسلاميّة من أيّ جهة هبّ، ولم يبق للسياسة المذهبيّة أدنى نفوذ. إن لم نقل صارت معدودة في صحيفة الرزايا، ممّا أورث المسلمين الحالة الأثيمة التي جعلتهم عبيداً لأوروبا،

فاليوم همّهم الوحيد أن يظفروا بمملكة إسلاميّة يتّفقون معها ولا يهمّهم أن تكون عربيّة أو تركيّة أو فارسيّة أو إفغانيّة أو صينيّة، وأن تكون سنيّة أو شيعيّة أو إباضيّة أو باطنيّة، فلتكن ما كانت وإنّما مسلمة فحسب».

«وهنا أستسمح مولاي الإمام حتى أعترف له بالحقيقة المرّة الجارحة وهي أنّ المسلمين ربّما كانوا يقدّرون لليمن قيمة عالية زائدة عمّا يستحقّ، وهذا غلط لكنّه محمود لأنّه يغري اليمن بالعظمة حتى يسير في طريق الإصلاح وينتبه لتحقيق المصالح العالية التي يشترك فيها مع بقيّة المسلمين. وهو متى فعل ذلك يستطيع أن يجرّ بالتأكيد بقيّة العالم الإسلامي إليه».

وهنا قاطعني الإمام وقال، وهو يتكلم بصراحة وعن بصيرة: «إنّ المصالح العالية التي تشير إليها لا يسع اليمن إلاّ أن ينحني أمامها عجزاً، فهو غير قادر عليها في الوقت الحاضر، ماذا يستفيد اليمن إذا أضيف إلى اسمي لقب جديد، وإذا لقّبني الناس بإمام المسلمين بدل إمام اليمن؟ وأنا إلى الآن لم أستطع جمع ما تفرّق من أجزاء بلادي ولا ضمان ثغورها ضدّ كل طارق يأتيها من الخارج، وهي معرّضة لأخطار كثيرة. كنت أعلّق بعض الأمل على شريف مكّة، خصوصاً لمّا تحقّقتُ أنه لا يصدّق على المعاهدة الإنجليزيّة العربيّة إلاّ إذا كانت عبارتها صريحة غير مبهمة فيما يتعلّق باستقلال البلاد العربيّة، وكنت أطمح إلى تكوين هذه الوحدة على يدَيْه. لكنّك تراه من جهة أخرى يسيء من حيث يريد الإحسان ويفسد في الوقت الذي يحاول الإصلاح. فقد نفّر بسوء سياسته أكبر أمراء الجزيرة [عبد العزيز آل سعود]، وحال دون عقد أيّ اتّفاق أو حلف بين الإمارات، ولو تمّ لنا ذلك لاستطعنا أن نقيم بناء الوحدة الإسلاميّة على أساس متين لا يقوى أحد على تخريبه، بلغ من العظمة ما بلغ. وقد أدركنا أنّنا عاجزون عن تحقيق الحلف العربي في الجزيرة، ونحن لا يفصل بيننا فاصل وليست بيننا مشاكل اجتماعيّة ولا لغويّة. فكيف يمكننا الاتّفاق مع بقيّة العناصر الأخرى الإسلاميّة وليست لنا معهم روابط حدود ولا طرق مواصلات، وأكثرها محكوم

بسلطات أجنبيّة؟ فإنّ ذلك لئن كان ممكناً نظريّاً، فهو في الحقيقة أمر عسير. حاولتُ مراراً أن أتّفق مع الملك حسين وقبلتُ على نفسي أن أعترف بكلّ ما طلبه فيما تقبله بلادنا. ولمّا آسفني وآيسني أعرضتُ عنه وصار مطمح نظري الاهتمام بلمّ شعث اليمن وتكوين غايات سامية للأمّة اليمنيّة».

ثم تنفّس الصعداء، وقال:

«مَنْ لي برجل مخلص يبلغ عنّي هذه الأمنية إلى أمراء الأطراف يدعوهم إلى الوحدة التي نريدها؟».

فقلتُ: «هوّن عليك يا مولاي، سأنبئك بما يسّر نفسك الكريمة، ولا ينبئك مثل خبير. فقد زرت البعض من هؤلاء الأمراء، فوجدتهم يدينون بالإخلاص للوحدة العربيّة، وهم مستعدّون على ما علمته للتضحية بالنفس والنفيس في سبيلها. وقد كان بعضهم يلتمس منّي أن أبلغكم متمنّاه. كفانا غفلة وذلاً ما يجرّ ذلك علينا من غصص التخاذل والتفرقة، وقل عنّا للإمام قد آن أوان اتّفاقنا واتّحادنا وتأليف حكومة اتّحاديّة في اليمن (كونفدرسيون)، تمنع الأيدي العادية عنه».

«ويوم يتحقّق أمراء الثغور أن حكومة الإمام لا تريد بهم سوءاً، فكلّهم ينضمّون تحت لوائها، وإنما ينبغي التأكيد من قِبَل الإمام أنه يحترم الاستقلال الداخلي الذي تتمتّع به تلك الإمارات منذ قرون طويلة، وعندي لو أنكم ترفعون صوتكم، ولو على سبيل التجربة، بالدعوة إلى هذه الوحدة في بيان رسمي تبعثون به إليهم، لرأيتم أمراء اليمن يسرعون إلى تلبية ندائكم مهرولين، حامدين لقاكم، شاكرين سعيكم».

فقال لي: «إنّ المسألة مهمّة، لكن ينبغي التريّث فيها والتحقّق في بحثها ومتى انقدح لنا الفكر عن رأي ناضج شرعنا فيه من غير تمهّل. لهذا تراني أتحاشى من إبرام أيّ صكّ سياسي مع أيّ دولة أجنبيّة خيفة التورّط والوقوع في مكيدة تنصب على أيّ قطر من الأقطار الإسلاميّة».

فقلت: «إنّ الرأي الناضج الذي تبحثون عنه مطروح لديكم وهو واضح لا غبار عليه. إنّ الوسيلة الوحيدة التي تلجأ إليها كافّة الأمم هي المؤتمرات، فلِمَ لا تؤلّفون مؤتمراً يمنيّاً يبحث في شؤون بلاد اليمن ويضع قواعد الحكومة الاتّحاديّة؟»، فقال: «هذا رأي حسن، ويودّي لو تحرّر لنا برامج مدقّقة في الموضوع تقدّمها لنا غداً». فقلت: حبّاً وكرامة. وافترقنا بعد أن تواعدنا على اللّقاء في اليوم التالي في الساعة السابعة أو الثامنة صباحاً لعرض البرنامج.

[زيارة معالم صنعاء]:

نزلنا من قصر السعادة في الساعة العاشرة ونصف وركبنا العربة فسارت بنا إلى القسم الشرقي من المدينة وفيه كافّة المساجد والمعاهد وأضرحة الأئمّة والأسواق. فزرنا أوّلاً أعلى مكان في المدينة وفيه سراي الحكومة العثمانيّة والجامع الحنفي المسمّى «بالجامع الباكري» ومركز جمعيّة الاتّحاد والترقّي والنادي العسكري العثماني [سابقاً]، وكلاهما خاوٍ على عروشه.

أمّا سراي الحكومة فقد تحوّلت إلى مدرسة حربيّة يتلقّى فيها الشبّان الفنون العسكريّة وتوجد فيها كافّة الخرائط العسكرية والأدوات اللاّزمة لتلك الفنون، وأساتذتها من ضبّاط الأتراك المتفنّنين، وهي تستحقّ مزيد العناية من الحضرة الإماميّة حتى تكون مدرسة حربيّة بمعنى الكلمة.

ثم نزلنا من هذا المرتفع على طريق سوق الأجانب، ودكاكينه كلّها مقفلة حيث لم يبق منهم أحد بعد إعلان استقلال اليمن. ثم نزلنا من هناك إلى المسجد الجامع، وقد شُرع في تأسيسه في صدر الإسلام ورسم قبلته معاذ بن جبل رضي الله عنه ولم يتمّ بناؤه إلاّ حوالي سنة ألف من الهجرة [1591 م]، وليس فيه شيء يلفت النظر مع كبره واتّساع أروقته وصحنه، غير سقف الرّواق الشرقي الذي أنفقت على إبداعه وزخرفته إحدى أميرات الهند أموالاً لا تُحصى، وهو مُزوّق بالذهب الخالص، وكلّ قطعة منه فريدة في نوعها لا تشبه بقيّة القطع

الأخرى، وهو آية من آيات الفنّ. ورأيت إلى جانب المحراب طاقة عليها باب عليه قطع مزخرفة من النحاس الأصفر عليه نقوش وتماثيل مخطوطة باللغة الحِمْيَرِيّة يقول عنه مؤرّخو اليمن إنه باب من أبواب شبابيك قصر غمدان نُقِل منه وجُعِل باباً لخزانة المخطوطات النفيسة التي تضمّنتها مكتبة المسجد. وقد تعرّفت فيه ببعض العلماء وحضرت بعض الدروس. وقد علمت أن عدد المدرّسين الراتبين بهذا المسجد يبلغون ستّة عشر أستاذاً. أما عدد الطلبة الملازمين للدروس فلا يزيدون عن 400، وهو دليل واضح على تقاصر همم اليمنيّين عن طلب العلم، ولم أتمكّن من جمع المعلومات عن حالة هذه المدرسة اليمنيّة الكبرى ولا عن نظامها وطريقة تخرّج العلماء منها، لأنّ الضعف تسلّط عليّ بصورة خارقة، حيث إنّي أجهدت نفسي كثيراً في هذا اليوم. فأسرعت إلى العربة، وكان في نيّتي أن أعود إليه يوم أزور أضرحة الأئمّة، ولكن تمكّن الضعف فيّ جعلني أزهد في كلّ شيء بصنعاء وصار همّي الوحيد أن أفي شغلي مع الإمام حتى أسافر حالاً من البلاد التي أنهكتني.

ركبنا العربة وعادت بنا من طريق الأسواق مسرعة إلى البيت. فأكلت ما تيسّر ثم استلقيت على الفراش ولم أنتبه إلاّ وقت الغروب، فتوضّأت وصلّيت الفروض المكتوبة ثم جلست إلى المكتبة في الساعة الثامنة ليلاً بعد انصراف الزوّار، وشرعت في تحرير اللاّئحة والبرامج المتعلّقة بالمؤتمر ولم أتمّه من ذلك إلا بعد إجهاد النفس ثلاث ساعات في شغل عقليّ شاقّ. ثم تناولت قدحاً من اللّبن وصعدت إلى الفراش، وكان نومي في هذه اللّيلة متقطّعاً وقوّتي خائرة.

وفي يوم الأحد 13 سبتمبر زارني السيد حسين علي عبد القادر مع السيد الكبسي وأهدى إليّ ثلاث تفّاحات باكورة من بستانه، وهي من أفكه وألذّ أنواع التّفاح. وبعد أن جلسنا قليلاً ودّعنا الوالي، نزلنا وركبت العربة إلى قصر السعادة.

[الاجتماع من جديد بالإمام يحيى]:

دخلنا إلى القصر فألفينا الإمام جالساً على الكرسيّ ومن حوله أفواج من اليمنيّين من الطبقات العامّة، فأمرنا بالصعود إلى غرفة المجلس الخاصّ وبعد هنيهة أقبل علينا فخلونا الثلاثة وقرأنا اللاّئحة والبرنامج. بعد القراءة الأولى انتقد الإمام بعض الجمل الواردة فيهما، وكان انتقاده محكماً، واقترح تعويضها بجمل أخرى أدلّ على المعنى وأبعد عن التوريط، فوافقنا على ذلك[1]. ثم تحدّثنا عن الوسائل التي يمكن اتّخاذها لإيصال الدعوة إلى حضور المؤتمر لأمراء الحواشب ولحج وأبين والمكلاّ ويافع وحضرموت فاتّفقنا على تحرير الدعوة وكتابة نسخ منها بعدد الأمراء المدعوّين. وكفّلت بإيصالها إلى أربابها أثناء العودة، ثم تكلّمنا بعد ذلك عن سياسة اليمن وموقفه بإزاء انجلترا. فصرّح الإمام بأنه يريد الخروج من النطاق الضيّق الذي حدّدته له انجلترا، فإنّها لم تعترف به ولا بحكومته وهي لا تخاطبه سواء كانت بواسطة أم مباشرة، [إلاّ عن طريق] متصرّفيّة عدن التابعة لولاية بومباي (بالهند)، وهي تحول بينه وبين الدول لئلاّ تعترف له بحقّ التمثيل السياسي [الدبلوماسي]، لأنه يجرّها طبعاً إلى الاعتراف باستقلاله السياسي وحقّه في إبرام المعاهدات مع الدول. وغاية انجلترا من ذلك أن تبتلع سيادة اليمن الخارجيّة بصفة عمليّة كما جرت على ذلك في كافّة الإمارات العربيّة الواقعة داخل الجزيرة من الخليج الفارسي إلى جزيرة بريم ولم يبق خارجاً عليها سوى اليمن.

وقد قصّ عليّ الإمام طَرَفاً من الوسائل والحِيَل التي تتشبّث بها، إلاّ أنّها انتهت بالإخفاق. فإنه كاتب في المدّة الأخيرة ملك انجلترا [جورج الخامس، 1910 ـ 1936] وبينما كان ينتظر الجواب إذ ورد عليه كتاب من متصرّف عدن يذكر فيه أنّه وصلت إلى جلالته رسالة من قِبَل إمام اليمن، وحيث لم تكن

(1) انظر نصوص هذه الوثائق في الفصل الثاني.

مُرسَلَة بالطريقة الرسميّة المعتادة (أي بواسطة المتصرّف) فإنه أبى استلامها وأمر بإعادتها إلى عدن وإرجاعها إلى الإمام حتى يرسلها بالطريقة الرسميّة المعتادة. والخلاصة أن الإمام يرى الإنجليز يحاولون إحراجه والتضييق عليه حتى يلقي بنفسه في أحضانهم، وبذلك يسكن آخر عرق ينبض في جزيرة العرب بالاستقلال.

لهذا وأمثاله اضطرّ الإمام إلى سلوك سياسة الباب المغلوق وسدّ مرافق بلاده في وجه أوروبا. فقد تداولت عليه البعثات السياسيّة من فرنسا وإيطاليا وانجلترا وكلّها تحاول أن تنال امتيازات باستثمار خيرات البلاد ولكن بدون أن يتكفّلوا بشيء يفضي إلى مساعدة البلاد على نيل أمانيها غير الإنجليز. فقد صرّحت لي حضرته أنّهم عرضوا عليه إمضاء معاهدة تتضمّن تحالف الإمام مع الإنجليز وهو يلتزم لهم في مقابل ذلك بأن لا يعقد معاهدة مع أيّ دولة أجنبيّة إلاّ بعد موافقتهم وأن يخوّلهم امتيازاً بمدّ خطّ حديدي يصل بين صنعاء وعدن، وهم يجبرون من جانبهم سكّان الإمارات القحطانيّة الممتازة على الدخول في طاعة الإمام ويجعلون اليمن كلّه كتلة واحدة في قبضة الإمام. فرأى من الحكمة أن يطاولهم ويتركهم ييأسون منه.

وبينما كان يتفاهم مع الإنجليز جاءته بعثة طليانيّة، فاحتفل بلقائها وبالغ في الحظوة بها حتى أوهم الإنجليز أنّ له مع حكومة روما يداً خفيّة. فكثرت هواجس الإنجليز، وما أكثر هواجسهم في البلاد التي تكون لهم فيها مطامع، ولو انكشفت لهم الحقيقة لعلموا أن الإمام لا يرضى أبداً أن يعاقد أيّ دولة أوروبيّة، وإنّما له غاية واحدة يروم نيلها من تلك الدول وهي الاعتراف باستقلال اليمن، وأنّه دولة من الدول الآسيويّة. ولكن هيهات أن يحصل على الاعتراف من واحدة منها، ما دامت انجلترا قابضة على ناصية البحار وبيدها المضايق ولا قدرة لتلك الدول على مزاحمتها في مناطق النفوذ التي لها بمقتضى الاتفاقات المبرمة معها. وإنّما تريد الدول المذكورة أن تنال بعض الامتيازات

من الإمام لتساوم بها حليفتها في جهة أخرى على حساب اليمن.

وقبل خروجي من المجلس صرّح لي الإمام تصريحاً باتّاً وهو أنّه لا يوقّع اتّفاقية مع أوروبا تمسّ من عظمة الأمّة وتخلّ بكرامة استقلالها. ثم قال: «إنّي مزوّدك ببعض المكاتيب، فمَنْ تريد أن أوصيه بك؟». فقلت: «أريد أن تكتب إلى سلطان نجد» [عبد العزيز آل سعود]، فقال: «حبّاً وكرامة، وسأكتب أيضاً إلى سلطان لحج أخبره بقيامك وعن نتيجة المأموريّة العظيمة التي تطوّعت بأدائها لخدمة الجامعة العربيّة، وأشكره على اليد التي أسداها إلينا بتقديمك إلينا واجتماعنا برجل مثلك»(1).

فأثنيت عليه ثم استأذنت في الانصراف، فأذن، فخرجنا في الساعة العاشرة صباحاً، فركبنا العربة وتجوّلنا في قسم بئر العزب من المدينة [الحديثة] وكلّه مؤلّف من بساتين وأبنية فخمة على نمط سواني [بساتين] منّوبة [ضاحية من ضواحي مدينة تونس]، إلى أن بلغنا قاع العمود، وهو حارة اليهود ومجتمع أسواقهم وحركاتهم في اليمن. وهو نظيف لا أثر فيه للأقذار أو الروائح الكريهة التي لا تفارق عادةً المحلاّت اليهوديّة في كافّة أنحاء العالم ولو في أكبر العواصم الأوروبيّة. ثم عدنا من طريق آخر بين ظلال الأشجار والقصور إلى أن وصلنا إلى البيت فتغدّيت ونمت وبقيت ملازماً للفراش إلى صبيحة اليوم التالي، وفحصني اليوم الدكتور ديبوزي فحصاً جيّداً وقرّر أن صحّتي تتحسّن يوماً فيوماً وأنّني سلمت من الخطر والحمد لله.

[زيارة بعض أعيان المدينة]:

وخرجت في يوم الاثنين 4 سبتمبر الساعة التاسعة صباحاً من البيت لردّ الزيارة لبعض الوجوه والأعيان الذين يسكنون بالقرب في بئر العزب، وكان في

(1) انظر نصّ مكتوب الإمام يحيى إلى الملك عبد العزيز في الملحق المصاحب لهذا.

صحبتي السيد أحمد الكبسي. فقصدنا أوّلاً سراي والي صنعاء السيد حسين علي عبد القادر، فتلقّانا بحفاوة لا مثيل لها وألفينا معه شقيقه القاضي السيد عبد الله حاكم مركز المدينة. فمسكنا إلى الظهر دون أن يتركنا نغادر المنزل، وكان ينوي أن نتناول معه الغداء، لكنّه لما علم أن هناك مأدبة معدودة في بيت السيد أحمد الكبسي دعا إلى حضورها كبار الأعيان والوجهاء وأقامها لإظهار الفرح والسرور بشفائي، عدل عن إمساكنا ودعوناه إلى الحضور معنا، فتلقّى الدعوة بمزيد السرور. فنزلنا من سراياه وذهبنا راجلين إلى بيت السيد الكبسي، وبعد أن استرحنا قليلاً وأقبل المدعوّون من كلّ صوب يشحَذون[1] أسنانهم، أوتي لنا بالمعاجن السوداء مملوءة بأصناف اللحوم وأشهى المأكولات، فتناولنا منها ما تيسّر. وفي خلال المأدبة ظهرت عليّ أعراض الضعف فتجلّدت إلى أن وهت قوّة التماسك فيّ، فتسلّلت من بين الأصدقاء كأنني أروم قضاء حاجة حتى لا أعكّر عليهم صفوهم وعدت مسنداً بين الخدم إلى البيت ولازمت الفراش إلى الصباح.

وفي اليوم التالي 15 سبتمبر لم أبارح غرفة النوم واخترت أن أمكث في البيت وأن أمتنع من ملاقاة الناس حتى تهدأ أعصابي ويزول التعب الذي تمكّن فيّ بسبب الحديث والبحث في المواضيع التي يستفهم عنها الناس. وبعد الظهر وافاني السيد أحمد الكبسي موفداً من قِبَل الإمام يسأل عن صحّتي وتخلّفي عن لقائه في هذين اليومين ويقول إنّه يدعوك إلى زيارته غداً صباحاً في الساعة المعروفة. وفي يوم الأربعاء 16 منه زارني الدكتور ديبوزي عائداً عند طلوع الشمس وطلب إليّ أن أقلّل من الحديث ما أمكن وأن لا أكلّف نفسي أيّ عمل يستوجب إعمال الفكر، وقال إنّ شفاءك لا يتحقق إلاّ بهذا النوع من الرياضة حتى يتقوّى القلب ويزول عنه الفتور تماماً. فوعدته أنني سأعمل حسب نصيحته.

(1) يقال: شحذ السيف أي أحدّه.

[لقاء آخر مع الإمام]:

لمّا أزفت الساعة السابعة ركبت إلى قصر الإمام، ولمّا تواجهنا في القاعة الآنفة أعدنا قراءة البرنامج للمرّة الثالثة، فلاحظ عليّ بعض الكلمات وذكر أنّ فيها لُبساً يقبل التأويل حسب شهوة القارىء، فأزلناه. ثم التمس منّي حذف المواضيع التي ستكون مدار أبحاث المؤتمر، وقال: لماذا ننمّ على أنفسنا بأنفسنا ونطلع العدوّ على أسرارنا؟ وإنّما يجب أن نعوّضها بكلمة مجملة تدلّ على غاية شريفة بدون أن نكشف سرّنا. فوافقته على ذلك، وإن كان في نفسي شيء لأنني أخشى أن يعمد إلى تغيير برنامج المباحث التي يتناقش فيها المؤتمر ولا يعرض إلاّ ما يوافق هواه، ولكنني رأيت من الحكمة أن أماليه ولا أظهر له احتراسي خشية أن أنبهه لأمر أوجده في نفسي الحذر وهو لم ينتبه إليه.

وبعد المصادقة النهائية على اللائحة والبرنامج تكلّمنا عن مسألة السفر، فقال الإمام: لا أسمح لك بالسفر ما لم أتحقّق بصورة قطعيّة أنه لا يؤذيك، ولا أتحقّق ذلك إلاّ بقرار يصدره الأطبّاء بشأنك، ومتى عُرض عليّ هذا القرار ورأيته موافقاً لرغبتك خصّصت لك عربة تنقلك من هنا إلى ذِمار لأن طريقها معبّد، وقد سوّيته حتى أقطعه على السيّارة، ومن ذمار تركب ظهور الخيل والبغال أو ما شئت من مطايا النقل. فاتّفقنا على ذلك واقترحت عليه أن يرسل الأطبّاء يفحصونني في مساء هذا اليوم حتى إذا كانت صحّتي حسنةً أرسل أثقالي غداً مع البريد إلى ذمار، فوافق على ذلك.

ثم أطلعني سموّه على رسالة سريّة واردة من الرياض بتاريخ يوم 12 محرّم الحرام فاتح شهور العام [1343 هـ]، تتضمّن أنّ السلطان [عبد العزيز] بن سعود عبّأ جيشين لاكتساح الحجاز وافتكاكه عنوة من يد الشريف الحسين بن علي، وأنّ الجيشين سلكا طريقين أحدهما طريق الطائف ليغزو منها مكّة والثاني

لغزو المدينة[1]. وقد ذكر في الرسالة أن الباعث الذي حَمَل السلطان على غزو البقاع المقدّسة هو كثرة الشكايات التي ترد عليه من السكّان والحجّاج يسألونه التعجيل بإنقاذ البلاد قبل أن يحلّ فيها الخراب ويفنى الناس جميعاً. وقد أثبت الكاتب في خاتمتها أن السلطان ينوي احتلال قنفدة[2] وجعلها ميناء طبيعياً ينفذ منه إلى الخارج. ثم فارقت الإمام قبيل الظهر وعدت إلى البيت.

وفي عصر اليوم زارني الدكتور ديبوزي مبعوثاً من قِبَل الإمام لفحص القلب والبحث عمّا إذا كنت أستطيع السفر صبيحة يوم السبت المقبل أم لا. فكتب تقريراً بأنّه لا يرى هناك ما يمنعني من السفر، وإنّما يشترط بسبب ضعف القلب أن تكون المراحل التي أقطعها في كلّ يوم قصيرة لا تزيد عن نصف مرحلة عادية، أي لا يزيد سفري عن 13 كيلومتراً في اليوم. فقبلت هذا الشرط واستعار منّي كتاب «تونس الشهيدة»[3] لمطالعته والاستفادة منه، على أن يرجعه مساء يوم الجمعة. وبعد الغروب كتب إليّ حضرة أمير الجيوش بأنّه عيّن عسكريّاً وبغلاً من فرقة المدفعيّة لحمل أثقالي إلى ذمار، وأنّه سيقوم من صنعاء غداً في الساعة التاسعة صباحاً. وفي الساعة المحدّدة أقبل العسكري يقود البغل ورفع عليه الأحمال وسار إلى ذمار.

[توديع الإمام وكبار رجال الدولة وأعيان المدينة]:

يوم الخميس 17 سبتمبر لم أواجه الإمام وفضّلت أن لا أخرج من البيت لاقتبال المُوَدِّعين الذين كانوا يتواردون عليّ من ساعة إلى أخرى. وأرسل إليّ الإمام آخر مسودّة اللائحة وبرامج المؤتمر لأطّلع عليها، وهي التي سيعطيها

---

(1) وبالفعل فقد تمكّن سلطان نجد من احتلال مكّة المكرّمة ـ كما أسلفنا ـ في شهر فبراير 1925 واحتلّ بعد ذلك المدينة المنوّرة.

(2) أصبحت قنفدة بعد احتلال الحجاز ميناء سعودياً على البحر الأحمر يقع جنوب جدّة.

(3) كان الثعالبي قد أصدر كتاب «تونس الشهيدة» باللغة الفرنسيّة في باريس في مطلع سنة 1920.

الإمام ويرسل نسخاً منها إلى المدعوّين بأسمائهم ومُوَقّعة بختمه وخطّ يده، فوجدتها مطابقة للإصلاح الذي أجريناه فيها عند القراءة الثالثة في الاجتماع الأخير. فوقّعت عليها بأنها مطابقة للأصل وأرسلتها مع الحامل قلاّلة.

وفي يوم الجمعة منه زارني مع جملة من المودّعين محمد أفندي مدير عموم التلغراف في حكومة اليمن، وعلي أفندي ريحان وكيل الإدارة، والسيد محمّد الكبسي ابن عمّ الصديق أحمد الكبسي، والسيد عبد الله بن إبراهيم، والسيد محمد بن إبراهيم، والسيد علي بن أحمد الشهيد، أحد علماء صنعاء المشهورين. وزارني بعد الظهر الدكتور ديبوزي وأعاد إليّ «تونس الشهيدة»، والدكتور القائم مقام حسني بك، والدكتور القائم مقام سليمان بك، والسيد حسين علي عبد القادر وشقيقه السيد عبد الله.

وفي الساعة الخامسة نزلت من البيت وسرت مع الصديق السيد الكبسي إلى قصر السعادة لتوديع الإمام، فمكثت في حضرته إلى الساعة السابعة، وقد بحثنا في شؤون كثيرة. وقد سلّم إليّ كتب التوصية موقّعاً عليها بختومه وهي: كتاب للسيد عبد الله الوزير قائد جيوش ذمار، وكتاب إلى الأمير عبد الكريم الفضل سلطان لحج، وكتاب للسلطان عبد العزيز بن السعود سلطان نجد، ولما هممت بالانصراف قام الإمام وعانقني وودّعني وداعاً جميلاً، وتبعه بقيّة الوزراء والكتّاب والمستشارون وأعيان المدينة والعلماء.

وهكذا خرجت مُشيّعاً بالأبصار، مُوَدَّعاً من القلوب، مكلوءاً بالرعاية الربّانيّة، محفوفاً بالعناية والتوفيق. وتخلّف عنّي السيد الكبسي ينتظر إنجاز رسائل الدعوة إلى المؤتمر، ولم يتمّ استنساخها إلاّ حول الساعة الحادية عشرة مساءً. ولما أُنجِزَتْ ختمها الإمام ووقّع عليها بإمضائه الشريف وسلّمها إلى السيد الكبسي مختومة مظروفة ليحملها إليّ، فوافاني قرب منتصف اللّيل، فاستلمتها بقلب خاشع ولسان يدعو الله بنجاح وتحقيق هذا المقصد الشريف.

عقائل الإمام ونساؤه:

من أكبر مصائب الشرق، بل من أفضح حالاته مسألة تشكيل العائلة وموقع المرأة فيها، فهي عندهم مستبضع للشهوة ووعاء للنسل وليس لها صفة أخرى تجعلها ذات مركز ممتاز في وسط العائلة ولا بإزاء الرجل فالنساء يعشن للرجل لا لأنفسهنّ ولا للعائلة والبنين.

وللإمام وَلَعٌ زائد بالنساء مثل غيره من أمراء المشرق، لكنه أعفّ منهم. فإنّه لا يسافح وإنّما ينكحنّ بعقد شرعي، ففي عصمته على الدوام أربع نساء، والخامسة جارية جركسيّة اشتراها منذ عهد قديم، وإذا همّ بنكاح امرأة جديدة طلّق واحدة من الأربع. وكلّهنّ نسلن منه، وهو يفصل مطلّقاته ويلقيهنّ في أعماق القصر ويقيم حولهنّ الحرّاس الأشدّاء حتّى لا تراهنّ الشمس.

زوجته الأولى هي بنت الإمام المتوكّل ومنها كبار أولاده أحمد ومحمّد وإبراهيم، وبنت. والثانية التركيّة، وقد رزق منها بولدين، والثالثة من ناحية القبصة وله منها ولد وبنت، والرابعة بنت السيد علي الشامي. وله منها ابنه عبد الله، والخامسة بنت السيد محمد القاسم وله منها ابنه شرف. ومطلّقاته بنت الغمضان وله منها ولد وبنت، وبنت العنسي وله منها ثلاثة ذكور وهم الحسن والحسين و. . . .؟ وأمّ القاسم وله منها ابنه القاسم.

[مغادرة صنعاء في اتّجاه ذمار]:

يوم السبت 19 سبتمبر لم تحن الساعة السابعة من صباح هذا اليوم حتى أقبلت العربة إلى البيت يجرّها فرسان من عتاق الخيل، وكان على كرسيّها السيد عبد الله علي سائق عربة صاحب السعادة محمود بك نديم والي ولاية اليمن في العهد العثماني. واجتمع حولها خلق لا يحصى من المُوَدّعين منهم الأصدقاء وأكثر الباقين من الفضوليّين الذين لا يخلو منهم موقف. فنزلت حالاً من البيت ومعي السيد الكبسي ورئيس حجّاب القصر الذي أوفده الإمام لتوديعي، وقد

كنت أنظر إلى المودّعين وأعينهم تترقرق فيها الدموع أسفاً على فراقي. أمّا أنا فكنت فرحاً مسروراً، ليس لفراقهم وليس لأنّي متحجّر القلب جامد العواطف، ولكن استبشاراً بخروجي من البلد الذي كرِهَتْ روحي أن يُقبَر فيه هذا القفص الذي عاش فيه الدهر 50 سنة[1].

خرجنا من بئر العزب وسلكنا طريقنا في ظاهر السور بين قشلة البيادة وقشلة الطبجيّة، ومن حولنا نفر كثيرون يجرون وراء العربة، ولكن لم يؤثّر أحد منهم في نفسي مثل الشابّين الذكيّين اللطيفَيْن القاضي علي بن دحول وعبد الله ابن خاله، وكانا قد اعتنيا بتمريضي أشدّ عناية، فالأوّل كان يجري على يمين العربة ويده على شباكها، والثاني على يسارها، وهما من طبقة الوجهاء وأبناء الأعيان، ولبثا يجريان مع الخيل مسافة ثلاثة أميال، ولما فترت أعصابهما استوقفت الخيل وودّعتهما أجمل وداع، وكانا يريدان أن يسيرا معي إلى الحدود، ثم يعودان مع العساكر. فأبيت مساعفتهما خوفاً عليهما من متاعب الطريق، فعادا كاسِفَيْن.

سارت بنا العربة في الطريق الذي وصفناه لمّا كنّا مقبلين على صنعاء إلى أن وصلنا إلى حَزين. فنزلنا قهوة حسن محمود التي تقدّم الكلام عنها، فقضينا هناك ساعتين استرحنا فيهما واصطبح العساكر والخدم. وحول الساعة العاشرة ونصف عدت إلى العربة وسرنا في طريق وعلان، وكان يتولّى المحافظة عليّ الجنديّان محبّ أفندي التركي ومحسن محمد ويقوم على خدمتي الشابّ إسماعيل. وفي الساعة الأولى بعد الظهر وصلنا إلى بلد وعلان، فمكثنا بها إلى الساعة الرابعة، وكان من قصد السائق أن ننيخ بها ونبيت فيها هذه الليلة ثم نرحل في صبيحة اليوم التالي حتى لا نجهد الخيل ولا نؤذيها، فلم أعره سمعاً. فارتحلنا في الساعة الرابعة ووجهتنا خدار الواقعة أسفل نقيل

(1) كان الشيخ عبد العزيز الثعالبي يبلغ من العمر عهدئذ ـ كما أسلفنا ـ بالضبط 48 سنة حسب سيرته الذاتيّة.

سليح الذي سنجتازه غداً بحول الله، ولمّا فارقنا وعلان بدت لي صعوبة الطريق ووعورته، وأنه ليس من السهل أن يجتازه الراكب وهو على ظهر الدوابّ، فكيف تجتازه العربات؟ قيل لي: إنّ الطريق معبّد تولّى إصلاحه المقاول أحمد خان وصيّره صالحاً لسير السيّارات والعجلات. فقد كنّا نجد بين كلّ خطوة وأخرى أخدوداً في الأرض وساقية تمرّ فيها المياه إلى المزارع وعليها جسور من الحجارة المتينة لحفظ ذلك الأخدود، والساقية يقيمها أصحاب المزارع لريّ مزروعاتهم من مياه الأمطار والسيول التي تعقبها حين انحدارها من الجبال. فكان اجتيازها عسيراً على العربة، خصوصاً قطع تلك الطوابي المنتشرة على طول الطريق. فترجّل السائق وتبعه العسكريّان والخادمان وكانا معلّقَيْن خلف العربة، وجعل يسوق الخيل وهو سائر إلى جانبها يروّضها ويحوّلها من مكان صعب إلى مكان سهل، وكلما أشرفنا على طابية قاطعة للطريق أسرع إليها هو ومن معه من العساكر والخدم حتى تمرّ ولا يحصل لها ارتجاج واهتزاز. وهكذا كان عملهم إلى أن وصلنا إلى قرية خدار، وهي منقسمة إلى قسمَيْن: قسم يسكنه المسلمون وقسم يقيم به اليهود، وكلّ منهما منفصل عن الآخر تمام الانفصال كأنّه ليست لهما أدنى علاقة ببعضهما [بعضاً]. نزلت القسم الإسلامي طبعاً، وقد اختاروا لنزولي أعلى بيت في القرية. فنمت في غرفة على السطح لا يصعد إليها الإنسان إلاّ بمشقّة عظيمة، فأمرت محبّاً أن يطبخ لي طيراً من الدجاج محمّرة في السمن، فتعشّيت ونمت على حصير فوقه إكليم [بساط] رائحتهما أنتن من فساء الغربان. وكنت في تلك الليلة غذاءً مستمراً لأنواع الأكلات التي ما رأت قطّ في حياتها جسماً خصيباً تستمرىء أديمه قبل جسمي.

وبمجرّد وصولنا أرسل سائق العربة خلف عُقّال القرى المجاورة، ولمّا حضروا ذكر لهم شيئاً عنّي، كما قال لهم إنّه ضيف إمامنا وهو يسعى في راحته والبرهان الواضح على اهتمام الإمام بهذا الضيف سفره في هذه العربة ولم يسبق لأحد أن ركبها ومرّ بها في هذا الطريق، وقد تعبنا اليوم في وصولنا إلى خدار

بسبب الخلل الذي عوّرتم به الطريق[1]. لذلك ينبغي لكم أن تعيّن كل قرية طائفة من شبّانها يتولّون تمهيد طريق العربة إلى جبل سليح حتى تسير فيه آمنة من خطر العقبات والكوارث. ولم يرجع العقّال إلى كفورهم[2] حتى خرج الشغّالون المُسَخَّرون يعملون لإصلاح الطريق.

ولم يكد ينبلج فجر يوم الأحد 20 سبتمبر حتى صحوت من النوم، فقمت وتوضّأت وصلّيت ثم أسرعت لإيقاظ العساكر والخدم. وبعد أن اصطبحوا ربطوا الخيل إلى العربة فسارت بنا الساعة السادسة صباحاً من القرية في طريق مُعَبّد أزيلَتْ معه المعاثر والعقبات، وسُوّيت حفره، ومكثنا في سيرنا ساعة كاملة حتى دنونا من مدخل النقيل، فألفينا نحو 100 عامل يشتغلون أمامنا بتمهيد الأرض. ولمّا قاربنا قرية النقيل أمسك العمّال عن العمل وقالوا: «هنا ينتهي حدّنا». فودّعوني وانقلبوا إلى قراهم بعد أن أمضوا في تمهيد الطريق ليلة كاملة بدون أجرة غير تقديم مراسم الطاعة والاحترام لمولانا الإمام.

ولما صعدنا إلى رأس النقيل وجدنا طريقاً صعباً محفوفاً بالمخاوف يستحيل اجتيازه بذوات العجلات، فقد كان في الأصل مرصوفاً بالحجارة، ثم بتوالي السيول عليها تفكّكت وانكسرت، فترى واحدة نائتة والأخرى مفقودة والأخرى لم تبق منها إلا قطع محدّدة قائمة مثل الشفار القاطعة وإلى جانبها حجارة غائصة في الأرض نحو شبر وبعدها أخرى مرتفعة عن سطح الطريق بنحو نصف ذراع، وبين كلّ حجر وآخر حفر عميقة تتكسر فيها حوافر الخيل والبغال وأظلاف الإبل، ويبلغ طول هذا الطريق المخيف زهاء المائتَيْ متر، فقطعه السائق بالعربة وأنا فيها بمهارة عجيبة تكاد تكون خارقة للعادة، فقد كان يسوق الخيل وهو إلى جانب العربة من الجهة اليمنى، وكان في كلّ خطوة يسودّ وجهه ويصيح: يا إلاهي! أغثنا! ثم يحدق إليّ ببصره وأنا جالس في مكاني في العربة

(1) عوّر الشيء، أي أفسده.
(2) كُفُور جمع كَفْر، أي القرية.

هادىء النفس ثابت الجأش مستعدّ لتلقي كل كارثة، أنظر إلى الخيل وهي تقفز في الهواء وتثب بالعربة ثم تسرع سيرها فأشعر بارتفاعها أحياناً وانحدارها على الأثر أيضاً حتى اجتزنا هذه العقبة الكأداء القاطعة للأعناق. فأوقف السائق الخيل بغتة وقال لمن كان حولنا من العساكر والخدم والمسخّرين من سكّان قرى الجبل: «أشهدكم أيها الإخوان أنّني ما رأيت في حياتي أشجع ولا أثبت من هذا السيّد البطل». ثم التفت إليّ فقال: «ناولني يدك أقبّلها فأنت السيّد المطاع، فلله إقدامك، ولله جَلَدك. عرفتُ الرجال وبلوت الأبطال فلم أرَ لك شبيهاً. فلقد سافرت مرّةً بواحد من كبار ضبّاط الجيش العثماني المعروفين بالبسالة والإقدام على المخاطر في طريق الحُدَيْدَة[6] ولمّا وصلنا إلى عقبة الصخرة، وهي ليست بشيء بالنسبة لهذه العقبة، وشعر باهتزاز العربة قليلاً فوق أطراف الحجارة الناتئة ألقى بنفسه إلى الأرض وقال: إنّني أفضّل تعب المسير على القدم ولا الركوب فوق هذه المخاطر، وقد وقف شعره وامتقع لونه. فمن أين لي أن آتي به حتى يشاهد مواقف الأبطال»؟.

فقلت: «هوّن عليك يا أسطى فما هذه بمواقف الشجاعة ولا هي حلبة رهان البطولة، بل للشجاعة والبطولة مواقف أخرى أدقّ من مواقف المعارك وقطع رقاب المخاطر واجتياز العقبات، هي مواقف الثبات على الحقّ أمام صدمات الباطل. فالذي لا تنهزم نفسه في هذا الموقف الرهيب لا تنهزم في مواقف القتال ولا تهمّه المخاطر في اجتياز العقبات. خُذْ منّي هذا الدرس في تعريف البطولة وتَعالَ نَسِرْ على بركة الله».

فتركني وصعد على ربوة أمامنا وأخذ يصيح بأعلى صوته: «تعالوا أيها السكّان أدعوكم إلى الحضور باسم الإمام». وما كاد ينزل إلينا حتى رأيت الشبّان الأقوياء ينسلّون إلينا من كلّ مكان حتى اجتمع لدينا من صنف المسَخّرين نحو 50 نفراً. فأخرج حبالاً شدّ بها العربة من سائر أطرافها شدّاً وثيقاً، ثم أوثق رأس

(6) الحديدة: أهم ميناء في اليمن يقع على البحر الأحمر.

كلّ حبل بيد 25 نفراً، فكانت الخيل تسير بالعربة إلى الأمام وأولئك النفر يجذبونها إلى خلف حتى لا تتدحرج وتندقّ أعناقنا وأعناق الخيل في الهوّات السحيقة، لأنّ الطريق كان نازلاً من أعلى إلى أسفل بدون وجود أقلّ تناسب في الانحدار. وكنت أثناء النزول من الجبل أتحاشى النظر إلى الطريق الذي نسير فيه وإذا تغلّب عليّ الحسّ أرى العربة كأنّها واقعة على أمّ رأسها من جدار شاهق فيعتريني دوار، فكنت أجتهد في صرف هذا الوهم عنّي ساعة كاملة، ولم أصرفه إلا حين نزلنا من النقيل إلى قاع جمران. ولمّا التفتّ إلى رأس النقيل الذي نزلنا منه كدت أغالط نفسي وأحكم باستحالة النزول منه والصعود إليه، لأنّه جبل واقف باستقامة كأنّه جدار شاهق مجصّص لا تركبه الزواحف فضلاً عن ذوات الحوافر والأظلاف. ثم تمادينا في سيرنا وسط القاع إلى أن نزلنا بلد معبر عند الظهر فأرحنا بها إلى الساعة الخامسة ثم عدنا إلى العربة واستأنفنا السير ولم تكد الشمس تؤذن بالمغيب حتى أظلم الأفق ولم نعد نبصر مواقع الطريق ولا الشعبة التي نسير فيها من الشُّعَب الكثيرة التي تعرض لنا أثناء السير. وفي تلك اللّحظة كثرت الاعتراضات على السائق لاسترساله في الانقياد لأوامري بدون بصيرة ولا تروٍّ حتى تورّط في أرض يجهلونها ولا يدرون أين سيبيتون. واشتدّ اللّغط لمّا أبصروا العربة وقد صعدت إلى ربوة قاع فيها أثر الطريق، فأمرت العساكر بإطلاق عيّارات ناريّة من بنادقهم لإشعار سكّان القرى حسب عرف البلاد بأنّ هناك مسافرين ضلّوا الطريق فيأتون لتخليصنا وإرشادنا. وأشدّ ما نخشاه أن تبيت الفرَسَان جائعتَيْن تحت قرص السماء والهواء جافّ بارد، وقد تعوّدتا الحياة المرويّة تحت سقف الاصطبلات. فأطلقنا الرصاص ولكن بدون طائل لأنّه لم يقبل علينا أحد من الأولاد ولا من العقّال. فاضطرّ السائق والعساكر إلى تنوير فانوس والذهاب للتفتيش عن الطريق الذي ضللناه، فعادوا بعد ساعة وقد اكتشفوا الطريق وكان تحتنا على قيد بضعة أمتار. فنزلنا إليه، وبعد مسافة قصيرة وصلنا إلى مقهاية قرية الضيق، فوقفنا هناك وذهب العساكر إلى القرية يبحثون عن منزل نبيت فيه ونحفظ الخيل. فعادوا ومعهم المقهوي وابنه، فنزلنا من

العربة وفككنا الخيل ورفعنا كلّ ما معنا وتركنا العربة بجانب البئر أمام المقهاية وصعدنا بالخيل إلى جبل الضيق فكنا نمرّ في مسالك ضيّقة بين الصخور العظيمة على نور ضئيل، وما كدنا نصدّق بالنجاة حتى صعدنا إلى منازل القرية وهي أشبه ما يكون بأعشاش القشاعم [النسور] منها بمساكن الإنسان. فدخلنا بيت المقهوي وارتقينا سلّماً ضيّقاً شديد الانحراف عليه أقذار وعفونات كثيرة، فجزنا منه جميع طبقات المنزل إلى أن بلغنا إلى السطح وهو في الدور الرابع، وفيه غرفة طويلة قالوا عنها إنّها ألطف محلّ يوجد في القرية، فصدّقناهم، فألفيته مفروشاً على طريقة أهل البادية وفيه موقد للتدفئة، ولمّا جلست لاح لي في الركن المقابل شبح رجل جالس لا يتحرّك فسألته: «من أنت يرحمك الله؟»، فقام إلى القنديل وهمز فتيلته وقال: «أنا تاجر من مدينة صنعاء اسمي كذا، وأنتَ ألَسْتَ فلان؟»، قلت: «نعم!»، فقال: «الحمد لله الذي جمعني بك على غير ميعاد». وظهر لي من كلامه وصوته أنه مؤدّب ظريف، وأنّه من طبقة وسطى. وبعد قليل قدم المقهوي بطبق عليه أرغفة رقاق ووعاء مملوء من السّمن، وضعها أمام التاجر الصنعاني، فأكل الرقاق مغموسة بالسمن. ولما انتهت الرقاق عمد إلى بقيّة السّمن وأدهن بها بيده ساقَيْه، ففخذَيْه، فبطنه، فصدره، فذراعَيْه، ثم وجهه وكان يدلك لحيته الكثّة المرسلة دلكاً شديداً، وكنت أنظر إليه ونفسي منقبضة لهذا المنظر القذر، ورائحة السمن الكريهة تتصاعد إلى خياشيمي، فكان حالي في تلك اللّحظة يشبه حال من نزلت به كارثة أو بليّة، وما صدّقت أن قدم علينا صاحب البيت، فلم أتمالك نفسي حتى قلت: «أخرج هذا الجالس». فقام وخرج من تلقاء نفسه، امتثالاً لأمري دون أن يعلم السبب. خرج هذا التاجر الثقيل المُدْهَن ولم أدرِ أنّه بقي ضيوف آخرون ثقلاء يزيدون عنه بالوقاحة والأذى، وهم الذباب والقمّل والبعوض والبراغيث، وهي لا تستحي ولا يفيد معها انتهار ولا طرد. وهل سمعتم أن الذباب يطنّ بالليل ويهاجم على نور ضئيل؟ فقد كانت الغرفة أشبه بخليّة ذباب منها بمسكن بشري. فدعوت المقهوي وأبناءه ونساءه لإخراج الذباب، فمكثوا ساعة كاملة يطاردونه

ثم غلقوا الباب، فكانوا وكأنّهم جمعوا الذباب في الغرفة ولم يشرّدوه. ولست أقصّ عليكم قصّة خياليّة بل حقيقيّة. فقد مكثت إلى الصبح داخل ثيابي وصبرت صبر الكرام على القمّل والبراغيث، ولكنّني عجزت ووهنت أمام البعوض والذباب.

وعندما لاح الفجر أيقظت السائق ومن إليه ونزلت مسرعاً إلى العربة وجلست بوسطها أستنشق نسمات صباح يوم الاثنين 21 سبتمبر، ولا أتمنّى غير سرعة الوصول إلى ذمار حتى أنّني عوّلت على التمادي في الصوم إلى أن أتغدّى بها وآكل طعاماً شهيّاً من صنع ذلك الطاهي الماهر.

وبعد قليل شددنا الخيل إلى العربة وبدأنا نرتحل من قرية الضيق، لكننا لم نسر بضعة أمتار حتى انكسر تيمون[1] عمود العربة وكان اصطدم بالأمس مع الربوة حينما اندفعت إليها الخيل، وقد شعرنا بالضربة وأدركنا أنها صدمة عنيفة، ففحصنا العجلات والمغازل وبقيّة القطع الأخرى فألفيناها سليمة ولكنّنا لم ننتبه للتيمون. ومهما حاولت أن أصف نفسي وخواطري، فإنني عاجز والله عن وصف ما اعتراني من الألم، فقد كدت أنفجر من شدّة الكدر وامتلأ صدري ندماً على قبول السفر في العربة في بلادٍ ليس فيها طريق معبّد. فبقيت ساعة مغموماً حيراناً، ولم تحدّثني نفسي فيها بشيء غير ركوب الخيل والإسراع إلى ذمار وترك تدبير أمر العربة إلى السيد عبد الله الوزير يفعل بها ما يشاء. ولمّا سرى هذا الخبر من قرية الضيق نزل منها السكّان يتفرّجون على هذا الحادث العجيب، وكان من جملتهم المقهوي فأخبرنا أنّ خلف الجبال نجّاراً يهوديّاً يستطيع إصلاح العمود وجبره، فأرسلنا خلفه فوعد بالحضور حالاً، لكنّه لم يصل إلا بعد ساعة، فقرّر أنه لا يستطيع جبر العمود لأنّه ليست له صفائح ولا مسامير تشدّه إلى بعضه، وأيسر طريقة هي استبدال العمود بعمود آخر. فدلّنا بعضهم

(1) «تيمون» لفظة دخيلة مأخوذة من الكلمة الفرنسيّة (Timon) وهو عريش العربة، أي مجرّ العجلة.

على أنّ فلاناً يملك عموداً مثل التيمون، لكنّه غير مُسَوّى. فأرسلنا خلفه فأُتِيَ به ولما ساومناه أخذ يتجنّى علينا، وأخيراً ابتعته منه بثمن غالٍ في اليمن. فتسلّمه النجّار وأصلحه، ثم وضعناه في العربة وشددنا إليه العمود المنكسر وسافرنا في الساعة العاشرة، ودامت العطلة الاضطراريّة أربع ساعات.

[الوصول إلى ذمار]:

في الساعة الأولى بعد الزوال دخلنا مدينة ذمار، فقصدنا سراي الحكومة فألفيت خلقاً كثيراً ينتظرونني على الباب. فنزلت في الغرفة التي نزلت بها في المرّة الأولى، غير أنّها في هذه المرّة كانت أفخر أثاثاً وأكثر رياشاً، ووجدت الخادمَيْن يحيى الأبي وأحمد الديواني واقفَيْن على باب الغرفة كما كانا يفعلان وأنا جالس بداخلها. فنزلت واسترحت قليلاً، وبعد ذلك قُدِّم إليّ الغداء فتناولت منه ما تيسّر ثم نمت ولم أنهض إلاّ في الساعة الخامسة. فقمت واغتسلت وتطيّبت وغيّرت ثيابي وأسرعت إلى قصر السيّد عبد الله الوزير[1] وأعطيته كتاب الإمام، وقد أجمل له فيه القول عن كلّ ما قرّرنا من الأعمال. وبعد أن استرحت قليلاً قام ودعاني إلى غرفة خاصّة خلونا فيها ساعة زمانيّة شرحت له فيها ما أجمله له الإمام، ثم ندبته في النهاية ليقوم مقامي في تحقيق فكرة المؤتمر والسعي ما أمكن في الدعوة إلى الوفاق. فالتزم لي بذلك وأكّد الالتزام. ثم رجوته أن يجتهد في إعداد لوازم السفر في هذه اللّيلة حتى استأنف سيري غداً على بركة الله. واجتهد في أن يؤخرني عن هذا العزم ولو يوماً واحداً نأتنس فيه، فقلت له: إن المصلحة العامّة أولى بالتقدّم على كلّ ما سواها. والتمست منه أن يقلّل ما أمكن عدد العساكر وقلت له يكفي أن يكون معي اثنان، واحد للبغال والعفش والثاني لخدمتي وملازمة ركابي حتى أتخلّص من دلال هذه الطائفة

(1) عبد الله الوزير هذا هو الذي سيُحيّن على رأس الحكومة اليمنيّة إثر الثورة التي اندلعت في صنعاء سنة 1948 وأفضت إلى قتل الإمام يحيى. وقد تمكّن ابنه سيف الإسلام أحمد بعد مدة قليلة من إخماد الثورة وقتل عبد الله الوزير وأعضاء حكومته.

وتجنّيها ونفقاتها الكثيرة التي ليس لها حدّ. وفعلاً فقد أعدّ لي جملاً لحمل أثقالي وهو يسابق البغال، وبغلتين للركوب، وأربعة عساكر وهم: الشاويش علي ويحيى ومحمد عبّاس وأحمد الديواني. فالأول لرئاسة الركب والثاني للجمل والثالث للبغلتين والرابع لخدمتي والسير بين يديّ، وأبرق إلى عمّال يريم والمخادر وآب لإعداد كلّ ما يلزم لراحتي وهنائي في الطريق وأثناء إقامتي داخل سرايات الحكومة، من فراش وأدوات وآنية وطعام. ثم توادعنا وكلٌّ منّا يسأل الله أن لا يكون وداعاً أخيراً. واتّفقنا على أن نتراسل دائماً حتى تكون الصلة مكينة بيننا مهما تباعدت الأنحاء. فعدت إلى السراي قبيل العشاء، فأكلت طعاماً خفيفاً وأمرت الطباخ أن يعدّ لي بضع دجاجات تكون لنا غداً زاداً في الطريق.

[السفر إلى مدينة يريم]:

في يوم الثلاثاء 22 سبتمبر في الساعة السادسة صباحاً كانت أدوات السفر كلّها جاهزة والأحمال مشدودة على ظهر الجمل والبغال مسرّجة فنزلت وركبت ظهر جواد وأمرت العساكر أن يسوقوا الجارية[1] وكانت وجهتنا في مرحلة اليوم مدينة يريم. فمررنا بالقاع المنزلي وملأنا القربة من بئر المسجد ثم صعدنا إلى عقبة قرن ذمار، ثم نزلنا منها إلى القاع الأيمن وفيه مقاطع كثيرة لأنواع من الحجارة الصالحة للبناء والأتربة الرمليّة التي يبنون بها بعد مزجها بالجير. ثم سرنا في جبيل طويل إلى أن بلغنا نقطة ذي يحزب الواقعة في منتصف الطريق، فتجنّبنا القهوة وجلسنا على عين جارية عذبة باردة، فتناولنا الصبوح وكانت الساعة العاشرة، ومكثنا هناك نحو ساعتين، ثم استأنفنا السير وقت الظهر. ولمّا دنونا من قاع عمران هطل علينا مطر غزير، وقد حاول العساكر أن نلتجيء إلى إحدى القرى فأبيت. وبعد قليل انجلى الغيهب وصفا الأديم وترطّب الجوّ وهبّ

(1) الجارية في الأصل هي السفينة، ومنها الآية الكريمة: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (الرحمٰن، الآية: 24). والمقصود بالجارية هنا الفرس.

علينا نسيم عليل فأنعش قلوبنا، وأنا لا هِمّ لي إلاّ حثّ السير حتى أصل إلى يريم. ولمّا كنّا منها على مسافة ميلَيْن ألفينا جماهير كثيرة خارجة من المدينة وفي مقدّمتها مفرزة من العساكر وفرسان الجندرمة وكان الضبّاط وبعض كبار المأمورين على متون الخيل جاؤوا يستقبلونني برئاسة شيخ المدينة، وكان من جملة المستقبلين الشبّان المرتهنون في مصلحة أمن الدولة. ولمّا وصلت تقدّم إليّ شيخ المدينة وقدّم لي كبار الموظّفين والأعيان فصافحتهم جميعاً، وتقدّم إليّ كبار الشبّان المرتهنين بواسطة عريفهم الشيخ علي. ولما انتهى السلام سار الموكب على النظام الآتي: العساكر ويليهم الرهائن ثم بقية المستقبلين الراكبين على الخيل، وعلى يميني وشمالي فرسان الجندرمة وضبّاط الجيش ثم بقيّة المستقبلين الراجلين من خلف ومن حولهم الأخلاط والفضوليّون ومن شاكلهم. فدخل هذا الموكب من باب صنعاء، وكانت الطرقات والشبابيك وسطوح المنازل مكتظّة بالمتفرّجين. وسار الموكب يخترق أهمّ شوارع المدينة والعساكر يترنّمون بأناشيدهم الحماسيّة إلى أن وصلنا سراي الحكومة، وقد أُعِدّ قسم كامل منها لنزولي. وبعد أن استرحت قليلاً دخل عليّ المستقبلون، فسلّمت عليهم فرداً فرداً وأنا جالس على كرسي لأنّني لم أحتمل الوقوف لما بي من ضعف، ثم انصرفوا جميعاً وأوتي لي بالغداء، وكان مؤلّفاً من أصناف فاخرة على مائدة كبيرة، فأمرت بحملها إلى العساكر ولم تتطلّع نفسي إلى شيء منها. وبعد ذلك أقبل عليّ خواصّ الموظّفين وأعيان المدينة، فمكثوا لديّ من الرابعة إلى السابعة، وكان مع كل واحد منهم التنباك وأدواته والقات ووسائله. فكان اجتماعاً يمنيّاً بمعنى الكلمة، وأنا لا أزهد في شيء سواها، ولكن ماذا أصنع وهم زوّاري؟ ولكن في الساعة السادسة مساءً اعترتني حمّى خفيفة وقال أحمد الديواني بصوت عال: «انصرفوا رحمكم الله فإن السيد ينبغي له أن يستريح». فخرجوا جميعاً ولو تُرِك لهم الأمر لمكثوا إلى منتصف الليل. وقد أخبرني مأمور تلغراف العمل أن التلغرافات كانت تتوارد على العامل من الإمام والسيد عبد الله الوزير بالعناية بك وتكريمك ودعوة الأمة إلى الحفاوة بك وتعريفها بمنزلتك.

فقضيت تلك الليلة موعوكاً منهوكاً ولم يذق فيها جفني طعم الكرى بل كان جسمي كلّه آلام وأوجاع.

[استئناف الرحلة في اتّجاه المخادر]:

في صبيحة يوم الأربعاء 23 سبتمبر قمت على الساعة الخامسة من الفراش ونبّهت العساكر وما دقّت الساعة السادسة حتى نزلت من السراي فرأيت الناس على اختلاف طبقاتهم يهرعون من كلّ مكان لمشاهدتي لآخر مرّة وأكثرهم من الفضوليّين. فركبت الجارية وكان الضباب كثيفاً وربما كان السائر فيه لا يرى مواطىء قدمَيْه، فخرجنا من باب اليمن، وكان المشيّعون يمشون على يميننا وشمالنا بين البغال، وكان العساكر يجتهدون في منعهم من اللّحاق بنا وردّهم إلى المدينة لأنهم كانوا يعطّلون سيرنا ويضيّقون علينا الطريق، فكانوا يفلتون منهم ثم يسبقوننا ببعض أمتار ثم يستأنفون سيرهم معنا، واستمرّوا على ذلك إلى أن وصلنا إلى وادي المرعيّة، وهو على بعد ثلاثة كيلومتر من المدينة. فخانتهم قواهم ووهنت أعصابهم فولّوا من تلقاء أنفسهم على أعقابهم، وتمادينا نحن في قطع الطريق، وقد كدنا نغرق في مراكد السيول نحو أربع مرّات. فقد كنّا نسير فلا أشعر إلاّ والبغال والعساكر يقعون إلى الركب في الخضخاض فترتدّ إلى الوراء، ثم تستأنف السير إلى أن اضطررنا في المرّة الأخيرة إلى أخذ دليل يهدينا الطريق بسبب الضباب. فوضع بيده مقاد الجارية، فهو في المقدّمة ونحن نمشي وراءه إلى أن جزنا قاع الحقل وكانت الساعة التاسعة ونصف. ولما دنونا من قرية الضربة انقطع الضباب وأشرقت الشمس، لكنّها لم تكن محرقة كاليوم الذي أتينا فيه. صعدنا إلى قرية الضربة وكان طريقها وعراً، وما زلنا نسير بين صعود ونزول حتى وصلنا إلى رأس نقيل سمارة، فنزلنا وأرحنا الدوابّ والعساكر، وبعد ساعة استأنفنا السير وركبت ظهر جواد، وقد أدركت صعوبة اجتياز هذا النقيل بصورة لم أقدّرها في المرّة الأولى، والسبب في ذلك أنّني كنت في المرّة الأولى صاعداً وهذه المرّة نازلاً، والصعود أيسر قطعاً من النزول. فقد كنت

أتصوّر القاضية في كلّ خطوة تعثر فيها البغلة، وعثراتها في هذا الجبيل لا تكاد تُعَدّ مع أنها قليلة في سواه، إن لم أقل إنّها لم تعثر بي قطّ. وكنت أثناء النزول من النّقيل أجتهد في صرف البصر عن مشاهدة الطريق، لأنني كلّما أبصرته يعتريني دوار ويُخيّل إليّ أن البغلة واقعة على أمّ رأسها لا محالة، ورغم وقوفي على الركاب وشدّ الركابية شدّاً وثيقاً فإنها نزلت مرّتين إلى عنقها فاضطررت في الثانية إلى النزول، وربطنا الركابية من كلّ جانب وشددناها شدّاً محكماً من الوسط. وقد كنت أفضّل أن أقطع هذه المسافة راجلاً لولا ما كان بي من ضعف. ثم عاودت الركوب ولم أكن في هذه المرّة أرْيَح من التي قبلها، فقد كنت أبصر عن اليمين والشمال جماجم وهياكل الرواحل على اختلاف أنواعها مبعثرة هنا وهناك، إمّا بزلقة حافر أو كبوة ظلف. والخلاصة كانت البغلة تسير وقلبي يجفّ ولم أصدّق بالنجاة إلاّ عند دخولنا إلى قرية المنزل. فنزلت ببستان على جانب الطريق فوق المكان الذي كنّا نزلناه أوّلاً، ونحن ذاهبون إلى صنعاء. وصلنا القرية الساعة الأولى بعد الظهر، وكان الدّوْشَن أمامنا، ونمنا هناك إلى الساعة الثالثة، فتغدّينا واسترحنا ساعتين، وفي الثالثة قُدّمت لي الجاريةُ فركبتها وتوكّلنا على الله، وبعد ساعة قطعنا عنق الغزال، ثم تمادينا في المسير بين سلاسل الجبال، تارة نرتفع إلى الأكمات وآونة ننزل إلى السفوح حتى وصلنا المخادر في الساعة السادسة مساءً. فألفينا حول المدينة طائفة من الجند وبعض الموظّفين في إدارة العمل ينتظرون وصولي تحت رئاسة شيخ المدينة. فأحدقوا بنا وتقدّم العساكر أمامنا وسار الموكب بهذا الصفة إلى أن وصلنا إلى سراي الملتزم لأعشار الجهة في عهد الحكومة العثمانية، المعروف بسراي الحاج علي، وصلته وأنا على آخر رمق لا أستطيع الحركة. وبمجرّد نزولي ارتميت على البساط، ولم يكن هناك فراش غيره، وأمرت العساكر بمنع الناس عنّي، فمنعوا كلّ داخل، فوقفوا كلّهم أمام الشبابيك والدوشن أمامهم، وبمجرّد ما نفحته بريالين أطلق ساقيه للرياح، ولم يطل إزعاجي ولم يدخل عليّ إلا وكيل إدارة العمل، جاء يعتذر عن العامل ويصف مرضه، والتمس منّي

أن آمره بإجراء ما يلزم، فقلت له لا أطلب شيئاً غير الراحة وإعداد ما يلزم لراحة العساكر. فأُحْضِرَتْ الخرفان وذُبِحَت الذبائح وأوتي بأحسن الرياش الموجودة في بيت العامل وفُرِشت به الغرفة مع أنّني لم أكن في حاجة لغير مرتبة ووسائد.

وبعد أن استرحت قمت إلى غرفة الحمّام فاغتسلت وغيّرت ملابسي ثم قُدّم لي جانب من الشواء، فأخذت منه كفايتي. وحول الساعة العاشرة قدم عليّ مأمور الضبط الذي كان يتولّى بنفسه حراسة المنزل تلك الليلة والتمس منّي أن أتقبّل زيارة والد مدير إدارة التلغراف، وقال عنه إنّه رجل تركي من الأخيار طاعن في السنّ، فتقبّلته. ولما دخل عليّ أشفقت عليه، فقد رأيته في سنّ التسعين ذهب الدهر بأطيبه وحطّ عليه بكلكلَه. ثم قال لي ضمن حديثه إنّ أكاذيب النّاس كثيرة ليس في اليمن خبر صحيح. فقد سمعت أنّهم عزلوا السلطان وجعلوا مكانه رئيس الجمهوريّة[1] فهل أنت تصدّق هذا الخبر؟. فقلت له: لا[2]. فقال: ما شاء الله، دعني أقبّل يدك، فوالله ما رأيت عاقلاً غيرك. فكيف يُعزَل السلطان ويبقى العالم بلا سلطان قبل أن تفنى الدنيا، وهو ظلّ الله في الأرض؟ فقلت له: «لا يمكن أن يكون ذلك». فمكث ساعة وهو يحادثني ويقسم، وأنا صابر لله الذي ابتلاني به في هذه الليلة النكرة. ولما رآني أتناوم ولا أجيبه ودّعني وخرج وهو يدعو بكلّ خير من صميم قلبه الطاهر. وبعد خروجه قمت إلى الغرفة وقفلتها من الداخل رجاء أن أدرك نصيباً من الراحة ممّا كابدته في هذا اليوم، فلم أجد غير القلق والأرق ومكثت أتقلّب على الفراش إلى الصباح.

---

(1) من الجدير بالتذكير أنّ الجمعيّة الوطنيّة التركيّة قد أعلنت عن قيام الجمهورية وانتخبت مصطفى كمال رئيساً للجمهورية، وذلك يوم 29 أكتوبر 1922.

وفي 3 مارس 1924 تمّ إلغاء الخلافة وأُجْبِر السلطان عبد المجيد، آخر الخلفاء العثمانيين، على مغادرة تركيا.

(2) أنكر الثعالبي خبر عزل السلطان التركي، رغم صحته، لكي لا يُزعج مخاطبه الذي لم يكن يخطر في باله أن يتمّ خلع خليفة المسلمين في يوم من الأيّام.

[مغادرة المخادر في اتّجاه مدينة آب]:

عند فجر يوم الخميس 24 سبتمبر شددنا الركائب وخرجنا من المخادر والناس نيام، وكان الطقس جميلاً والهواء عليلاً والنسيم بليلاً. وبمجرّد ما نزلنا من المخادر فترت جفوني وارتخت مفاصلي وتسلّط عليّ نوم ثقيل أعجزني طرده، وهذا من أعجب المفارقات التي يلاقيها الإنسان. أطلب النوم على الفراش الوثير داخل غرفة هادئة ساكنة فيفارقني، ثم حينما أركب وأنا أقطع رؤوس الجنادل فوق أكمات حيث تجب اليقظة وينبغي الحذر، ينصبّ عليّ النوم كلّه، وما زلت أعالجه وأطارده عن جفني إلى أن طلعت الشمس ووصلنا إلى سوق السبت. فأمرت بالنزول حول دوحة غنّاء وقصدي أن أغفو بها ولو قليلاً، ولمّا فُرش لي الفراش واضطجعت أجفل عنّي الكرى حتى كأنّه لم يخامرني في الطريق. فأمرت برفع الفراش واصطبحنا ثم استرحنا ساعة كاملة وعاودنا السّير.

ولم تَدُنُ الساعة التاسعة حتى دخلنا مدينة آب، فألفيت مفرزة من العساكر ترقّبني وكذا بعض المستقبلين من أعوان العامل وأعضاء البلديّة. فدخلت المدينة في موكب وقصدوا بي سراي الحكومة، فنزلت الغرفة التي نزلت بها عند قدومي، ثم قدم على إثري العامل في موكب حافل يحيط به علماء وأشراف ووجهاء المدينة. وبعد أن سلّم عليّ وهنّأني بالأوبة أشفق عليّ لما رأى الهزال الذي أصبحت عليه، وأخذ كلّ منّا يبدي شوقه لأخيه، ثم أمر أن يُبَرّق إلى السيد عبد الله الوزير بوصولي فنفّذوا الأمر في الحال.

ثمّ حرّرت له صورة برقيّتين يرسلهما من طرفي، واحدة إلى الإمام والأخرى إلى السيد عبد الله الوزير، قصصت عليهما فيها ما لاقيته من مظاهر التكريم والحفاوة في كلّ مكان حللته منذ فارقت صنعاء، وشكرت لهما الصنيع، فأرسلت في الحين ثم أخذنا في الحديث عن الرحلة ومطالعاتي وآرائي في أحوال اليمن إلى الظهر، ثم استأذن العامل فانصرف وانصرف معه الناس.

وبعد الظهر أقام لي العامل حفلة استقبال في قصره دعا إليها وجوه عمله وعلمائه وأشرافه وأكابر موظّفيه، فجاءها الناس من كلّ صوب. ووافيت القصر في الساعة الثالثة، فنزل العامل لاستقبالي والترحيب بي وصعد بي إلى قاعة واسعة بها نحو 150 ذاتاً في الدور الثالث، فما صعدت إليه حتى كادت تنشقّ مرارتي. فجلست في المكان الخاصّ المُعَدّ لي في الصدر ولبثت أتكلّم والناس صموت إلى الساعة الخامسة، فلم أشعر إلاّ وقد غمّني شيء ظننته الموت، فاستسلمت إليه من غير اختيار، ولبثت واجماً نحو ربع ساعة، ثم أفقت وأنا أكاد أختنق من كثرة ما سكبوه على رأسي وجسمي من ماء الورد ونحوه من الطيب، فرأيت عصارة الأكباد قد صبغت وجوه القوم وجعلتها صفراء من شدّة خوفهم عليّ. فطلب إليّ العامل أن أتحوّل إلى غرفة أخرى أعدّها لنزولي فأبيت إلاّ أن أعود إلى مستقرّي في سراي الحكومة، وما زلت به حتى غلبته ثم قمت وقام معي الناس ونزلوا معي يشيّعونني إلى الباب. فركبت البغلة وقد كانت أعصابي على غاية من الوهن، فأحاطوا بي من كلّ مكان يثبّتونني على ظهر الركوبة. وما وصلت سراي الحكومة إلاّ بعد عناء وتعب، فأسرعت إلى الفراش وقفل العساكر الأبواب في وجوه الناس يمنعونهم عنّي. فنمت بعد ذلك ولم أنتبه إلا في الساعة السابعة ونصف مساءً. وكان وجوه القوم في الغرفة المجاورة يتسقّطون أخباري ويتواردون في كلّ حين للسؤال عنّي ولم يرحني الله من أحد في هذا اليوم سوى الدوشن. فقابلت الضيوف وشكرتهم ولم يدعهم وكيل البلديّة يجلسون، بل كان يصرفهم واحداً بعد واحد حتى خلوت فأوتي لي بمائدة فاخرة لم أتناول منها شيئاً غير قليل من مرق اللحم والدجاج، ثم عدت إلى الفراش ولم أفارقه إلاّ في صبيحة اليوم التالي.

[أداء صلاة الجمعة بجامع آب]:

كنت قرّرت السفر إلى السياني صبيحة يوم الجمعة 25 سبتمبر، ولكن حادث الإغماء الذي حصل لي بالأمس جعل العامل وكبار الموظفين يتّفقون

على منعي وإجباري على البقاء في آب هذا اليوم ومراقبة حالتي الصحيّة، فبقيت مُكْرَهاً. وزارني العامل صبيحة هذا اليوم وأهدى إليّ قوارير من ماء الورد، وقبل منصرفه اتّفقنا على أداء صلاة الجمعة في المسجد الجامع.

وقبيل الظهر نزلت من السراي وركبت البغلة تتقدّمني مفرزة من العساكر، وعلى يميني الشيخ غالب الروضي وكيل البلديّة، وعلى شمالي خادمي الخصوصي أحمد الديواني، فسرنا إلى المسجد، وهو مسجد شافعي تحوّل بعد بيعة الإمام يحيى إلى مسجد زيدي. ولما وصلت تقدّمني الأدلاء وساروا بي إلى الصفّ الأوّل خلف الإمام، وقد هيّأوا لي مقعداً هناك من قبل بين العامل والقاضي. ومما يلفت النظر أن المنبر وقع تحويله وصار بابه ملاصقاً لحائط القبلة مفتوحاً إلى الشرق، كما فُعِل ذلك في كل مساجد اليمن، حتى لا يحول وجوده دون استواء صفوف المصلّين. وقد خطب الإمام قبل ركعتَيْ الجمعة خطبة الجمعة المعتادة خلافاً لبعض مذاهب الشيعة، غير أنّه لم يذكر في الخطبتَيْن اسمَ واحدٍ من خلفاء الصحابة ولا واحدٍ من بقيّة العشرة المبشّرين بالجنة، بل اقتصر على ذكر الإمام عليّ كرّم الله وجهه والحسن والحسين ثم الذين تلوهم من سلسلة أئمّة الزيديّة وأكثرهم لا يؤبه له ولا يعرفهم التاريخ. وسمعت المؤذّن الذي تقدّم بين يدي الإمام قبل الخطبة يقول في آذانه: «حيّ على خير العمل» [كما يفعل الشيعة].

ومذهب الزيديّة في العقائد هو مذهب المتكلّمين من المعتزلة، وأمّا في الفروع فهم أقرب إلى الحنفيّة. والإمام زيد رضي الله عنه هو أحد الشيوخ الذين أخذ عنهم أبو حنيفة رضي الله عنه[1]. والزيديّة يرسلون أيديهم في الصلاة مثل المالكيّة، وفاتني الوقوف على مدركهم في هذه المسألة التي أجمع على خلافها رواة الحديث وأئمّته ومنهم إمامنا مالك رضي الله عنه وانفرد بها تلامذته

(1) انظر مقدمة ابن خلدون «في مذاهب الشيعة في حكم الإمامة»، طبعة القاهرة، ص 197 ـ 198.

ابن القاسم وأشهب وغيرهما.

[جولة في مدينة آب]:

لمّا انتهت الصلاة أسرعت بالخروج خيفة أن يمسكني العامل ويجبرني على الغداء في بيته، وسرت نحو السراي، ولم أكد أصلها حتى وافتني رُسُله تدعوني إلى قصره فاعتذرت لهم ووعدت بزيارته في الساعة الثالثة بعد الظهر، ثم دخلت السراي فنزعت ملابسي واسترحت. وبعد ذلك طلبت الغداء فأكلت ما تيسّر أكلاً شهيّاً لذيذاً غير ملوّث بالأيدي، ثم استرحت قليلاً إلى أن دنت ساعة الميعاد. فنزلت من السراي وذهبت إلى قصر العامل راكباً، وكان في هذا اليوم مكتظّاً بالزوّار وأعيان البلاد وأكابر الموظّفين، وكلّهم كانوا ينتظرون وصولي، فجالستهم إلى الساعة الخامسة ونصف، وكان الحديث دائراً في هذا اليوم بيني وبين سماحة القاضي، وهو من الأئمّة الأعلام الذين لا يستندون بعد كتاب الله إلى دليل غير السنّة السنيّة.

وفي الساعة السادسة تركت قصر العامل وركبت إلى الشلاّل النازل من جبل بعدان إلى طرف آب، وهو الذي تستقي منه المدينة، فخرج معي طائفة من أذكياء العلماء وأكابر السادة، ولما أبصرتهم محدقين بي وأنا على أبواب المدينة ترجّلت وأبيت الركوب ومشينا جميعاً إلى الشلاّل، وبعد أن وقفت على تقسيماته وتأمّلت في منظره وأردت الرجوع، أقسم عليّ رفقاء هذه الصحبة القصيرة أن أركب وأن أودّعهم هنا ولا داعي لمماشاتي لهم وإتعابي، فقبلت اقتراحهم وركبت البغلة وودّعتهم فرداً فرداً وعدت إلى المدينة. فمررت بالأسواق العموميّة، فكان مروري بها مشهوداً موقّراً، وكان تجّار كل سوق يتقبّلونني خير استقبال، ومنها قصدت السراي. فألفيت بها برقيّتين برسمي، واردة من الإمام والأخرى من السيد عبد الله الوزير، جواباً عن البرقيّتين اللتين أبرقت بهما إليهما بالأمس، تضمّنتا كثيراً من شواهد اللطف والعناية. وفي المساء كتب إليّ العامل كتاباً رقيقاً يودّعني فيه ويعتذر فيه عن الحضور في

حفلة توديعي لأنه أصيب بعدما فارقته ببرد في الظهر ألزمه الفراش، فأجبته عنه بكتاب رقيق العبارة. ثم كتب إليّ يقول إنه أصدر الأوامر اللازمة إلى جهات الاقتضاء بشأن إعداد وسائل السفر في الساعة التي أريدها وبعث إليّ كتاباً إلى السيد علوي الجفري وزير سلطنة لحج والتمس منّي أن أوصله إليه، كتبه جواباً عمّا كان كتبه الوزير إليه بشأني.

[السفر إلى بلدة السّياني]:

عند مطلع فجر يوم السبت 26 سبتمبر غادرت آب إلى بلدة السياني وهي أكبر سوق للحبوب في اليمن السفلى على الإطلاق وملتقى قوافل الجهات، فسلكت طريق الجبال والأدغال، وهو كثير المياه والينابيع. وما دنت الساعة الحادية عشرة حتى نزلت من نقيل السياني وكنت في مدخل المدينة، فألفيت ملتزم الأعشار الشيخ عبد الحيّ ونائب بيت المال الشيخ أحمد مع مفرزة من العساكر. وجماعة من الأعيان ينتظرون قدومي أسفل النقيل، وقد أعدّوا لنزولي بيت الملتزم فأبيته وقرّرت أن يكون نزولي حيث نزلت أوّلاً وهو بيت الحاج إسماعيل. فأسرع إليه العساكر والأعوان يحملون إليه الفراش والأثاث والأدوات وكلّ وسائط الراحة والإقامة. ولمّا وصلت إليه ذُبحت أمامي الذبائح والقرابين وتقدّم إليّ الدوشن، فصعدت حالاً إلى البيت وأمرت العساكر أن يحولوا دون وصول الناس إليّ، ولم أستثن أحداً غير الملتزم وأمين بيت المال اللذين انتدبهما الإمام لخدمتي. ومكثت طول هذا اليوم في المنزل توفيراً لنصيبي من الراحة، ولم أتناول ممّا طهاه الطهاة غير قليل من الشواء وأمرت بتوزيع الباقي على العساكر والمحتاجين من أهل البلدة. وقضيت ذلك اليوم في راحة واطمئنان ولا يوجد شيء يعكّر عليّ غير انقباض صدري من الخادم أحمد الديواني، حيث تبيّن لي سوء سلوكه ودجله وأنه كان يحتال عليّ ويتفنّن في سرقة مالي. فدعوته وخيّرته بين أحد أمرَيْن: إمّا الرجوع من هنا وأكتب له ورقة للسيد عبد الله الوزير أشهد له فيها بما يرفع شأنه وتزويده بنفقة الطريق، وإما

تركه يصل معي إلى لحج، ولكنّني أكتب عنه كلّ ما كرهته منه ولا أعينه بشيء، فاختار الرجوع. والسبب في قلقي منه أنه كان يريد الفرار من الجنديّة واللّحاق بي أينما كنت، وقد تبيّن لي من فعله أنه غير أمين ولا يُعتمد عليه. فسمحت له أن يمكث معي ذلك اليوم وأن يعود في الغد إلى آب فعاد البازي عليه سواد.

[التحوّل إلى بلدة ماوية]:

خرجنا من السّياني عند فجر يوم الأحد 27 سبتمبر وليس معي أحد غير العساكر الثلاثة وهم الشاويش علي أحمد ويحيى السياني ومحمّد عبّاس. فسلكنا طريق السيالة أوّلاً ثم سلكنا شعبة الجبال وعدلنا عن الطريق الطويل الذي جئنا منه وهو كثير الأحراش والمياه وبه ينابيع كثيرة وعيون فوّارة وآبار، وبه طيور كثيرة للصيد خصوصاً الحجل والسمان واليمام والحمام وما إلى ذلك من الطيور الجميلة.

ولم نزل مجدّين في السير حتى وافينا الحميرة في الساعة العاشرة صباحاً فنزلت أجمة غيضاء فتغدّيت بها وسرّحت العساكر إلى القهوة وقضيت القيلولة هناك. وحول الساعة الثانية بعد الظهر شددنا الرحال وتوكّلنا على الله قاصدين بلدة ماوية عاصمة الحدود، وفي أثناء الطريق ألفيت شابّاً منكراً أجهده الجوع والعطش كان يستطعم أهل القرى فأبوا أن يطعموه وهي خلّة معروفة في اليمن. وكان لديّ بقيّة من زاد فيه لحم كثير، فأمرت بإطعامه فأكل أكلاً ذريعاً حتى خفت عليه، ولما شبع قال: «هل لك في خدمتي؟» فقلت له: «من أين وإلى أين؟» فقال: «أمّا البلد فصنعاء، وأمّا المقصد فعدن، وأمّا عائلتي فلا يهمّك أمرها وكفاك ما تراه من صدقي وخدمتي». فقبلته على علاّته أن يكون رفيقي إلى لحج، فكان لنا في الطريق أهدى دليل وخير خادم خدمني في هذه الرحلة.

فحثثنا السير وضغطت على العساكر وكان علي الخادم يسير أمامهم كالبرق الخاطف إلى أن قطعنا شعب بني علي ثم صعدنا إلى نقيل ماوية. فكان علي يرتاد لي المياه العذبة الباردة ويسقيني منها ثم نتركه خلفنا يستريح ولا أدري

حتى أجده أمامنا، وهكذا حتى أشرفنا على مدينة ماوية قبيل الأصيل وكانت قطعان البقر والغنم والمعز نازلة من الجبال مثل السيول تترعرع من الشبع والسمن ومنظرها يسرّ النفوس. فألفينا في انتظارنا في دخانية البلد وكيل إدارة العمل ومأمور المالية ومدير التلغراف وغيرهم من أكابر الموظفين ومعهم نحو 100 عسكري. وبمجرد ما وقعت العين على العين تقدّموا وسلّموا عليّ ثم أحدقوا بي فمشى العسكر في المقدّمة وبقيّة المستقبلين من حولي، فساروا وهم يترنّمون بأناشيدهم الحماسيّة، وأصواتهم تخترق الفضاء وصداها يتردّد فوق الجبال. ولما دخلنا البلدة ألفينا الطرقات غاصّة بالمتفرجين وسطوح المنازل مثقلة بمن عليها من النساء والأطفال. وكذا سار الموكب إلى أن وصلنا إلى بيت الحاكم الأستاذ الشيخ محمد بن أحمد الجنيدي، فهرول لملاقاتنا ومعه الشيخ المفتي الأستاذ عمر مصلح، فجعل كلّ منا يذكر شوقه المبرّح لأخيه وغير ذلك من دلائل المحبّة وصدق الولاء.

وبعد أن استرحنا قليلاً قدم إليّ المُسَلِّمون والزوّار يهنّئوني بسلامة الأوبة ويدعون لي باجتماع الشمل مع الأهل ويستفسرون عن أخبار الوطن. ثم مُدَّت الموائد للحاضرين فأكل منها الناس جميعاً كأنّنا كنّا مدعوّين إلى عرس، وقد كنت أتحمّل وأتجلّد وأظهر أنني على أتمّ ما يكون من الراحة والنشاط، لكن آثار الضعف والهزال البادية عليّ لم تُخفِ ما كنت أجتهد في كتمانه، خصوصاً وقد قطعت في ذلك اليوم مرحلتين في مرحلة واحدة وأنا ضعيف البدن.

وفي الساعة التاسعة تلقّيت برقيّة من السيد علي الوزير قائد لواء تعز يهنّئني بسلامة الأوبة ويلتمس منّي أن أمكث غداً ضيفاً على الحكومة حتى أستريح، وقد شقّ عليه كيف أقطع مسافة مرحلتين في مرحلة واحدة، وأنا ضعيف البدن. فأرسل برقيّة إلى الحاكم يرجوه أن أبدي إليه بعض الأسرار عن وجهتي إلى الإمام، لأنه فهم من برقيّة الإمام أنّني صرت موضع اهتمامه بصورة لا عهد له بمثلها، وأن تكون الرسالة التي تحرّر في هذا الشأن مرسلة بصورة خاصّة حتى

لا تغتالها الأيدي. فكاشفته بلمحة منها بصورة لا تميط اللّثام عمّا كان خاصّاً بيني وبين الإمام، وإنما كاشفته بالأمور العامّة وبما هو مقتنع له. ثم حرّرت برقيّتين الأولى للإمام أودّعه فيها خير وداع والثانية للسيد علي الوزير أعتذر له فيها عن المكوث غداً بماوية وأودّعه. وعند منتصف الليل دخلت إلى مخدعي وعبثاً حاولت اصطياد الكرى لأنّني بتّ منهكاً متوتّر الأعصاب. وقد كنت مزمعاً على السفر وقت الفجر، ولكن الحاكم أبى عليّ أن أسافر قبل الغداء، فتأخّرتُ مجبوراً إلى الساعة العاشرة من صبيحة اليوم التالي.

[الرحيل إلى سلطنة لحج]:

يوم الاثنين 28 سبتمبر بعد أن تغدّينا تألّف موكب ضخم مشى فيه نحو 250 من العساكر واجتمع خلق لا يحصى من ماوية والقرى المجاورة لها انضمّوا إلى الموكب، بعضهم كان راجلاً والبعض الآخر ركب ظهور الخيل والبغال، وركب معي الموظفون وفي مقدّمتهم الحاكم. فكانت العساكر تتقدّمنا بالأناشيد، وسار معي هذا الموكب إلى أن توسّطنا النقيل. فوقفت وأقسمت عليهم أن يعودوا، فصافحتهم واحداً بعد واحد، ثم تركتهم وسلكت الطريق إلى أن انتهينا من النقيل ودخلنا سائلة لاذة. فألفيت اثنين جالسَيْن تحت شجرة من الأثب وارفة الظلال قرب بئر ترده المارّة، عليهما سِمَات الوجاهة والنباهة، ومعهما جماعة من الأتباع والخدم. ولمّا أبصراني أسرعا إليّ وسلّما عليّ وسألاني أن ألمّ بهما ولو قليلاً، فنزلت وكان الركاب قد تخرّق ففضلت أن نصلحه هناك. فعلمت من أمرهما أنهما من تجّار جيبوتي الأغنياء وأنّهما كانا سائحَيْن في أوروبا، وأصلهما من تعزّ وذكرا لي أنّهما يقرآن عنّي شيئاً كثيراً وأنّهما كانا في شوق إليّ وكانا مَيْؤوسَيْن من لقائي لأنّهما لمّا وصلا إلى عدن علما بقيامي إلى صنعاء وما كانا يتوقّعان بحال لقائي. فجلست إليهما حصّة ثم ودّعتهما وقمت مستأنفاً خطّة السير.

ولبثنا ننهب الطريق حتى أنخنا بمركز الدريجة الساعة الثانية بعد الظهر،

فاسترحنا بها ساعة كاملة ثم شددنا الرواحل إلى الملحة فوصلنا إليها الساعة السادسة ونصف. فأبيت النزول في بيت معيّن بل اخترت نقطة وسطى بين القرية والوادي. وأمرت العساكر أن يجعلوا فيها فراشي. ولمّا علم بمقدمي وجهاء القرية أسرعوا إليّ وعرضوا عليّ بيوتهم، فشكرتهم وصمّمت على المبيت في ذلك المكان، لأنّ بيوتهم لا تخلو من الحشرات، أمّا ذلك المكان فلا شيء فيه غير الهواء النقيّ. وقد كانوا يظهرون الخوف عليّ من آفات اللّيل وطوارقه، فقلت: «أمّا هذا فلا أستطيع أن أعصم منه نفسي، سواء كنت داخل أعشاشكم أو خارجها، وإذا حدث لي أيّ حادث فأنتم كلّكم مسؤولون عنّي أمام الحكومة، لذلك يجب عليكم أن تتولّوا حراستي جميعاً في هذه اللّيلة وأن لا أنتقل من مكاني». وأمرت العساكر أن يتناوبوا الغفارة من الساعة التاسعة ليلاً إلى الساعة السادسة صباحاً، وقضيت ليلتي منعّماً آمناً بحمد الله.

وفي صبيحة يوم الثلاثاء 29 سبتمبر غادرت الملحة على الساعة السابعة ونصف، وفي أثناء ركوبي اقترب منّي سرب من نساء القرية ولم أنتبه لهنّ إلاّ بعد قيامي، حيث فقدت علبة النشوق وكانت من الفضّة الخالصة، وعبثاً حاولت العثور عليها، فسلّمتُ الأمر لله، وهي ثالثة العلب التي فقدتها في هذه الرحلة. فسلكنا طريق المسيمير، وما دنت الساعة العاشرة حتى كنّا أمام قصر السلطان محسن بن علي الحوشبي، فتلقّانا رجال الحاشية بالترحاب وفتحوا أبواب القصر، فصعدت إلى الغرفة السلطانية التي أعِدّت لنزولي في المرّة الأولى. وبعد لحظة أقبل السلطان ووصيّه الأمير علي فسلّما عليّ بشوق، ولما جلسا أعطيتهما كتاب الأستاذ الجنيدي حاكم ماوية، جواباً عن كتابيهما الذي بعثاه إليه يوصيانه بي خيراً. ثم تلتهما الأميرة نعمى والدة السلطان، فرحّبت بلقائي هي وجواريها بصورة تدلّ على التناهي في الاحترام والمحبّة. ثم أمرت بذبح ثلاثة رؤوس من الغنم، واحد لي واثنان للأتباع، فصدع العبيد بأمرها وقضينا يوماً من أبهج الأيّام في ضيافة هذه الأميرة الكريمة.

وفي يوم الأربعاء موفّى شهر سبتمبر خرجت من المسيمير الساعة السادسة صباحاً، وبعث السلطان رسولاً من قِبَله إلى عاقل قرية الفندق يستقبلنا لنقبل في بيته، وما دنت الساعة التاسعة ونصف حتى أشرفنا على القرية وألفينا سكّانها رجالاً ونساءً وأطفالاً في انتظارنا وأكثرهم لقيني وسلّم عليّ، منهم سيّدة حسناء تبهر الناظرين، لكنها قذرة. وقد قلت لها وأنا أرحّب بها: «تعالَيْ! تعالَيْ ما أنتِ إلاّ جوهرة وإن كنتِ في مزبلة». فخجلت حتى بكت، وقد قال لي أبوها إنها معذورة، فإنّها قائمة بشغل بيتها بمفردها وليس لها معين، وزوجها يأبى أن يتزوّج عليها، وهي لا تجد وقتاً تتفرّغ فيه لنفسها. فنزلنا في بيت العاقل ومكثنا إلى الساعة الثالثة بعد الظهر، ثم عدنا إلى ركائبنا وقصدنا طريق الشفعة. فمررنا بوادي الطنان ودكيم وأشرفنا مع الغروب على الشفعة، وتلقّانا عاقلها خارج البلدة ورغب إليّ أن أنزل بيته، فأبيت لأنّني أريد أن أبيت الليلة طاوياً، والضيافة تحتّم عليّ الأكل. فاخترت النزول في السمسرة التي أعِدّت لي في المرّة الأولى، وأمرت العساكر أن يضعوا الفراش على السطح ولم أصغ لنصائح صاحب المحلّ، فقضيت ليلة من أشأم ليالي الدّهر، وربما كانت ليلة الحميرة أهون منها، ومكثت ساهداً إلى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل، فنبّهت العساكر والخادم علي وكانوا يغطّون في نومهم داخل أكياسهم وهي أشبه ما يكون بأثواب الثعابين، فقاموا حتف أنوفهم وأسرجوا الدوابّ وحملوا الأثقال وسلكنا الطريق.

[الوصول إلى الحوطة عاصمة لحج]:

في الساعة التاسعة صباحاً دخلنا الحوطة وأبيت النزول إلاّ في قصر السلطان، فنزلت في دائرة السلاملك. وبعد وصولي علمت أن السلطان [عبد الكريم] ذهب اليوم مبكّراً في سيّارته إلى عدن وأنّه لا يعود إلاّ أواخر النهار. وأما أنا فدخلت الحمّام واغتسلت وغيّرت ملابسي وتطيّبت وآويت إلى الفراش. وعند الظهر حضر الأمير مهدي حاكم المدينة والأمير فضل ابن

السلطان، فأيقظوني، فتغدّينا وجلست إليهما ساعة ثم عدت إلى الفراش.

ولمّا رجع السلطان من عدن علم بمقدمي، فأسرع إليّ وما افترقنا إلاّ في الساعة الحادية عشرة مساءً. وبمجرّد ما تلاقينا سلّمت إليه رسالة الإمام وكتاب السيّد أحمد الكبسي، فقرأهما بمحضري، وحاولت أن أقف على رأيه بشأن المؤتمر، فرأيته يتكلّم باحتراز شديد وبدت عليه حالة ريبة تخالف ما تركته عليه قبل منصرفي إلى صنعاء. فكاشفته بما لاح لي من أمره وأظهرت له استغرابي من هذا الانقلاب السريع.

فقال: «لا أكتمك وأنت واحد منّا. فإنّ الإمام أصبح خطراً يتهدّد بلادنا، خصوصاً في الأيّام الأخيرة بعد استيلائه على البيضة وهجومه على الضالع[1] وإجلاء سلطانها عنها. ولست وحدي في هذا الاعتقاد، فإنّ الأمراء القحطانيّين كلّهم يشاطرونني فيه. وربّما اكتشفوا مؤامرة سريّة دائرة ضدّنا بينه وبين الإنجليز بواسطة السيد علي الوزير. فالإنجليز يريدون جعلنا قرباناً لمطامعهم في اليمن، والإمام يطلب إماراتنا لإبرام المعاهدة التي يقترحونها عليه، وهي إن تمّت فإننا سننتقل من طور الحماية الصوريّة التي ضمنت لنا الاستقلال المطلوب فيما مضى إلى طور الاستيلاء الفعلي بواسطة حكومة اليمن، والإمام لا يفقه من هذه المغاميز السياسية شيئاً غير ما يبدو له من الظواهر الخدّاعة من توحيد البلاد وجمعها في قبضته وجعلها تعترف بإمامته وتخطب باسمه وتجبي الضرائب وما يدريه أنّها ستكون مُسَيَّرَة بإرادة الإنجليز أحبّ أم كره.

فقد عرض الإنجليز على الإمام عقد معاهدة تتضمّن تمكينهم من مدّ الخطوط الحديديّة داخل البلاد وربطها بالثغور[2] وبناء الطرقات وتعدين المناجم، وهم يعترفون له في مقابل ذلك بالاستقلال. فكتب إليهم يلتمس أن تؤدّي له الإمارات القحطانية الزكاة وأن يخطبوا باسمه على المنابر ويعيّن لهم

(1) إمارة الضالع إحدى المحميّات البريطانية التابعة لمستعمرة عدن.

(2) الثغور جمع ثغر، وهي الموانىء.

قضاة من قِبَله يقيمون العدل في بلادهم. فأجابته انكلترا بأنّها لا ترى مانعاً من ذلك إذا كان الإمام يقبل تنفيذ شروط المعاهدة المعروضة عليه، وأشدّ ما يخشاه الأمراء القحطانيّون أن يقبل الإمام الشروط الإنجليزيّة ويبتّ في الأمر الإنجليز دون أن يأخذ في ذلك رأي أولئك الأمراء، وهم أبعد نظراً في فهم المسائل السياسيّة. واتّقاءً للمفاجأة عمد القحطانيّون لتلافي هذه الكارثة قبل نزولها إلى عقد حلف فيما بينهم على مقاومة كلّ اتّفاق يخلّ بسلامة واستقلال بلادهم. وقد سافر من نحو شهر السيد حسين بن حامد المحضار وزير القعيطي صاحب إمارة المكلاّ إلى بلاد يافع ودعوتهم إلى عقد تحالف مع القحطانيّين ضدّ كل خطر يتهدّد بلادهم. ويظهر لي أنّ مأموريّته قد قرنت بالنجاح».

وإليك تعداد سكّان الإمارات القحطانيّة حسب الإحصاءات الرسميّة الموجودة في دفاتر حكومة لحج:

الإمـارة	حاكم الإمارة	عاصمتها	عدد سكّانها
1 ـ إمارة لحج	السلطان عبد الكريم	الحوطة	55.000
2 ـ الصبيحة والحوشب	السلطان محسن بن علي	المسيمير	25.000
3 ـ إمارة أبين	السلطان عبدالقادر الفضلي	أبين	40.000
4 ـ إمارة يافع العليا	السلطان محم العفيفي	ـ	137.500
5 ـ إمارة يافع السفلى	السلطان صالح بن عمر الهرهري	ـ	113.500
6 ـ إمارة العوالق السفلى	السلطان صالح بن عبد الله	ـ	60.000
7 ـ إمارة العوالق السفلى	السلطان منصر بن علي بن منصور	ـ	50.000
8 ـ إمارة العوازل	السلطان قاسم بن أحمد	ـ	65.000
9 ـ إمارة المكلاّ والشحر	السلطان عمر بن عوض القعيطي	المكلاّ	75.000
10 ـ إمارة حضرموت	السلطان حسن الكثيري	تريم	550.000
11 ـ إمارة الضالع	السلطان نصر	الضالع	35.000
12 ـ قبيلة القحرة	السيد عبدالقادر الأهدل	ـ	10.000
13 ـ إمارة الأدارسة	السيد محمد الإدريسي	صبية	20.000
		المجموع:	1.500.000 نسمة

فقلت للسلطان: إنّ أفضل وسيلة للوقاية ممّا تخافون الاستجابة لعقد المؤتمر العامّ، ومتى عُقِد يمكنكم التفاهم في كلّ شيء بدون ما خوف ولا خشية رقيب أو وسيط يتعمّد تحريف الكلم، وهو الطريق الآمن الذي تتوصّلون به لإقناع الإمام بحسن طواياكم وصدق نيّاتكم. وإذا تعسّر عليكم إقناعه فإنكم تستطيعون أن توصدوا في وجهه كلّ منفذ يتوصّل منه لإذايتكم من حيث لا يريد، لأنّي لا أستطيع أن أتّهمه وأنا واثق من حسن طويّته.

فقال: «أنا لا أبتّ في هذا الأمر قبل رجوع السيّد حسين من الوجهة التي سافر إليها. فإنّه كتب إليّ منذ أيّام بأنه سيعود قريباً، ومتى رجع يمكننا أن نتداول في الأمر». وافترقنا على هذا الرأي.

[ضبط برنامج عمل لعرضه على المؤتمر]:

في صبيحة اليوم التالي الجمعة 2 أكتوبر ركبتُ السيّارة مع السّلطان وتفسّحنا في البساتين ثم عدنا إلى المدينة وعرّجنا على سراي السيد علوي الجفري وزيره. وتذاكرنا في دعوة الإمام الأمراء القحطانيّين إلى عقد المؤتمر. فكان رأيه مثل رأي السلطان في تأخير النظر في هذه المسألة إلى أن يرجع السيد حسين [ثم خاطبني قائلاً]: «ولكن يجب عليك أن تضع لنا قاعدة نتمشّى عليها». فقال السلطان: «وأنا أضمّ لك رأيي، يجب على السيّد أن يرسم لنا خطّة نتمشّى عليها، فإنّه كما فكّر في وضع قاعدة لاتّحادنا من الوجهة النظريّة يجب عليه أن يرسم لنا خطّة مقرّرة نتمشّى عليها من حيث الوجهة العمليّة. أمّا إذا تُرِكَ الأمر إلى تدبيرنا فلربّما عملنا من تلقاء أنفسنا إلى وضع العوائق في سبيل اتّحادنا ونحن نحسبها من قبيل الاحتياط. فها أنت قد اطّلعتَ على كلّ شيء ويمكنك أن تضع لنا أوفق البرامج وترسم لنا أفضل الخطط».

فقلت: «حبّاً وكرامة». وحينئذ التمست من السلطان أن يسمح لي بالعودة إلى القصر لأخلو مع نفسي لتحرير البرنامج الذي يتقدّم به القحطانيّون إلى المؤتمر يكون من جهة كافلاً لتحقيق الوحدة اليمنيّة، ومن جهة أخرى ضامناً

للاستقلال الداخلي للإمارات القحطانيّة، حسبما اتّفقت على ذلك من قبل مع الإمام. وفوق ذلك أجعل كلّ اتّفاق في المستقبل يتعلّق باليمن لا يبرم إلاّ متى صادق عليه المؤتمر. ولتحقيق هذه الأمنية أجعل الأمراء يقترحون باسم المؤتمر تأليف حكومة يمنيّة تعاهديّة دستوريّة مسؤولة، وأجعل الإمام تجاه أمر واقع، بحيث لا يسعه رفض ما يُعرَض عليه، وإذا رفض المقترحات يكون هو المتسبّب في إخفاق أعمال المؤتمر وتقوم عليه حجّة الأمراء القحطانيّين ويكونون في مندوحة لإبرام الحلف الذي تعاقدوا عليه.

عُدْتُ إلى القصر وقضيت بقيّة اليوم منزوياً لتحرير الاقتراحات وسبكها في القوالب المناسبة للعرض حتّى أحكمت وضعها في كرّاس كامل. وفي المساء قدّمت البرنامج للسلطان فأعجب به وقال: «ما عدوت ما كان يتردّد في نفسي. ويا حبّذا لو تجتمع كلمتنا على هذا فإنّنا ستصبح أرقى أمّة في آسيا وتجدّد عصر مدنيّة العرب».

ومكثنا ننتظر قدوم السيّد حسين المحضار يوم السبت والأحد. وفي يوم الاثنين 5 أكتوبر صمّمتُ على الرجوع إلى عدن، حيث يتمّ برجوعي إليها ختم الرحلة اليمنيّة، فأمر حضرة السلطان في هذا اليوم بإعداد ثلاث سيّارات، فركبت أنا والسلطان والوزير في سيّارة، وشقيقه الأمير أحمد وابنه الأمير فضل سيّارة، والأمير محمد وابن الوزير في سيّارة وسرنا إلى بيت الوجيه مولانا محمد عبد الله حسنعلي في مدينة عدن العربية[1]، فوافيناه على الساعة العاشرة، فألفينا ثلّة من العساكر على الباب لتأدية شعائر الاحترام للسلطان. ولما حانت ساعة الغداء مُدّ لنا سماط على الطراز الشرقي فيه كل ما غلا وحلا مما رقّ مذاقه وطعمه. وفي المساء عاد عظمة السلطان إلى الحوطة، وبقيت أنا ماكثاً في البيت في مكان

(1) كان الشيخ عبد العزيز الثعالبي عند مروره من عدن يقيم دائماً في بيت السيد محمد عبد الله حسنعلي، وكانت جميع رسائله، ومنها الرسالة التي وصف فيها رحلته إلى اليمن، تحمل عنوان السيد حسنعلي بعدن.

منفرد أعدّوه من قبل لنزولي.

[مناقشة البرنامج والموافقة عليه]:

وفي يوم الخميس 16 أكتوبر عاد السيد حسين بن حامد المحضار من يافع ونزل ضيفاً على الشيخ قاسم باشا رحيل. وفي المساء دعاني للقائه فذهبت إليه ومكثت معه نحو 4 ساعات ولم أرد مفاتحته في شيء، وسلطان لحج غائب، ثم فارقته، وتواعدنا على أن يزورني غداً ليلاً في البيت.

وفي عصر يوم الجمعة 17 منه أرسل إليّ سلطان لحج سيّارته الخاصّة عليها الصديق الأمير صالح حاكم مقاطعة دار الأمير يدعوني إلى حضور اجتماع خاصّ سيُعقد في المكان. فركبت وبعد ساعة كنّا في القصر، فألفيت السلطان والسيد حسين والسيد الجفري في انتظاري. وبمجرّد ما وصلت عقدنا اجتماعاً، فعرضت أوّلاً الدعوة إلى المؤتمر، فتقرّر قبولها مبدئيّاً بلا خلاف، ثم قمنا إلى المائدة فتناولنا العشاء. وبعد الانتهاء عدنا إلى الغرفة الخاصّة، فعرضنا البرنامج الذي سيتقدّم به الأمراء القحطانيّون إلى المؤتمر. فتلاه الأمير صالح بنداً بنداً، وبعد ذلك عارض في تقديمه السيد حسين والأمير صالح وقدّما الاقتراح التالي:

«خيرٌ لنا من كلّ هذا أن نقتصر في أوّل مؤتمر في القسم المتعلّق بالنظام الأساسي للحكومة، على المطالبة بتوحيد التعليم وتعميمه، وحينما يتوفّر لدينا عدد المتعلّمين يمكننا أن نستأنف عرض بقيّة البرنامج. أما عرضه الآن برمّته، وليس في البلد كفاءات فليس له في نظرنا أيّ معنى غير قصد التعجيز». فردّ عليهما السلطان قائلاً: «إنّ المطالبة بتعميم التعليم ونشره هو كما قلتما من مسائل البرنامج، وتحقيق الكفاءات لا يتمّ بالتعليم وحده، بل يكون بهيئة وسائل العمل وإيجاد القابليّة في النفوس وتحريضها على السعي، وذلك لا يتحقّق على وجه القطع كما هو ثابت بالتجربة إلاّ بوضع برنامج واسع يتّسع لكلّ شيء، وبرنامجنا غير قابل للتجزئة».

فرجع المخالفان عن رأيهما وقرّرا موافقتهما على عرضه على المؤتمر مع الاكتفاء بقبول البعض دون البعض إذ فيه اقتراحات كثيرة منافية للفكرة الزيديّة، مثل مسألة ولاية العهد وجعلها وراثيّة في صلب معيّن، مع أن الولاية لا تصحّ عندهم إلاّ بعد تحقّق الكفاءة، وهي لا تثبت إلا مع وجود العلم والاجتهاد والشجاعة وسلامة الحواسّ، أمّا الوراثة فليست كذلك.

فردّ السلطان قائلاً:

«أنا مستعدّ لمناقشة كلّ معارضة تبدو من قِبَل علماء الزيديّة وإقناعهم بأن البرنامج لا يتنافى مع أصول أيّ مذهب كان. وما دمتما موافقَيْن لنا على أن المطالب ضروريّة لمستقبل اليمن، فلا داعي للنظر في تقسيمها من الآن بحسب قابليّة الزمن أو المكان، فكما قلت لكما إنّني كفيل بالدفاع عنها، فإنني كفيل أيضاً بعدم تجزئتها وجعل قابليّة الزمن تتمدّد حتى تتّسع لها جميعها من غير بتر ولا اقتضاب».

فوافقاه على المطالب وعلى عرضها في المؤتمر باسم أمراء البلاد[1]. وتقرّر أيضاً أن يكتب إلى الإمام كلّ أمير مدعوّ بأنه تلقّى الدعوة بسرور وأنّه سيشترك في المؤتمر وسيرسل مندوبيه إلى صنعاء لحضور المؤتمر، وستكون بأيديهم كافّة المستندات التي تثبت نيابتهم الشرعيّة[2].

(1) انظر برنامج الأمراء القحطانيين في الفصل الثاني.

(2) كتب محمد علي طاهر عن محاولات توحيد اليمن في جريدة «الشرق» البيروتيّة بتاريخ 11/14/1961، ما يلي:

«يتكوّن الجنوب العربي من محميّة عدن وحضرموت والإمارات والسلطنات التي جعلها الإنجليز فيدراليّة واحدة مرتبطة كلّها بعدن.

وقد كان سكّان الجنوب يؤمنون بالوحدة اليمنيّة إلى أن خذلت حكومة اليمن الأمير علي عبد الكريم سلطان لحج، بعدما وعدته وعوداً صدّقها وجعلته يقاوم الإنجليز جهرة.- فلما خلعوه وشرّدوه وتخلّت عنه حكومة اليمن ولم تمدّه بشيء لا بالسلاح ولا بالمال».

ثم افترقنا وقد أخذ منّي السيد حسين موثقاً على أن أحضر إلى المكلا بعد رجوعي من العراق. وقد ودّعت السلطان ووزيره والأمير صالح لآخر مرّة وعدت إلى عدن.

وفي اليوم التالي سافرت إلى الهند[1] وهذا آخر ما أقصّه عليكم من أنباء السياحة اليمنية.

أسأل الله أن ينفع بها ويجعلها
خالصة لوجهه الكريم
انتهى

(1) من الملاحظ أنّ رسالة الثعالبي المُوَجَّهة إلى محمّد المنصف المنستيري مؤرّخة في 11 أكتوبر 1924، ويشير المؤلّف في آخرها إلى سفره إلى الهند الذي تمّ في 17 أكتوبر. ويُفهَم من ذلك أنّ الثعالبي قد بدأ في تحرير تلك الرسالة يوم 11 أكتوبر وفرغ من تحريرها يوم 17 أكتوبر.

ملحق

نسخة من كتاب الإمام يحيى للأمير عبد العزيز بن سعود أمير نجد يوصيه خيراً بالشيخ عبد العزيز الثعالبي

بسم الله الرحمن الرحيم،

السلطان الأوحد، والرئيس الأمجد، عبد العزيز بن فيصل آل سعود[1]، حفّه الله بتوفيقه الكافل بحسن الصعود. وشريف السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. صدورها عن أحوال صالحة، وأخبار لصدور المؤمنين شارحة، واعتصام بربّ المُلْك، وثقة بناشر السحاب ومُجْري الفُلْك. برفقة السيد العالم الفاضل عبد العزيز الثعالبي التونسي. فإنّه وصل إلينا زائراً واستمدّ منّا هذه النميقة إلى سموّكم، فهو مزمع إلى الوصول إليكم. وهو للأحوال الحاضرة الناقد البصير، ولا ينبئك مثل خبير. وسلّموا على والدكم وأنجالكم وشريف السلام حرّر لتاريخه 19 صفر 1343 هـ [سبتمبر 1924 م].

(1) بل هو عبد العزيز بن عبد الرحمان بن فيصل آل سعود أو ابن السعود.

كتاب الشيخ إسماعيل باسلامة عامل آب
إلى وزير سلطنة لحج السيد علوي الجفري

بسم الله الرحمن الرحيم،

المولى الأجلّ الأوحد ذو المجد الأثيل، والفخر العريض الطويل، ضياء الدين، ونخبة الآل الأكرمين، سيّدي علوي بن محسن الجفري حفظه الله تعالى وزاده خيراً وكمالاً، ومهابة وجلالاً. وشريف السلام عليه ورحمة الله وبركاته وتحيّاته الواسعة ومرضاته. وصلّى الله وسلم على سيّدنا محمّد وآله وصحبه. صدورها بعد أن تشرّف المملوك بمسطوركم الكريم وخطابكم الفخيم بيد حضرة العلاّمة الكامل واللوذعي الفاضل عبد العزيز الثعالبي حرسه الله الذي ازدهت بقدومه بلادنا، وارتاحت سروراً به أرواحنا. ولقد وجدناه ممّن يعزّ له النظير ويقصر عن وصفه التعبير.

هذا وإنّ المملوك لم يقصّر في القيام بواجب الاحتفال والاحترام للسيّد وإيضاح أحواله وبيان حسن مقاصده والحثّ على معرفة قدره. وقد فعلت ذلك بالقول والكتابة، وإذا ظهر منّا بعض قصور، فعفوكم وعفو السيّد أشمل وأوسع.

هذا وقد توعّك مزاج السيّد في صنعاء من أتعاب السفر ومشقّة الصعود والنزول في الجبال الشاهقة وهو غير متعوّد على ركوب الدوابّ، فناله بسبب ذلك تأثير يسير لكنّه لم يؤثّر بهمّته السامية. ولا شكّ أنّ له في هذا التعب وحسن المقصد المثوبة الوافرة من الله والإعانة والحماية. نسأله الله تعالى أن يوفّقنا جميعاً لما يُرضيه. تحريراً في 27 صفر 343 هـ.

خلاصة الرحلة اليمنيّة

رسالة من الثعالبي إلى المجاهد العربي الكبير[1]
المرحوم محمّد علي الطاهر (1894 ـ 1974)
صاحب جريدة الشورى

(1) وُلِدَ محمد علي الطاهر في نابلس سنة 1894 وكرّس حياته لخدمة قضايا العروبة والإسلام. قد أُجْبِر إثر انتصاب الانتداب البريطاني على فلسطين، على مغادرة وطنه والهجرة إلى القاهرة حيث أصدر جريدة «الشورى» في 22 أكتوبر 1924 وسخّرها للدفاع عن قضيتيْ فلسطين والشام بصورة خاصّة وعن القضايا العربيّة والإسلاميّة بصورة عامّة. ولمّا أوقفت السلطة «الشورى» عمد إلى إصدارها بعناوين مختلفة، كما نشر عشرات الفصول والمقالات في الصحف العربيّة، وقد جُمِعَت مختارات منها في كتاب صدر بعد وفاته بعنوان «خمسون عاماً في القضايا العربيّة».

وأثناء الحرب العالمية الثانية عمدت السلطة البريطانية إلى اعتقال محمد علي الطاهر الذي بادر صديقه النحاس باشا إلى إطلاق سبيله لما باشر رئاسة الحكومة المصريّة في سنة 1942. وفي آخر الأمر غادر محمد علي الطاهر مصر إلى بيروت واستقرّ بها إلى آخر حياته.

وقد اهتمّ ـ سواء في القاهرة أو في بيروت ـ اهتماماً خاصّاً بالحركات التحريريّة في المغرب العربي وربط علاقات وثيقة بالشيخ عبد العزيز الثعالبي ثم بالزعيم الحبيب بورقيبة، وجعل من نادي الشورى في القاهرة نادياً يؤمّه المجاهدون الأحرار من كل قطر من الأقطار العالم العربي والإسلامي الرازحة تحت نير الاستثمار. وقد أدركته المنيّة يوم 22 أغسطس 1974.

عدن في 6 أكتوبر 1924،

صديقي النابغة المحترم سيّدي محمد علي أفندي الطاهر

سلام واحترام وتكريم وتحيّة،

وبعد فقد وصلني كتابك، وصل الله حبلك بمن تودّ. وإنّي لمسرورٌ جدّ السرور بنشاطك وعافيتك واستمرارك في جهادك الشريف للقضيّة العربيّة، وقد أضلّها أهلها وأهملها المستفيدون منها. جُبْتُ ثلاثة أقطار عربيّة [الحجاز واليمن وسلطنة لحج] في هذه الرحلة، وكلّما أُبْتُ يائساً من قطر أمنّي النفس وأحدّثها بأنّني سألقى الربيع والكمال في القطر الآخر، فلا أكاد أصله حتى أرتدّ عنه كليل الطرف ويعاودني اليأس فأعود إلى قرعه بعصا الأماني ولا أدري أيّها الصديق من أين أتتنا هذه الثروة الكبيرة، ثروة الأماني التي لم تنفد بهذا التبذير والإنفاق، وقد حاولت كثيراً تعليل عدم نفادها فخانني الذكاء ولم تلهمني الفلسفة إلى وجه مرضي يقبله العقل ويسلّمه الذوق، فهل لك أن تلهمني إلى ذكر وجه وجيه؟.

أُبْتُ البارحة من اليمن ولم أتّصل بكتابك إلاّ بعد ثوائي بلحج، والكتب والجرائد يستحيل وصولها إلى الداخل بسرعة، وأقلّ ما ينبغي لها شهران. ومن يُعنَى بها ويهتمّ بإرسالها ويتكبّد النفقات الطائلة عليها، وليس بين الشطوط وبلاد الإمام بريد؟ وإنما البُرْد يسيّرها أصحاب المصالح وينفقون عليها مالاً جزيلاً، وكثيراً ما تضيع أهمّ رسائلهم ولا مسؤوليّة عليها. وهذا أشدّ ما يحزن في اليمن.

ليس في اليمن شيء يسرّ غير الإمام والجيش، إلاّ أنّ وجود كلّ واحد منهما موقوف على الآخر، فإذا فُقِد أحدهما فُقِد الثاني بالتالي، وحينئذ لا يبقى في البلاد شيء غير الفوضى والتلاشي.

والذي يظهر أنّ البلاد العربيّة لم تزل في أخريات بلاد العالم وغير قابلة

لهضم شيء ولا للقيام بأيّ عمل. ومن أين لها القدرة والقوّة على الهضم والعمل؟ وهي غارقة في الجهالة لا تستطيع أن تبصر النّور ولا تعرف من النظام والحكومة غير الخضوع الأعمى لرئيس القبيلة والفناء في ذاته، له أن يغني ويفقر ويعطي ويمنع ويأمر وينهي، وما على سواه إلا السمع والطاعة.

هذه هي الفكرة السائدة في جزيرة العرب، وهذا مبلغ ما وصلوا إليه من العلم بالحياة الاجتماعيّة، فكيف نسوّغ لأنفسنا أن نطلب منهم أن يعملوا بغير ما علموا، أو يفكّروا في أمور لم تخطر على بال؟.

وصلتُ صنعاء يوم الاثنين موفّى أوت [1924]، وفي اليوم التالي تلاقيت مع الإمام فأعجبت له، وهو رجل وافر الذكاء غزير العلم، حاضر الذهن، لا عيب فيه غير كرهه للمدنيّة العصريّة وتجافيه عن نشر التعليم. ومن أعجب العجب أنني أحببتهُ في أوّل اجتماع حبّ إخلاص، ويظهر لي أنّه قد أحبّني أيضاً، حتى كأنّنا تآلفت نفوسنا من عهد الحداثة، ونشأنا متآلفَيْن متحالفَيْن، وقد استمرّ هذا الاجتماع نحو 4 ساعات ثم افترقنا على أن نلتقي غدا لنتمّم أبحاثنا المفيدة اللّذيذة.

مرضتُ من الغد وتمادت بي العلّة حتى خيف عليّ واعتقد الأطبّاء أنّها القاضية. أمّا أنا فقد كنت لا أدرك شيئاً لأنّني لا أعي. وأظهر الإمام من العناية بي ما يقلّ في جانبها الإطراء والشكر. فقد جرّد لمقاومة عللي كلّ ما لديه من الأطبّاء القادرين، ولبثوا أيّاماً يوالون عقد الاجتماعات في بيتي للمداولة في أمر تمريضي وإنقاذي ثلاث مرّات في كلّ يوم إلى أن أذن الله بالشفاء، فبدل أن أخرج إلى المقبرة خرجت إلى الميدان يوم 11 سبتمبر والعلّة لم تزل ناشبة بي، لكنّني غالبتها حتى غلبتها. وواليت الاجتماعات بالإمام وتفاهمنا في أمور كثيرة، وإذا نُفِّذَ شيء منها يكون قد سعى حقيقة في إنقاذ اليمن وتحريره من الاعتساف والفوضى.

إن للإمام ذاتيّة قويّة وشخصيّة بارزة مهابة في اليمن، لا يُخْشَى من وجود

ثائر يثور عليه وهو بقيد الحياة[1]. لكن الإمام سيموت وبعد موته يتشاقق الناس وتهبّ فتن الانقسام في اليمن وتعمّ الفوضى، وإذ ذاك ينشب فيه الطامعون مخالبهم. أمّا إذا أسرع لإيجاد حكومة منظّمة وجعل نظاماً خاصّاً للوراثة أو الاختيار والانتخاب للإمامة على مقتضى الأصول الزيديّة، فإنّ حالة البلاد تنتظم، وتهدأ الأفكار، وتنتقل القوّة والهيبة من شخصيّة الإمام البارزة إلى الذاتيّة المعنويّة التي للحكومة، وسلامة اليمن تتحقّق بإذن الله. وانتظام أمور اليمن وتأليف وحدته ممّا يسهّل تكوين وإيجاد الوحدة العربيّة، لأنّ بلاد اليمن أغنى وأقوى بلاد العرب، فإنّ سكّانها حسب الإحصاء الذي أجري في عهد ولاية المغفور له حسين حلمي باشا الصدر الأسبق للدولة العثمانية يبلغون خمسة ملايين.

هذه فذلكة مختصرة من أفكاري وبرنامج إصلاحي لليمن الذي عرضته على الإمام وأظنّه قد قبله ووعد بتنفيذه[2]، عرضتها عليك لترى فيها رأيك؟.

وبعد أن أنهيت عملي صمّمت على السفر واتّفقت مع الأطبّاء على تأكيد القول بصحّتي وسلامتي للإمام، حتى لا يمانع في سفري. وفعلاً فقد علّق الأمر على تقرير الأطبّاء شهدوا له بأن شفائي التامّ لا يتحقّق إلا على شواطىء البحار. وبسبب ذلك تنازل وأذن لي بالسفر، ولولا شهادة الأطبّاء لما أمكن خروجي من اليمن. وأنا لو بقيت هناك عشرة أيّام أخرى، يستحيل أن أعيش. فقد ثقلت عليّ الإقامة في اليمن وصنعاء بالأخصّ بصورة لا تطاق، وما كنت أصدّق بالنجاة حتى خرجت منها، فعدت من الطريق الذي أقبلت منه، وقد كانت المدن التي أنزلها في رأس كلّ مرحلة تحتفل باستقبالي كما يُستقبَل الملوك. فقد كانوا يرسلون العساكر والوجهاء والموظّفين إلى خارج كلّ مدينة، ومتى أقبلتُ يلتقون

(1) خلافاً لما توقّعه الثعالبي فقد اندلعت الثورة ضدّ الإمام يحيى سنة 1948 وأودت بحياته.

(2) يبدو أنّ هذا البرنامج الإصلاحي لم يتمّ تنفيذه، حيث بقيت البلاد اليمنية مُقسّمة، ولم يتمّ توحيدها إلاّ في سنة 1990، كما أسلفنا.

حولي ويسيرون بنظام بين أسلحة العساكر يهتفون بأناشيدهم الوطنيّة. وقع ذلك في ذمار، وفي وعلان، وفي آب والسياني وماوية. وعند وصولي ينزلونني دار الحكومة ويُجري استقبال يُقدَّم لي فيه الموظّفون والوجاه، ومن الغد أُودَّع بنفس الطريقة التي استُقبِلْتُ فيها.

وهذا أقلّ ما أذكر لكم من صنوف تكريم الإمام وحسن رعايته وتقديره لي في هذه الرحلة. وفوق ذلك فإنّه كان يرسل التلغرافات إلى كلّ جهة أصل إليها يستفهم بها عن صحّتي، وهكذا إلى أن خرجت من حدود اليمن. صحّتي جيّدة وسأسافر إلى نجد ثم إلى العراق.

بلّغ سلامي وأشواقي إلى سماحة السيد البكري وسماحة الإمام الكبير الشيخ بخيت وسعادة الصديق الكامل زكيّ باشا والأستاذ الكامل الشيخ الزنكلوني وإلى الأصدقاء كافّة.

عبد العزيز الثعالبي

رسالة ثانية من الثعالبي
إلى محمد علي الطاهر

عدن يوم الأربعاء 14 أكتوبر 1924

صديقي الأكرم العزيز محمّد علي أفندي الطاهر المحترم أعزّه الله،

سلامي عليكم بقدر الشوق إليكم، وسؤالي عنكم. وبعد فقد أطلعني الصديق الوفيّ مولانا محمد عبد الله حسنعلي التاجر الكبير في عدن على رسالة وردت إليه من طرفكم يوم الاثنين 12 الجاري متضمّنة شدّة اهتمامكم بشخصي وتشوّقكم للوقوف على أنبائي، شأن الصديق مع الصديق والأخ مع أخيه. ولا أكتمك فإنّ عنايتك بي مع بعدي عنك دلّتني على مقدار ما يكنّه لي صدرك الطاهر النقيّ من الودّ والإخلاص. وحسبي من هذه الرحلة أن أظفر برجل مثلك يتوقّد غيرة وإخلاصاً، وإنه ليحقّ لي أن أهنّىء بك نفسي دون من عرفتهم من النّاس. فقد عرفت يا صديقي كثيرين من أصحاب القلوب أحبّوني وأحببتهم حتى صار حبّنا شغفاً، ولكن لا أستطيع أن أتثبّت إن كان يوجد بيننا كلّنا ما في قلبك وحدك من الإخلاص لي والفناء في شخصي، ولا غرو فأنت كنز الوفاء والولاء.

بعثت إليك بتحرير مؤرّخ باليوم السادس من الجاري مع أوّل بريد قام من عدن إثر رجوعي من اليمن نفضت كل فيه بجملة الحال حرصاً على إفادتك بأخباري وما وقفت عليه من المشاهدات والاستطلاعات، ولا أدري إن كنتُ

وفيْتُ لك بالنصيب الذي سألتنيه، أم قصّرت. فأرجو منك إذا كان كتابي السالف غير مُوفٍ بمرامك أن تكاتبني بما تريد، فإنّك ستجدني رهن الأمر، ولك عليّ المنّة والفضل. . .

. . . ضاقت نفسي من الإقامة في عدن مع أنّني مستريح مرعيّ الخاطر محفوظ الكرامة في بيت الأخوة الأصفياء حسنعلي، ولكن لم يكن لي فيها أرب، فكلّ نعيم وراحة أجدهما فيها يستحيلان إلى جحيم، أسأل الله أن يعجّل خروجي منها. والسّبب في ذلك أنّ البواخر المسافرة إلى الهند تأتي كلّها ملئى بالرّكاب حتى التي رضيت أن أسافر فيها ولو في الدرجة الثالثة فلم أتمكّن. وإني أنتظر الباخرة جهانكير القادمة من جدّة يوم 17 الجاري، فإذا وجدت بها محلاً سافرت وإلاّ بقيت كئيباً أنتظر وابور [باخرة] البريد الهندي الذي يبحر من هنا يوم 20 الجاري، ولا أظنّني أمكث في مومبي أيّاماً كثيرة، بل سأبحر إلى عُمَان على طريق الخليج الفارسي وسأركب باخرة نقّالة حتى أتمكّن من النزول في كافّة مدن الخليج: كراتشي، لنجة، بندر عبّاس، بوشير، البحرين، ثم الرياض. وبعد الإقامة بها أيّاماً أعود على طريق الإحساء إلى البصرة فالمحمرة فالكويت ثم أعود إلى البصرة ومنها إلى دار السّلام [بغداد].

هذا برنامج رحلتي سطّرته لكم وسأوافيكم برسائلي عن كلّ جهة من مراكز البريد. وختاماً أرجو منكم أن تتكرّموا وتتفضّلوا بتبليغ أشواقي وتحيّاتي الكريمة للصديق الهمام زكيّ باشا والسيد أحمد أبو السعود وأبنائه والسيد محمّد أبو النصر وسماحة السيد عبد الحميد البكري والأستاذ الكبير الشيخ بخيت ومولاي الأستاذ الزنكلوني والشيخ علي شقرون ومحجوب أفندي الشريف والأساتذة الشيخ عبد ربّه مفتاح والشيخ عبد الباقي مسرور والسيد رشيد رضا والسيد بك كامل ونسيم أفندي أصيبعة وأمين بك واصف والدكتور محجوب بك ثابت وكلّ صديق لكم لأنّهم أصدقائي أيضاً.

كاتبني دائماً بعنوان حسنعلي وقل للإخوان الذين يريدون مراسلتي

يكاتبونني به أيضاً، فإن الكتب على طريقهم تصلني أينما كنت وأسائلك بالمودّة أن تذهب خصّيصاً إلى مكتب الصديق الجليل عبد الغني بك سليم عبده وتبلّغ إليه عظيم أشواقي وسلامي.

وتقبّل في النهاية

تقدير واحترام محبّك الوفيّ المخلص:

عبد العزيز الثعالبي

انطباع الشيخ عبد العزيز الثعالبي عن رحلته إلى اليمن

لقد تحدّث الثعالبي عن رحلته إلى اليمن في عدّة فصول نشرها في جريدة «الشورى» لصاحبها محمد علي الطاهر[1]. فأشار أوّلاً إلى خصوبة الأرض وازدهار الزراعة في تلك الربوع، قائلاً بالخصوص:

«لقد قرأت ما كتبه المتقدّمون من رومان ويونان في وصف اليمن، وما كنت أحسب عند سفري إليها أنّني سأرى فيها أوروبا، فإنّ البلاد كلها تشقّها جبال مكسوّة بالأحراش تتخلّلها الزهور العطرة. فالجوّ دائماً معطّر بعبير الياسمين، وهناك حيث السماء الصافية والنجوم المتألّقة والأرض المزهرة تجود عبقرية الشاعر. وهناك حقول شاسعة للزراعة منسّقة أحسن تنسيق تزرع فيها الحبوب بأنواعها المعروفة في بلادنا والدُّخن والنيلة والقطن والبنّ والقات (وهو نبات مخدّر). وقد لاحظت رقيّ الزراعة في تلك البلاد، فالحرث متقن والتنقية دقيقة حتى أنك لا تجيء على عشبة في الأرض. والأرض ذات خصب كبير وكثيراً ما يبلغ طول عدد الذرة ثلاثة أمتار، حتى أن القافلة لو دخلت مزرعة ذرة لحجبتها عن الأنظار. وممّا يذكر أن البعض يزرع مرّة ويحصد ثلاث مرّات، مثل أرض لحج، وهي كثيرة الأمطار وجبالها مرتفعة. ومن يطوف اليمن يعتقد أنها ذات مدنيّة عريقة وليست بلاد بداوة ويرى أنّها تجمع بقايا مدنيّات درست، وقد كنت

(1) انظر مقتطفات من هذه الفصول في كتاب الأستاذة مسعودة بو الخضرة «الشيخ عبد العزيز الثعالبي ودوره في الإصلاح الإسلامي»، ص 132 وما بعدها.

أرى القصور الشاهقة ذات الهندسة العجيبة منتشرة في مركز متصرّفية الحدود إلى مدينة صنعاء، ولم أقع في طريقي على بيوت الشعر أو الخصاص التي كنت أراها في الحجاز والعراق أحياناً»[1].

كما لم يُخفِ الثعالبي إعجابه بالإمام يحيى «الذي استطاع أن يحفظ الأمن والنظام حتى أصبح في ميسور كلّ إنسان أن يقطع البلاد من أقصاها إلى أقصاها في أيّ وقت دون أن يخشى خطراً أو يقع له حادث»[2].

«وكان الإمام لا يتحرّج في أخذ النصوص من بقيّة المذاهب الإسلاميّة الأخرى، ما دام فيها رقيّ وفائدة بلاده، لأنه مجتهد، ويحقّ له أن يدخل في المذهب وفي سياسة الدولة ما يراه لازماً، لأنّ أكبر مسألة شغلت باله كانت تتمثّل في إصلاح اليمن بصورة لا تجعله في المستقبل هدفاً للمطامع الأجنبيّة»[3].

وفي الوقت الذي يؤكّد فيه الثعالبي «أنّه لا يوجد في اليمن شيء آخر غير شخصيّة الإمام يحيى والمناظر الطبيعيّة وخصبة التربة، وأنّه لن يبقى شيء بعد موته غير الاختلال والفوضى»، يشير إلى أنّ «ما تنتجه أيدي اليمنيّين في الصناعة والزراعة والنحت والتعمير والغزل والنسج ودبغ الجلود وصقل الحجارة الكريمة والنقش عليها والريّ واستنبات شجرة البنّ والفواكه... يدلّ بداهة على أنّهم ورثة مدنيّات فاخرة، قد تسامي مدنيّة العصر الحديثة من جهتها العلميّة، وكفاية أنّنا لا نجد بينهم أثراً للبداوة أو حياة الترحّلين..».

«... إلاّ أنّ ذلك يستدعي مواكبة النظام السياسي لهذه النّهضة، بما يضمن الأمن والاستقرار بعد وفاة الإمام يحيى حتى لا يظهر الانقسام ويتسابق الطامعون من الأجانب لنشب مخاليهم في البلاد، خاصّة أنّ هناك في اليمن

(1) جريدة الشورى، 28 مايو 1926.
(2) نفس المرجع.
(3) الشورى، 4 نوفمبر 1924.

رؤوساً متطلّعة للفتنة ستظهر بعد موته وتعمل على نشر الفوضى. فيتعين على الإمام حينئذ أن يتدارك الأمر فيبادر في حياته إلى إيجاد حكومة وطنيّة منظّمة قادرة على حفظ البلاد ووقايتها من الأخطار، مع البتّ في نظام الوراثة والانتخاب بشأن الخلف، لأنّها من أهمّ الوسائل التي تضمن سلامة اليمن. فلو ترك الأمر للصدف والاختيار ورضى الفقهاء ومشايخ الزيديّة، فإنه يجعل البلاد في حالة انقسام وتنازع بين الرؤوس وأصحاب الكلمة النافذة للطامعين في الإمامة».

«هذا وإنّ الغرض من كلّ هذه التدابير إحلال شخصيّة معنويّة لإدارة البلاد، تعوّض القوّة الخاصّة التي يتمتّع بها الإمام يحيى، فتتحوّل القوّة الرهيبة الماثلة في شخصيّته الذاتية المعنوية لفائدة الحكومة الوطنيّة. وفضلاً عن كون هذا الحلّ يحفظ لليمن الاستقرار والاستقلال، فإنّه يسهّل على بقيّة الأمم العربيّة السعي في تكوين وحدتها القوميّة حول دولة اليمن».

وتحقيقاً لهذه الغاية سعى الشيخ الثعالبي إلى عقد مؤتمر يمني عام برعاية الإمام يحيى لتركيز أسس الوحدة اليمنية المنشودة وقد تمكّن خلال رحلته إلى اليمن من 13 أغسطس إلى 6 أكتوبر 1924 من إقناع كافّة الأطراف بحضور هذا المؤتمر. يقول حول هذا الموضوع ما يلي:

«تحادثت مع كثيرين من أقيال اليمن وأصحاب السلطات في تلك الأطراف، وكلّهم قبلوا الفكرة مبدئيّاً، ولكن نقطة الخلاف على ما يظهر لي كانت أنهم يريدون أن يتّفقوا مع اليمن في السياسة الخارجيّة والدفاع عن البلاد، لكنّهم يريدون أن يبقى لهم استقلالهم الداخلي. وبعبارة أخرى، يريدون إيجاد نظام «اتّحادي» بشرط أن تستقرّ حكومة اليمن ويستقرّ التعاون مع نظامها السياسي في شكل دستوري يضمن لكلّ البلاد حقوقها»[1].

(1) الشورى، 28 ماي 1926.

الفصـل الثانـي

الدعوة إلى عقد
مؤتمر يمنـيّ عامّ

نسخة من كتاب مرسل
من الإمام يحيى إمام اليمن
إلى السلطان عبد الكريم صاحب إمارة لحج

بسم الله الرحمن الرحيم،

الرئيس الخطير، والسلطان الشهير، الوجيه عبد الكريم بن فضل دام توفيقه، وجعل الفوز في كلّ الحالات رفيقه. وشريف السلام التامّ ورحمة الله وبركاته صدورها عن أحوال صالحة بمنّ الله، وإنه وصل إلينا السيّد العلاّمة الأجلّ عبد العزيز الثعالبي فرأينا منه نعم الرجل وفي الزوايا خبايا، زاد الله في الأماثل من أمثاله.

وقد كانت المراجعة معه بعد أن عرض علينا ما دار بينكم وبينه من المراجعات وما استصوبتموه معه فهو حسن جداً وممّا ينبغي عقده، وذلك ما كنّا نبغي ومثلكم ومثل السيد عبد العزيز ممّن عرف الحقائق وعرف أن اللّيالي من الزمان حبالى وما تطمح إليه أنظار الأجانب، وما عليه العرب من التنازع والتجاذب، وما يخاف منه وما هي الذريعة الممكنة لرفع تلكم الأخطار.

فقد قرّرنا تحرير الدعوة إلى ذلك في الكتب الصادرة إليكم بلفّ هذا. فلتكن المراجعة بينكم وبين السيد عبد العزيز بخصوص تبليغ تلكم الكتب وما يلزم لإكمال هذا الغرض وإرسال الجوابات إلينا.

والسلام عليكم. حُرِّر بتاريخه 19 شهر صفر 1343هـ [سبتمبر 1924 م].

وبين البسملة والكتابة علامة الختم الشريف
كتابة أمير المؤمنين المتوكّل على ربّ العالمين الخ

صورة كتاب مرسل من الامام
يحيى امام اليمن الى السلطان عبد الكريم
صاحب امارة لحج [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

الى رئيس الحكومة والسلطان الشهير الوجيه عبد الكريم [illegible]
[illegible] السلام [illegible] ورحمة الله وبركاته
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible] المراجعة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

حرر بتاريخ ١٦ شهر صفر الخير ١٣٤٣
[illegible]
كتبه امير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين

صورة كتاب مرسل من الإمام

بسم الله الرحمن الرحيم

ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ وأنت خير الفاتحين.
ربّنا عليك توكّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

الـدعـوة[1]

إلى عقد مؤتمر يمنيّ عامّ

بني وطني الأعزاء. وبينكم كلّ شهم مغوار أبيّ من سلاطين وأمراء ومشايخ وأشراف مخاليف اليمن الذين لم ينضمّوا للوحدة القوميّة اليمنيّة المشكّلة تحت رئاسة دولتنا الإماميّة القائمة بنصر الله، وفّقنا الله وإيّاهم لما يحبّه ويرضاه.

أمّا بعد، فقد بدا لنظرنا الشريف الموفّق بالله أنّ تحقيق سلامة واستقامة وحفظ بلادنا اليمنيّة الميمونة تتوقّف على صدق إيماننا، وقوّة عقائدنا، ومضاء عزائمنا، وصفاء أرواحنا، وسلامة قلوبنا. وأنا مع خبرتي الطويلة لدقائق أحوال البلاد تجدني جازماً بحمد الله بتأصّل هذه القوّات المعنويّة فينا وبها نصرنا الله في مواقف كثيرة، ولكن يوجد قليلون لا يؤمنون بها والسبب في ذلك انحياشهم عنّا وانكماشهم في البيئات التي اتّخذوها لأنفسهم حتى صاروا في معزل عن الحركة القائمة في اليمن. فهم لا يشعرون بسريان تلك القوّات العتيدة الرهيبة في نفوسهم كما يشعر بها بقيّة سكّان الجهات الراضخة لأحكامنا.

(1) نصّ المشروع الأوّل كما حرّره الشيخ الثعالبي.

لذلك لا يُخشى على بلادنا إلاّ من الجهات النائية عنّا، وهي بلاد الثغور.
فإذا لم تتنمّر مثل بقيّة البلاد عن احتمال كلّ سلطة أجنبيّة غير شرعيّة، ربّما تطرّق إلينا منها العدوّ فيتّخذها مهبطاً لدسائسه ومكمناً لطلائعه، فتصير بلادنا معرضاً للغزو والفتح، وهي آخر ما بقي مستقلاً من معاقل الإسلام الحصينة.

نحن الأمّة الأمينة على التنزيل التي عاهدت الله على الجهاد وإعلاء كلمة الحقّ، لن نقبل أبداً تجزئة بلادنا وأن يكون لغيرنا أقلّ حظّ فيها، فضلاً عن أن نرضى بأن نكون مغزوّين ومفتوحين ويصبح أبناؤنا يعيشون فوق أديم أجدادنا غرباء مستضعفين يستطعمون الدخلاء في بلادهم فيطردونهم ثم يطاردونهم إلى أن ينقرض نسلهم كما حصل ذلك بالفعل لهنود أمريكا وأستراليا ومسلمي الجزائر ولنا في ذلك عبرة.

إنّ الفخاخ والمكايد التي نُصِبت من قبل للبلاد الإسلامية مثل تونس ومصر والمغرب الأقصى وسوريا والعراق وفلسطين والهند وجاوة والجزائر، فوقعت فيها، هي نفسها قد نُصِبت اليوم حول ثغور اليمن والصيّادون الكائدون محدقون بنا من كلّ مكان ينتظرون منا الغرّة.

فهل يحسن بنا والحالة هذه، معاشر أهل اليمن، أن نبقى متقاطعين متدابرين ونترك الفرصة للعدوّ يعمل فيها بنا ما عمله في غيرنا؟.

لا أعتقد ولا أتوهّم أنه يوجد فوق أرض اليمن رجل واحد يقبل على نفسه أن يرى تراب بلاده العزيزة موطوءاً بقدم أجنبي وهو ينعم بالحياة.

لهذا وأمثاله أدعوكم أيها الإخوان في الله بدعاية الله ورسوله إلى حضور مؤتمر عامّ سينعقد في غرّة رجب الأصبّ الآتي تحت رئاستنا في مدينة صنعاء عاصمة اليمن للبحث والنظر فيما يصلح به أمر اليمن في المستقبل وتستقيم أحواله السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة بعد أن نكون قد مهّدنا له سبيل الوفاق، وأزلنا من بين عناصره كلّ شغب وشقاق، وضمنّا له بقوّة اتّحادنا

الاستقلال التامّ والقوّة والعزّة والمنعة.

لذلك يجب على حضرتكم إثر اتّصالكم بهذه الدعوة أن تمعنوا فيها وتبعثوا لنا برأيكم في الموضوع وبأسماء الذوات الذين سينوبون عنكم في حضور المؤتمر مع الأوراق المثبتة لاعتمادهم لأنّ المسائل التي ستقرّر في هذا الاجتماع سيكون حكمها حكم المسائل الاجماعيّة والله يتولّى هدايتكم وإعانتكم على ما فيه صلاح أمر هذه الأمّة.

أما المسائل التي أقترح عرضها على المؤتمر فإنّني أراها دائرة حول المطالب الآتية:

أولاً: الاعتراف والتصديق بأنّ بلاد اليمن قطعة واحدة متلاحمة الأجزاء غير قابلة للتقسيم بسائر حدودها الطبيعيّة المعروفة وليس فيها مناطق نفوذ ولا جهة تقبل على نفسها الحماية والوصاية الأجنبيّة.

ثانياً: ليس في اليمن سلطة عليا تستمدّ منها كافّة السلط المسؤولة غير السلطة العامّة المُسْنَدة إلى الإمامة.

وهذه السلطة يجب أن تكون الرمز الأعلى لسائر قوّات البلاد المعنويّة والماديّة تتمثّل فيها الرئاسة الدينيّة والسياسيّة والعسكريّة لها وحدها الحقّ في إعلان الحرب وإبرام الصلح وعقد المعاهدات والمحالفات وعقد الاتّفاقات التجاريّة والاقتصاديّة والبريديّة مع من تشاء من الدول بشرط أن لا يكون ماسّاً بشيء من استقلال اليمن.

ثالثاً: تلتزم السيادة الإماميّة بالمحافظة على الشكل الذي عليه الآن حكومة سلطنة لحج، وحكومة المكلّا والشحر، وحكومة الكثيري...

الدعوة إلى عقد مؤتمر يمنيّ عام[1]

بني وطني. وبينكم كلّ مغوار شهم أبيّ من أمراء وسلاطين ومشايخ وأشراف وحكّام مخاليف اليمن المتخلّفين عن الانضمام للوحدة القوميّة اليمنيّة الإماميّة، وفّقنا الله وإيّاهم لما يحبّه ويرضاه، آمين.

السّلام عليكم ورحمة الله. وبعد فقد بدا لنظرنا المُوفَّق بالله أنّ سلامة واستقامة وحفظ بلادنا اليمن لا تتوقّف إلاّ على صدق نفوسنا وطهارة قلوبنا ومضاء عزائمنا وقوّة إيماننا ورسوخ عقائدنا وأنا جازم بحمد الله أنّ هذه القوّات موفورة فينا ولكنّ انكماشنا عن بعضنا وانعكاف كلّ واحد في محيطه صيّر تلك القوّات العتيدة المُزْهِيَة في حكم العدم وجعل بلادنا مَهَباً للأطماع، وأشدّ ما نخشاه أن يجدوا بين انقسامنا ثغرة يتطرّقون منها إلينا فتصبح بلادنا لا قدّر الله لغيرنا ونمسي فيها ونحن أهلها غرباء عنها كما حصل ذلك لأهالي الممالك الإسلاميّة في مشارق الأرض ومغاربها التي خدعها الأجانب في استقلالها، ولنا في غيرنا ألف موعظة وعبرة.

لهذا وأمثاله دعوتكم بدعاية الله ورسوله إلى حضور مؤتمر عامّ نعقده باسم الله للبحث والنظر فيما يصلح به أمر البلاد اليمنيّة ويستقيم به دينها ويدرّ ضرعها ويخصب زرعها ويرفع عظمتها وينشر بركتها ويصدّ عنها كلّ خطر أجنبي مهما كان مصدره ونوعه. وكلّ ما يتقرّر شيء في هذا الاجتماع يكون حكمه حكم المسائل المُجمَع عليها.

(1) النصّ النهائي بعد التعديلات التي أدخلها عليه الإمام.

أما المسائل التي ينبغي طرحها أمام المؤتمر فينبغي أن تكون أصوليّة ضامنة لسلامة اليمن وهي:

أوّلاً: قبل كلّ شيء الاعتراف والتصديق بأنّ بلاد اليمن واحدة غير قابلة للتجزئة بحدودها الطبيعيّة التي كانت لها قبل الإسلام وبعده وليس فيها مناطق نفوذ لأيّ دولة من الدول مهما كان جنسها وشكلها ونوعها.

ثانياً: الاعتراف بالسيادة الإماميّة على كلّ جزء من أجزاء بلاد اليمن. ويجب أن تكون الإمامة الرمز الأعلى لقوّات البلاد الدينيّة والسياسيّة والعسكريّة، بيدها إعلان الحرب وإبرام الصلح وعقد الاتفاقات التجاريّة والاقتصاديّة والبريديّة والمواصلات وغير ذلك ممّا يدعو لإيجاد صلة بين اليمن وغيره.

ثالثاً: تعترف السيادة الإماميّة باحترام الشكل الإداري الممتاز لكلّ قطعة من البلاد اليمنيّة مثل لحج والمكلّا والشحر وحضرموت... وأن تكون الولاية موروثة في نصابها المقرّر وأن تتكفّل بحماية الأمراء من كلّ اعتداء بشرط أن يكون القضاء واحداً وأن لا يقع تعيين القضاة إلاّ من طرف الإمامة.

رابعاً: يجب أن تكون قوّات البلاد اليمنيّة كلّها، سواء كانت ممتازة أو غيرها، متحفّزة لصدّ كلّ غارة أجنبيّة تقع عليها من الخارج. وكلّ أذى يقع على أيّ ناحية من البلاد اليمنيّة يُعتَبَر كأنّه واقع عليها جميعاً. لذلك يجب عليها أن تنهض جميعاً لرفع الأذى، لتتحقّق بذلك أمام العالم نهضة واتّحاد اليمن.

خامساً: تأسيس لجنة دائمة مؤلّفة من أعضاء يختارهم أمراء البلاد الممتازة، وأعضاء يختارهم الإمام، للنّظر في حقوق ومطالب ومصالح الجهات الممتازة، وإذا حصل خلاف تنظر فيه.

برنامج إصلاح نظام الحكم في اليمن[1]

الصّفة التي يتحقّق بها وجود الدّولة:

إنّ الصكوك والمعاهدات والالتزامات السياسيّة من أيّ نوع، سواء أكانت من قبيل الاتّفاقات الداخليّة التي تلحم العناصر المتجانسة ببعضها، أو التي توجب حقّاً من الحقوق العامّة المعروفة اليوم بين الدول والأمم، لا يمكن عقدها مع الأفراد الذين لا يمثّلون إلاّ أنفسهم، مهما كانت ألقابهم ونعوتهم وصفاتهم ومراكزهم، بل إنّها لا تُعقَد ولا تُبرَم إلاّ مع أفراد يمثّلون في أشخاصهم هيئة رسميّة مُعترَف بها ينوبون عنها، وهي المُعبَّر عنها بالدولة.

وصفة الدولة لا تتحقّق إلاّ بوجود شعب له مميّزات تخصّه ومملكة ذات حدود ونظام تتعيّن به صفة الدولة وشكلها. وهذا النظام هو الذي يكوّن قوّة الدولة وقدرتها على تنفيذ أحكامها والتزاماتها بدون إخلال بها على مرّ الدهور والعصور.

أمّا مملكة اليمن في عهد حكومتها الإماميّة الحاضرة فإنّها ليست من النوع الذي تنبرم معه العهود والاتّفاقات. فكلّ اتّفاق أو التزام نبرمه مع الحضرة الإماميّة، والحكومة على ما هي عليه في شكلها المطلق المستند إلى محض إرادة المتولّي لأمرها، لا إلى نظام أساسي يُرجَع إليه، ولا إلى رغبة الشعب،

(1) أعدّ الشيخ عبد العزيز الثعالبي هذا البرنامج ليتقدّم به الأمراء القحطانيّون إلى المؤتمر اليمني العامّ.

يكون بمثابة الرقم على الماء، خصوصاً من الجانب الضعيف. وفي هذه الصورة يكون الحقّ والفوائد التي تنجرّ من عقد هذا الصكّ للجانب الأقوى. وبناءً عليه فالثمرة الطبيعيّة التي تجنيها من وراء عقد هذا المؤتمر هي فتح بلادنا للحملات والغارات عليها من قِبَل الأئمّة الذين سيتعاقبون على الحكومة.

لذلك فمن الواجب علينا، قبل أن ننظر في تقدير وتقرير علائقنا وحقوقنا ومقدّرات مستقبل اليمن ووحدته القوميّة مع الحضرة الإماميّة، أن نقرّر القواعد الأساسيّة لتأليف حكومة شعبيّة لليمن تكون قويّة وقادرة في آن واحد على تنفيذ كافّة مقرّراتها والتزاماتها ومكفولة بإرادة واسم الشعب.

ماذا يجب علينا قبل النظر في مسائل الاتّفاق؟:

يجب أوّلاً أن يُبْنَى نظام للإمامة وحقوقها بشرط إخلاء جانبها من المسؤوليّة عن أعمال الحكومة وإناطتها بمجلس الوزراء الذي يقوم مقام الإمام في تسيير دفّة السياسة اليمنيّة في الداخل والخارج ويتولّى السهر على مصلحة الأمن العامّ وتقوية الجيش وصيانة البلاد في الداخل والخارج، وإيجاد الوسائط الكافلة للنقل والمواصلات وترقية المدن وتحضيرها وتعمير الأرض بالزراعة وحفظ الأحراش والغابات، وحفظ الصحّة وتعميم مصلحة الإسعافات، وتنشيط الأمّة على تعلّم العلوم والصناعات، وإيجاد المدارس الكافية لتربية الأمّة وإخراجها من الأميّة إلى باحات العلوم، والسعي بالتدريج في إيجاد المرافق الاقتصاديّة التي تدفع الأمّة إلى العمل والتوفير، وترتيب المحاكم وإصلاح نظام القضاء وتأليف مجلاّت للأحكام وتعميم النظم الفنيّة في كافّة المصالح والإدارات، وتقليد الوظائف لأصحاب الكفاءات، مع مراعاة حقوق الجهات في أنصبتهم فيها، وإيجاد الهيئات التشريعيّة والهيئات البلديّة ومجالس المتصرّفيات والأعمال، ومنع الوُلاة من الاستبداد في التصرّفات والإجراءات العامّة التي لها مساس بحياة الأمّة، وجعل الخدمة العسكريّة إجباريّة وتحديد مدّتها.

تحديد مهامّ الوزراء وضبط صلاحياتهم:

يكون تأليف الوزارة على النحو الآتي: رئيس الوزارة ـ وزير الخارجيّة ـ وزير الداخليّة ـ وزير الماليّة ـ وزير المعارف ـ وزير الأشغال العامّة ـ وزير الحربيّة والبحريّة ـ وزير الزراعة والتجارة ـ وزير البريد.

1 ـ رئيس الوزارة:

أمّا رئيس الوزارة فيكون هو الوكيل الأوّل عن الحضرة الإماميّة ويتولّى تشكيل الوزارة واختيار الوزراء، ويتولّى رئاستها وإدارة أعمالها السياسيّة والإداريّة.

2 ـ وزير الخارجيّة:

يتولّى تنظيم حقوق اليمن وصيانتها في الخارج والداخل مع كافّة الدول ويقوم بالدفاع والنضال عن صيانة عظمة وشرف اليمن بالوسائط السياسيّة والسلميّة، ويتولّى المذاكرة في عقد الاتّفاقات والصكوك التجاريّة ونحوها بين اليمن وغيره من الممالك، والمعاهدات السياسيّة بين الأمم وإبرامها والسهر على تنفيذها بصورة تجعلها ملائمة لمصلحة اليمن أكثر منها لمصلحة غيرها.

3 ـ وزير الداخليّة:

يتولّى إدارة الأمن العامّ ويكون له النظر في الولايات والبوليس ومراقبة سير الأمّة والاحتساب على الأخلاق والآداب وإدارة المعاهد الصحيّة والسجون والمعاهد الخيريّة ومشاريع الإسعاف والبرّ.

4 ـ وزير الماليّة:

يتولّى ضبط واردات الدولة ومراقبة الجُبَاة ومحاسبتهم وترتيب أعمال وتوزيع الأموال على مصالح الحكومة ورعاية اطّراد النسبيّة بين الواردات [الإيرادات] والمصروفات وتوفير المال الاحتياطي والتمسّك بمبدأ الاقتصاد في المصروفات والسعي في تخفيف وطأة الضرائب على الفقراء وحملها على رؤوس الأموال.

5 ـ وزير المعارف:

وهو المشرف على تربية الأمّة وتثقيف ملكاتها وتقوية روحها القوميّة. ووظيفته في الحكومة بمثابة القلب من الجسد، فإذا صلحت صلح الجسد كلّه. فهو الذي يكوّن عقل الأمّة ويصرف إرادتها حيث يجب أن تُصرَف، وهو الذي يُخرج الأبطال ويوجد القادة ويكوّن الكتّاب وينشىء المخترعين والمكتشفين، بما يضعه من برامج التعليم ويحدثه من المدارس اللاّزمة للشعب. وعلى نسبة ما يبذله من الجهد وما ينشئه من المدارس ترتفع الأميّة عن الأمّة وترتقي إلى المستوى اللاّئق بها.

6 ـ وزير الأشغال العامّة:

وظيفته بناء الطرقات وجلب المياه الصالحة للشراب وحفظها وحصر الترع وتوزيع المياه، وبناء المعابر والجسور وإقامة السدود، وحفظ الأحراش وتنميتها، وإنشاء السّكك الحديديّة، ومراقبة سير النقّالات في الأساكل والطرقات البريّة، والسعي في البحث عن المعادن وتسهيل استخراجها وتعدينها، وغير ذلك ممّا به عمران البلاد وتوفير أسباب الثروة والراحة.

7 ـ وزير الزراعة والتجارة:

وظيفته أشبه ما يكون بوظيفة الأعضاء العاملة في البدن. فهو يعمل لعمران الأرض بواسطة إرشادات وتدقيقات الفنّيّين من المهندسين الزراعيّين وسواهم، ويبحث في أنواع الأتربة الموجودة في البلاد وتقرير أصناف النباتات التي تخصب فيها وتقدير الكميّات اللاّزمة لها من المياه، حتى لا يُزرَع نبات في غير موضعه ولا يضيع مجهود عن عامله، وذلك مع العناية والاهتمام بجلب الآلات الجديدة لخدمة الأرض واستثمارها وتسهيل اقتنائها على المزارعين بصورة تضمن الفائدة مع قلّة النفقة ويسر التكاليف. وبذلك تتضاعف محاصيل البلاد عن حاجة السكّان. فينظر في سوقها إلى الخارج واختيار الأسواق التي تكون نافقة فيها حيث تتحوّل إلى ذهب. وأهمّ وظائفها أن تجعل قيمة صادرات

البلاد أكثر من وارداتها لتكون الثروة العموميّة دائماً في ازدياد، مع الاجتهاد في الاستغناء عن الواردات الأجنبيّة بمصنوعات البلاد، لأنّ الاستقلال لا يتمّ إلاّ بمقدار ما يحصل من الاستغناء عن الغير وتوفّر الرخاء في البلاد.

8 – وزير الحربيّة والبحريّة:

وهو المتكفّل بصيانة البلاد من الغوائل الداخليّة والخارجيّة ويقوم بتربية الجيش وتدريبه وأخذه من شباب الأمّة الذين بلغوا سنّ العشرين، ويبقون تحت السلاح إلى أن تكتمل تربيتهم العضليّة والعسكريّة مدّة لا تقلّ عن ثمانية عشر شهراً ولا تزيد عن سنتين، ثم يُصرَف من قضى منهم المدّة المُعيّنة ويُؤتى بغيرهم ممن بلغوا السنّ حتى تكون الأمّة كلّها مُمَرَّنة على الأعمال العسكريّة ويمكن تجنيدها جميعاً في وقت النفير العامّ.

ومن وظائفه تقسيم الجنود إلى مفرزات وطوائف وفرق وفيالق وتهيئة العدد الكافي من القوّاد والضبّاط للجيشين البرّي والبحري وإقامة الثكنات الصحيّة لإيوائهم وكفالة أرزاقهم من مأكل وملبس ومشرب، وأدوات وذخائر وغير ذلك من لوازم العسكر، وإدارة أمورهم طبق الأصول العسكريّة المعروفة، وإنشاء المدارس الفنيّة العسكريّة لإيجاد الأكفاء من الضبّاط لإدارة أموره العمليّة والفنيّة والصحيّة.

9 – وزير البريد:

تُعَدّ وزارة البريد في سائر الممالك كالأوردة الدمويّة التي توزّع الدم في البدن وتحدث الصلات العمليّة من أقصى البلاد إلى أدناها، وتدني البعيد وتصله بالقريب. ووظيفتها صورة كاملة تمثّل رقيّ الأمّة، وأكبر عمل لها هو إيصال الرسائل بأيسر كلفة وأقلّ وقت.

طريقة عمل الوزارة:

كلّ وزير يكون مستقلاً بإدارة عمله، بحيث لا يسوغ لوزير أن يتدخّل في عمل وزير آخر، إلاّ إذا أنابه فيكون عمله في تلك الوزارة بطريق الوكالة.

وإنما يجتمع الوزراء في جلسة خاصّة في أيّام معيّنة من كلّ أسبوع للنظر في المصالح التي تعرض لهم، وكلّ ما يقرّرونه يجب أن يُؤخذ برأي الأغلبيّة. فإن كان ممّا يوكله إليهم النظام نفّذوه حالاً بعد أن يوقّعه الوزير المختصّ والرئيس، وإلا فيكون مشروعاً يُعرَض على مجلس الأمّة وهو له وحده الحقّ إمّا برفضه أو البتّ فيه.

مجلس الأمّة:

يتعيّن مجلس الأمّة على نسبة عدديّة فبعضهم يحصل لكلّ ثلاثين ألف نسمة من السكّان الأحرار البالغين من الذكور نائباً، وبعضهم يزيد على ذلك إلى المائة ألف. ولكن كلّما قلّ العدد كان التمثيل أصحّ. وهؤلاء النوّاب يجتمعون أشهراً معلومة في السنة، ولهم أن يضعوا من القوانين ما يرونه صالحاً للبلاد من تلقاء أنفسهم. كما لهم أن يقبلوا مشاريع الحكومة ولهم فيها حقّ التقرير أو التعديل، ومتى اتّفقوا على سنّ أيّ قانون سواء كان ذلك بالإجماع أو بالأغلبيّة يجب عرضه على الإمام لتصديقه. وفي حالة اختلاف بين مجلس الوزراء ومجلس الأمّة على أيّ أمر من الأمور فللإمام وحده حقّ الترجيح، فإن كان في جانب مجلس الأمّة سقطت الوزارة وأن كان في جانب الوزارة يجب عليه حلّ مجلس الأمّة بشرط أن يذكر في أمر الحلّ المدّة التي يتعيّن فيها انتخاب المجلس الجديد وتكون قرارات المجلس بمثابة مسائل الإجماع.

واتّخاذ نظام دستوري لليمن يرتكز على هذا الأساس هو كافٍ لإقناع اليمنيّين قاطبة بدخول بلادهم في طور جديد كافل لسلامتهم وأمن وطنهم. وفي هذه الحالة يستحيل وجود يمني واحد يتخلّف عن الجماعة...

الفصـل الثالـث

المساعي الحميدة للمصالحة
بين الملك عبد العزيز ابن السعود
والإمام يحيـى

بسم الله الرحمن الرحيم

مولاي الصديق الأستاذ الجليل الشيخ كامل أفندي القصّاب أعزّه الله وأدامه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد فقد طال العهد ولم أستطع أن أكتب إليكم كلمة واحدة لأنّني أودّ أن لا أكاتبكم إلاّ بشيء مفيد عن القضيّة الكبيرة التي نعالجها. أمّا الشوق فقضيّته معلومة ولا أحتاج لإبدائه لكم، فلديّ ما لديكم ومنّي القلب شاهد وجمرته المتوقّدة لا تطفيها الكتب بل يطفيها اللّقاء إن شاء الله، أسأل الله تعالى أن يجعله قريباً ليكون حظّي منكم أكبر من الحظوظ التي سلفت.

لا أطيل عليك أيّها الصديق الوفيّ، فقد واصلت السير إلى صنعاء دار الإمامة الإسلاميّة المشرقة وأنخت بها الرّكاب أوّل أمس ونزلت في ضيافة الإمام أبقاه الله. ولا غرو فقد انتقلت من ضيافة الملك [عبد العزيز ابن السعود][1] إلى ضيافة الإمام [يحيى] حفظه الله. وليس همّي من هذا التسواح المضني الضيافة بل توكيد الصلاة وعقد الخناصر على تأليف القلوب وإتمام العمل الصالح الذي

(1) تمكّن الملك عبد العزيز ابن السعود (1880 ـ 1953) بعد مدّة قليلة من فتح الرياض، من احتلال المنطقة الشرقية من نجد (1906) التي كانت خاضعة لآل الرشيد وأجبر الأتراك على مغادرة الهفوف في اتّجاه البصرة. ثم فتح الحجاز سنة 1924 وعسير سنة 1926 وأصبح على قاب قوسين وأدنى من اليمن.

عاهدنا الله عليه وجعلنا أرواحنا ثمناً له. وقد كان أكبر همٍّ لي هنا استطلاع نوايا الإمام أبقاه الله في المسائل التي تذاكرنا فيها وأخصّها مسألة توطيد العلائق بين المملكتَيْن العربيّتَيْن الإسلاميّتَيْن والسعي في إزالة ما غشيها من المكاره، فوجدت الحالة لم تتغيّر عمّا كنت أعهده من قبل. وأشدّ ما أدهشني أنّي لمّا بحثت عن الكتاب الذي أطلعنا على مضمونه جلالة الملك ابن السعود يوم الوداع لم أجد له أثراً لا في ضمير الإمام ولا في أوراقه، وأستطيع أن أحقّق لك أن عظمته لم يصدر منه كتاب إلى السيد الإدريسي[1] يتضمّن تلك الشروط التي قرأناها، ويظهر أنه كتاب مفتعل، وأنت تعلم وأنا أعلم بصيرة الإمام حفظه الله وحياطته فيما يكتب ويقول. ويكفيني اليوم أن أكذّب لك ما ورد في ذلك الكتاب لتؤكّد لجلالة الملك أن الذي كاتبه به قد غشّه وكذب عليه حتى لا يغترّ في المستقبل برواية أمثال هؤلاء المترين وقى الله العرب شرّهم.

أما مسألة الحدود وعقد الحلف بين العاهلين العظيمين فأترك الكلام عليهما إلى ما بعد التوثّق من رأي عظمة الإمام فيهما وأرجو أن لا يقع الاغترار برأي بعض الأصدقاء المتسرّعين الذين لم تتّضح آراؤهم ولم يعرفوا معالجة الأمور المهمّة وليتهم لم يشتغلوا بمعاناة المسائل العويصة الدقيقة لأنهم ربّما أفسدوا حيث يريدون الإصلاح.

جاء اليمن رجال كثيرون لهم أمل في حلّ مشكل القضيّة العربيّة العسيرة واجتمع الإمام بأكثرهم وعلمت منه أنه لم يعجب بأحدٍ إعجابه بكم لدينكم ومروءتكم ووفائكم ولم يزل يذكركم بخير ويثني عليكم، وقد تأكّد ذلك لديّ اليوم ونعم الرأي رأيه فيكم.

(1) كانت منطقة عسير خاضعة حتى سنة 1926 للأمير حسن الإدريسي الذي كان يحكم البلاد بالحديد والنار، غير معترف بسلطة إمام اليمن على منطقته. وفي تلك السنة تمكّن الجيش السعودي من إجلاء الإدريسي من منطقة أبها التي كان متحصّناً بها، وأعلن الملك عبد العزيز عن عزله وضمّ عسير إلى «المملكة الحجازيّة النجديّة وملحقاتها» التي ستتحوّل سنة 1932 إلى «المملكة العربيّة السعوديّة».

اعرضوا احترامي وتقديري لجلالة الملك وسلامي للدكتور محمود وشقيقه والدكتور خيري والأستاذ يوسف ياسين وإلى كلّ من تريدون من الأصدقاء.

وتفضّلوا في الختام بقبول أشواق وتقدير محبّكم العاني:

عبد العزيز الثعالبي

وحُرّر في 23 ربيع الثاني 1345 هـ

[30 أكتوبر 1926 م]

الحُدَيْدة يوم الخميس 13 جمادى الأولى سنة 1345 هـ/
الموافق 18 نوفمبر سنة 1926 م

سيّدي الصديق الكامل وأستاذي الجليل كامل أفندي القصّاب أعزّه الله وأدام إقباله.

سلاماً وتحيّةً من قلب شغوف بك ونفس توّاقة إلى لقائك. تفضت إليك من صنعاء بجملة من مطالعاتي ضمن كتاب بعثته إليك يوم السبت سلخ 30 أكتوبر الماضي ووعدتك بالعودة إلى الكتابة بعد التوثّق من رأي عظمة الإمام أبقاه الله في ما نعالجه من الوفاق بين العاهلَيْن الجليلَيْن. والآن حيث تمّ العمل وقمت ببعض الواجب الذي عليّ لضميري وديني وقومي كان حتماً عليّ أن أفي لك بوعدي.

مكثت في صنعاء ثلاثة عشر يوماً خلوت فيها بالإمام مراراً وتباحثنا في المسائل المعلومة طويلاً. وما أشبه الأحاديث التي بيننا في هذه المرّة بأحاديثنا مع جلالة الملك ابن سعود، وقد كدت أتظنّن أنّهما على وفاق في التبرّم من كلّ سعي جدّي يُقصَد به توحيد الكلمة. لكنّني وطّنت النفس على الصبر واحتمال كلّ مكروه في هذا السبيل. وكنت بين هذا وذاك أمنّي النفس بالتغلّب على الصعاب وإدراك لذّة الوفاق وما وجدت لي وسيلة لمعالجة هذه القضيّة غير الكياسة في السياسة والتدخّل في الأمور ولا دخول المرود بين الجفن والجفن، حتى استطعت في النهاية أن ألين قناة الإمام وهي ما لانت لغامزٍ قطّ. لانت قناته بعد أن حقّقتُ له أن أقوال الملك ابن سعود بشأن الوفاق أقرب إلى الهوادة واللّين والحرص على سلامة بلاد العرب، خلاف ما أجده من الإمام.

وبهذا الأسلوب استطعت أن أخفّض ما أمكن من صلابة رأي الإمام حتى جعلته رهن الوفاق وحرّرت له في ذلك ثبتاً سلكت فيه مسلكاً تجنّبت فيه قصداً الإفراط والتفريط في حقّ الطرفين الساميين وذلك أن يعترف جلالة الملك ابن سعود لعظمة الإمام بحقّ السيادة على إمارة الأدارسة بجميع حدودها الأصليّة والإمام يعترف في مقابل ذلك لجلالة الملك بالجانب الطويل العريض الذي وضع عليه يده من بلاد عسير. وهو حلّ مطابق لما كان تذاكر فيه جلالة الملك ورجال بلاطه مع السيد حسين بن علي عبد القادر المندوب السامي للإمام في مؤتمر مكّة المكرّمة [يونيو 1926]. ولكن الإمام توقّف في إبرامه نظراً لمخالفته لمبدأ اليمن لليمنيّين.

ولا يغرب عن الصديق أن موافقة الإمام على بتر عسير من اليمن ليس أمراً سهلاً، فإن من وراء الإمام عيون قروم الزيديّة وهي يقظة لا تنام. فقد مكث الثبت الذي عرضته ثمانية أيّام تحت المناقشة ولم يصدّقوه إلا بعد شقّ المرائر، والإمام لا يبرم أمراً إذا لم يصدّقوه.

لا أذهب بك بعيداً، فقد ثارت أثناء البحث مشكلة فرعيّة تبعت بها فكرة أحد المعارضين وهي:

أيّ صفة لي تجعل الإمام يقبل منّي مبدأً لحلّ مشكلة قانونيّة بينه وبين دولة أخرى دون أن أكون منتدباً عن أحد الطرفَيْن انتداباً قانونيّاً؟ بيد أن الإمام رفض وساطة أخرى من هذا النوع تقدّمت إليه قبلي.

فقلت: صفتي فضولي يريد لكم الخير يؤمن بحديث: «الدين نصيحة».

وأخيراً وُفّقت والحمد لله إلى استصدار كتاب رسمي من الإمام بالموافقة الإجماليّة على الحلّ الذي عرضته يخاطب به جلالة الملك.

وقد تعهّدت بإيصاله إليه، وتحصيل الجواب عنه. فإن كان بالموافقة فإن الإمام يرسل مندوباً من قِبَله يخوّله حقّ التصديق على الاتّفاق بالنيابة عنه. وإن

كان بالرفض أنهي ذلك إليه وأذهب إلى سبيلي وأترك حلّ هذه المشكلة للظروف القاسية التي ما وُجِدت إلاّ لتفكيك عُرى الإسلام.

ودّعت الإمام وغادرت صنعاء صبيحة يوم الأربعاء 11 نوفمبر الجاري ووصلت إلى الحديدة عصر يوم الثلاثاء 17 منه. فعلمت أن جلالة الملك غادر مكّة إلى المدينة فارتبكت وأشكل عليّ الأمر. فأبرقت إليه يوم الأربعاء 18 منه بالعزم على مقابلته ورجوت منه الجواب بتعيين المكان الذي نلتقي فيه إن كان في المدينة أم مكّة. فإن كان في الأولى فسأزايل هذا الثغر مع أوّل باخرة تقدم إلى جدّة، وإن كان في الثانية فسأنتظر عودته وربّما فضّلت الإقامة في عدن.

وقد حرّرت لك هذا الكتاب لتنظر في المسألة من جميع وجوهها وتبعث إليّ برأيك إن تأخرت عن المضيّ في طريقي إلى الحجاز، أو التلاقي في جدّة حين أصل إليها.

هذا ما انتهى إليه سعيي في حلّ مشكلة الحدود بين نجد واليمن أعرضه على الصديق الحميم وسأجد من حصافة رأيه أقوى عضد وأكبر نصير لإنهاء هذه القضيّة المدلهمّة...

* * *

أما مسألة إغاثة سوريا الشهيدة، فإني لما عرضتها على الإمام اهتزّ لها اهتزازاً شديداً وقال: ما ذاكرتني في شيء أحبّ إليّ من هذه المسألة، وإني لآسف الأسف كلّه لعدم وجود مذكّر يذكّرني بها قبلك، والواجب على كلّ مسلم إعانة هؤلاء الأبطال الذين يجاهدون في سبيل بلادهم، وإن لهم علينا حقاً يجب الوفاء به لهم. وسأرسل إليهم أربعة آلاف ليرة، ولكن لمن أرسلها؟.

لا أريد أن أرسل مالاً لا يصل إلى أهله، ولا أريد أن يتصرّف فيه أحدٌ غيرهم. فكما نبّهتني لهذا الواجب يجب عليك أن تدلّني على الطريق التي ينبغي اتّباعها لإيصال المال إلى جهته المعلومة. فقلت: الطريقة الوحيدة أن ترسل

المال مع مندوب من قِبَلك تثق به يذهب أوّلاً إلى الحجاز وأنا واثق أن الأستاذ كامل أفندي يتّخذ التدابير الفعّالة لإيصاله إلى الأزرق من طريق التوجّه ومن الأزرق يذهب إلى جبل الدروز فيسلّم نصف المبلغ لزعماء الطائفة ويسير من هناك إلى الغوطة [دمشق] فيسلّم الباقي إلى رؤساء العصابات المعروفين هناك. فوافق الإمام على هذه الطريقة واستحسنها كثيراً، وفي الإمكان أن يمدّهم بأكثر من ذلك خصوصاً المؤن، متى علم النوع اللاّزم لهم منها. فهل ترى أن حكومة الملك تساعد على ذلك ولا تمنع مرور الأشياء من بلادها؟.

كاتبني وليكن كتابك إليّ بعنوان محمد عبد الله حسنعلي وإخوانه بعدن.

وهذا كتاب الإمام إليك، فالرجاء الجواب عنه، ولك الخيار في الكتابة إمّا رأساً وإمّا بواسطتي.

سلامي للأستاذَيْن الكريمَيْن الشيخ حسن أفندي والشيخ الطيّار خاصّة وللأصدقاء عامّة.

وتقبّل مولاي تقدير واعتبار محبّك.

عبد العزيز الثعالبي

[يوم الجمعة 24 ديسمبر 1926 م]

الحمد لله وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

مـولاي،

صاحب الجلالة السعوديّة الملك المعظّم أيّده الله وجمع به كلمة المسلمين،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أمّا بعـد، فبناءً على التعهّد الأدبي الذي كتبته على نفسي وأشهدت الله عليه، رغم كلّ معاكسة ومقاومة لقيتهما من ذوي الشأن، فقد مضيت في سبيلي، سبيل الخطّة المثلى التي عاهدت الله عليها لخدمة ملّتي وقومي.

سافرت إلى اليمن بعد أن فارقت الحجاز ولازمت جلالة الإمام ثلاثة عشر يوماً. ولم أزل به حتى وفّقني الله إلى إيجاد حلّ مرضي لمشكلة الحدود التي أثارت اهتمام العالم الإسلامي وأوفد من أجلها البعوث تلو البعوث للتوفيق بين رغبات العاهلَيْن الكريمَيْن.

وليست الصعوبة القائمة بين الطرفَيْن الساميَيْن ناشئة عن عدم الرغبة في الحلّ، وهي أنشودة الجميع ولكن عن تقدير التضحية الواجبة على الدولتين الساميتين، إذ بدونها يكون نصيب كلّ حلّ يُعرَض الفشل، فتزداد المشكلة انعقاداً ولا يحلّها إلاّ السيف. هذا ما يحاذره اليوم المشفقون على بلاد العرب التي لم يبق للاستعمار الغربي مطمحاً في سواها. فإذا اشتبكت الدولتان العربيّتان نجد واليمن في حربٍ (لا قدّر الله)، فإنّ ثمرة انتصار إحداهما على

الأخرى تكون من نصيب الاستعمار لا المُنتَصِر. وما حادثة معان والعقبة[1] التي حصلت تلوَ الحرب النجديّة الحجازيّة ببعيدة عنّا وجرحها لم يندمل في كبد الأمّة العربيّة المسكينة.

كتبت فيما سلف تقريراً إلى الأستاذ القصّاب عقب رجوعي من صنعاء عرضت فيه الجهود التي بذلتها والحالة التي صادفتها، وأشرت أخيراً إلى ما وقع عليه الاتّفاق مع الإمام في مسألة الحدود، بعد أن أبرقت إلى جلالتكم من الحديدة ملتمساً دعوتي لعرض نتيجة المأمورية التي قمت بها، عسى أن يكون فيما عرضته مقنعاً للجناب العالي، كما أقنعت من قبل جلالة الإمام. ولكن الدعوة لم تصلني.

وبعد وصولي إلى... عرضت الأمر على الصديق المحترم الشيخ إبراهيم الفضل ورجوته أن يبرق إليكم عساه يحرز على جواب شافٍ تنتهي عنده مأموريتي ففعل. وعاد اليوم فذكر أنه تلقّى برقيّة من لدنكم بطلب المذكّرة وكتاب الإمام الذي صدر منه إليكم بالموافقة عليها. وعملاً بإشارة الصديق أسلّمهما إليه رجاء إرسالها إلى جلالتكم.

والأمل أن يرد جواب كتابي إمّا بالموافقة، وإمّا بالرفض، نرسله إلى الإمام ليقع العمل بموجبه. والأمر لمولاي.

المـذكّـرة

بعد المداولة مع عظمة الإمام يحيى بن محمد بن حميد الدين كافل اليمن حفظه الله في توثيق عرى الصداقة والمحبّة بينه وبين جلالة ملك الحجاز وسلطان نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن السعود حفظه الله، علمت يقيناً أن كلّ محاولة يُرَاد منها تحقيق أمنية السلم بين العاهلين الجليلين لا تحصل ما لم

(1) لقد تمّ ضمّ ميناء العقبة إلى إمارة شرق الأردن.

تتضمّن الاعتراف الصريح أنّ حدود اليمن الجنوبيّة تمتدّ إلى منتهى حدود إمارة الأدارسة.

أمّا ما وضع عليه يده جلالة الملك ابن السعود ممّا وراء ذلك من بلاد عسير فلا كلام عليه.

وكلّ حلّ يُعرَض في هاتين المسألتين على عظمة الإمام خلا هذا الحلّ غير مقبول لما فيه من النقص الواضح في سيادة اليمن على أهمّ جزء من ثغوره الجنوبيّة الإماميّة. وليس المسألة مسألة حدود قابلة للتسوية والتعديل، بل هي مسألة شرف وسلامة البلاد اليمنيّة. فالتسليم في أيّ جزء منها يجعلها معرّضة على الدوام للاقتطاع والغزو والفتح.

أما اعتراف جلالة الملك ابن السعود بهذا الحقّ الصريح الشرعي فلا تثريب فيه عليه.

الفصل الرابع

الشيخ عبد العزيز الثعالبي في عدن (1936)

مرور الثعالبي من عدن
في طريقه إلى الهند[1]

29 نوفمبر ـ 6 ديسمبر 1936

وصلت الباخرة الإنجليزيّة ناركندة باكر **يوم الأحد 29 نوفمبر 1936** إلى عدن تحمل زعيم الشرق الكبير سيادة الأستاذ عبد العزيز الثعالبي. وكان الخبر بقدومه قد سبقه بليلة بواسطة الإذاعة الإيطاليّة من محطّة باري. وما كادت تبلغ مسامع السلطان عبد الكريم الفضل سلطان لحج في قصر الروضة حتى تناول الهاتف وتكلّم مع الإخوة حسنعلي بشأن استقبال الزعيم، وكلّفهم بإبلاغه دعوته للنزول في ضيافته الكريمة. فخفّ المذكورون في صبيحة اليوم التالي لاستقباله على ظهر الباخرة وأبلغوه تحيّة السلطان ودعوته إلى الضيافة في قصره وذكروا له أن سموّه أوفد سيّارة مخصوصة لركوبه إلى الحوطة. فتلقّى سعادته هذه العناية السامية بالشكر والدعاء لمولانا السلطان، ثم نزل مع مستقبليه وركب إلى قصرهم داخل المدينة.

وبعد أن استراح زعيمنا من وعثاء السفر خرج إلى زيارة النادي العربي الذي كان من جملة مؤسّساته الإصلاحيّة في هذا الثغر، فلبث فيه ساعات كان فيها موضع الرعاية والتبجيل من الأعضاء الذين بلغهم خبر تشريفه. ثم نزل

---

(1) وجدنا نسخة من هذا الفصل في ملفّ «الرحلة اليمنيّة» مكتوبة بخطّ يد الثعالبي، وحسبما جاء في الرسالة المصاحبة لهذا، فإنّ أحد أصدقاء الشيخ قد كتب الفصل لتوجيهه إلى جريدة «العصر الجديد» الصادرة في صفاقس، وليس من المستبعد أن يكون الثعالبي نفسه هو الذي حرّره.

وكانوا من حوله يشيّعونه إلى السيارة السلطانية التي أقلّته إلى الحوطة وركب إلى جانب المرافق السلطاني الأستاذ عبد الجواد حسنعلي. وكان عظمة السلطان ينتظر في قصر الروضة بلهفة، وأعدّ لنزوله جناحاً في سراي وليّ العهد. وكان هذا الجناح غاية في الفخامة يطلّ على حدائق السراي، وعيّن له سيّارة خاصّة لتكون على ذمّته.

فوصل الضيف الجليل إلى قصر الروضة مع الغروب وتلقّاه سموّ السلطان بمنتهى التبجيل وعلى الإثر أطلقت مدافع الإفطار، وكان السلطان والضيف الكريم جلوساً مع المدعوّين في حدائق القصر، فقدّمت لهم الحلويات والمرطّبات. ثم قاموا لأداء الفريضة بين تلك الجنّات، ثم تقدّم السلطان ومعه الضيف الكريم ومن خلفهما المدعوّون إلى قاعة الطعام، وهي من أرحب القاعات، فجلس السلطان في صدر المائدة والأستاذ إلى جانبه، وجلس بقيّة المدعوّين في الأماكن المعدّة لهم حسب درجاتهم، وبعد الفراغ من الطعام صعدوا إلى بهو القصر، وقد صُفّت فوق مناضده المرطّبات وفناجين القهوة اليمنيّة، ثم أخذوا يسمرون إلى أذان العشاء، فقاموا جميعاً لأداء الفريضة والتراويح، ثم عادوا إلى سمرهم، وناهيك بسمر يتولاّه الأستاذ الزعيم، وقد كانت تتخلّله الإذاعات الإخباريّة وسماع أذان المؤذّنين في القدس والقاهرة. واستمرّ السمر إلى ساعة متأخرة من الليل، ثم أوتي بالسحور فتناول السامرون ما لذّ وطاب وانصرفوا شاكرين. ثم نزل زعيمنا وركب إلى السراي المعدّة لنزوله، فجلس حول المكتبة يطالع قرابة ساعتين، ثم أطفأ النور وصعد لفراشه وهو لا ينام من اللّيل إلاّ قليلاً ثم يفيق باكر النهار.

وفي يوم الاثنين 30 نوفمبر 1936:

وقفت السيّارة الخاصّة بالأستاذ على باب السراي الداخلي تنتظر أوامره، فنزل في الساعة العاشرة وقامت به إلى قصر الروضة، وقضى مع السلطان وسط النهار في خلوة إلى العصر. ثم ركب بعد ذلك إلى قصر الألعاب الرياضيّة

المعروف بقصر التنس المُشيّد في ضاحية الشكعة، وهو على بعد 6 أميال من الحوطة، وأغلب أشجاره وزهوره من النباتات الهنديّة منها المثمر وغير المثمر.

وقبيل الغروب عاد السلطان وضيفه العزيز إلى قصر الروضة واستأنفت الحياة سيرها كما عرفناها بالأمس إلى أن اتّصلت بساعة النوم.

وفي يوم الثلاثاء 1 ديسمبر 1936:

فكّر سموّ السلطان أن يبعد السآمة والضجر عن ضيفه فأوعز للحاشية أنّه سيبيت الليلة مع ضيفه في عدن. فركبا ساعة الظهر ونزلا القصر الذي شيّده سموّه قبل سنتين قرب الميناء الشرقي على طراز بديع ليس له مثيل في هذه البلاد. فصرفا فيه بقيّة اليوم والليلة، وقد اجتمع حول مائدة الإفطار أكابر العدنيّين، كما كانت مائدة قصر الروضة تجمع حولها وجوه اللحجيّين. وفي هذه الليلة أقبلت وفود كثيرة للسلام على الأستاذ من أعضاء النوادي ولجان الشباب المولعين بسيادته واستمرّوا في حضرته إلى منتصف الليل ثم انصرفوا مغتبطين.

وفي يوم الأربعاء 2 ديسمبر 1936:

عاد السلطان مع ضيفه الجليل عصراً إلى قصر الروضة بعد زيارة قرى ودساكر لحجيّة على الطريق، وشاهدا من مساكنها وحال أهلها ما يدلّ على يُسْر البلاد ورجالها.

وكانت الدعوة إلى الإفطار في هذه الليلة رسميّة من قِبَل سموّ وليّ العهد، دعا إليها أكابر الأمراء والوزراء وقضاة المحاكم وقوّاد الجيش وحكّام المقاطعات وأعيان الموظّفين في الديوان العالي والعلماء وشيوخ القبائل والعُقّال ومن إليهم في الوجاهة، وقد عدّ منهم الأستاذ خمسين ذاتاً، ثم اضطرب العدد من كثرة النّاس. أما نظام الليلة فإنه لم يختلف عن نظام الليالي السابقة وهو صورة منها.

وفي يوم الخميس 3 ديسمبر 1936:

دعا صاحب السعادة السيد علوي الجفري كبير الوزراء سموّ السلطان لوليمة أقامها لتكريم أستاذنا الجليل، حضرها ذوات كثيرون من جميع الطبقات العالية، أمراءً وحكّاماً وأشرافاً وموظّفين وأعياناً ضاق عنهم المحلّ مع اتّساعه. وكانت من أبهى الولائم التي شهدها الأستاذ بعد ولائم السلطان، وعقب القهوة رجع السلطان مع ضيفه إلى قصر الروضة وأقبل على إثرهما الوزير شاكراً لهما تفضّلهما بإجابة الدعوة.

وفي يوم الجمعة 4 ديسمبر 1936:

دعا السلطان الذوات الذين كانوا يُدْعَوْن إلى الولائم إلى فسحة خلويّة عصر اليوم في مركز تقسيم المياه جنوب الشكعة، ثم إلى الإفطار على المائدة السنيّة، وأُعِدّت لركوبهم السيّارات الخاصّة، وبعد صلاة العصر خرج رتل السيّارات من قصر الروضة يحمل المدعوّين، وكانت تتقدّمهم السيّارة السلطانيّة وقد جلس فيها السلطان وسيادة الزعيم الجليل. فكانت فسحة لطيفة بين تقاسيم المياه، شاهدوا أثناءها طريقة ريّ الأراضي والحياض المعدّة لزراعة الخضر والفواكه.

وبعد انتهاء هذه النزهة اللّطيفة رجعوا إلى قصر التنّس فاستراحوا هناك قليلاً حتى إذا دنت ساعة الغروب عادوا إلى قصر الروضة وتناولوا طعام الإفطار على جاري العادة التي وصفناها.

وفي مساء هذه اللّيلة قصد الزعيم دار المكتبة السلطانيّة التي أنشأها سموّه حديثاً لتثقيف الشعب، يتفقّد نظامها وتراتيبها. فاستغرق فيها مقدار ثلاث ساعات، ثم عاد منها بعد أن أشار بترتيب الكتب على القواعد الفنيّة ووضع كلّ كتاب في الأدراج الخاصّة به، وأرشد إلى ترتيب الفهارس على حروف المعجم، وأدخل فيها تاريخ المؤلّفات وأسماء المؤلّفين وطريقة كتابتها. ثم عاد إلى القصر يرفع إلى الجناب السلطاني نتيجة تقريره ومطالعاته، والثناء على هذه

الميزة السلطانيّة التي آثر بها شعبه مساعدةً على رقيّه وتهذيبه.

وداع الزعيم التونسي في عدن وسفره إلى الهند:

في صبيحة يوم السبت 5 ديسمبر 1936 ركب الأستاذ السيّارة الخاصّة إلى قصر الروضة لمواجهة السلطان وتوديعه. فمكث ساعة كاملة في الحضرة السلطانيّة ثم إن سموّه دعا وليّ عهده لمرافقة الضيف الكبير إلى عدن وإنزاله في القصر المنيف وملازمته إلى ساعة الرحيل إلى الهند. فتركا الحوطة في الساعة العاشرة صباحاً، وما أزفت الساعة الحادية عشرة حتى كانا على أبواب قصر عدن. ولما ذاع الخبر بقدوم الأستاذ أخذت الجموع تلوذ بالقصر زرافات ووحداناً، تيمّناً بطلعته البهيّة. ولما كانت ساعة الغروب قام الأستاذ الأصنج رئيس نوادي الإصلاح العدنيّة ودعا سيادته إلى فسحة قصيرة حول المدينة فأجابه إليها. ثم ركبا إلى حديقة الخزّان الأثري الذي حفره الحميريّون في صخور الجبل الشامخة جنوب المدينة، وهو من أفخم الآثار الهندسيّة التي تشهد للعرب بالباع الطويل في صناعة الحفر والتقعير وبناء الخزّانات والتدقيق في حساب المياه، وذلك رغم الزعم بأنه من الأوضاع الرومانيّة، وكان معدوداً لسقاية أهل المدينة. وقد تقدّم الأستاذ إلى الحديقة جمع من الشبيبة العدنية لتُؤخَذ لهم صورة فوتوغرافية وهم محدقون من حوله. وبعد أخذ الصورة عاد الأستاذ إلى السيّارة ومعه الأستاذان الأصنج وصالح لقمان للقيام بجولة قصيرة. ثم قصدوا النادي العربي الذي أعدّ الليلة مأدبة تكريميّة لزعيم الشرق، حضرها جمهور من أكابر العدنيّين ترأسها سموّ الأمير أحمد الفضل شقيق السلطان. وبعد الإفطار انتقل المدعوّون إلى قاعة الاجتماعات لسماع الخطب. وقد تولّى افتتاح الحفلة الشيخ عبد الكريم حسنعلي، فنوّه بذكر الضيف ثم قدّم الخطباء ودعاهم إلى الخطابة، فكان صدرهم الخطيب المفوّه الأستاذ الشيخ عبد الله بن عثمان الحضرمي، وقد ألقى خطاباً كان آية من آيات البيان، وصف به الأستاذ وصفاً بليغاً من جميع نواحيه العقليّة والعلميّة والسياسيّة، وكان المستمعون يقاطعونه

بالهتاف والتصفيق الحادّ. ثم تعاقب بعده الخطباء وهم يذكرون مناقب الزعيم ويشيدون بذكره وأعماله لإحياء الأمة العربيّة.

ولمّا آل الدور إلى الأستاذ قام ينشر الدرّ وينفث السحر، فاستهلّ خطابه بشكر هيئة النادي على هذه الحفاوة الجميلة وخصّ بالثناء السيد عبد الله الجفري على تضحياته الكثيرة للمحافظة على النادي. ثم تكلّم عن النهضة العربيّة وعدّد مقوّماتها واحدة بعد أخرى. ثم دعا الأمم العربيّة في هذه الساعة العصيبة إلى اليقظة والعمل. وختم خطابه فاستفزّ الشعور عند ذكر المخاوف المحدقة بالعربيّة السعيدة. فهتف له الحاضرون هتافاً طويلاً متواصلاً.

وحول الساعة الحادية عشرة انفرط عقد الاجتماع وركب الأستاذ إلى القصر وكان في حاجة إلى الراحة بعد الجهد الذي كابده هذه اللّيلة فودّعه المشيّعون عند الباب وهم يتمنّون له نوماً هنيئاً وليلة سعيدة.

أصبح العدنيّون منذ شروق شمس يوم الأحد 6 ديسمبر لا حديث لهم إلاّ عن مواضيع خطاب الزعيم الذي ألقاه بالأمس والسؤال عن موعد وصول الباخرة رانبورة التي ستحمله إلى الهند وساعة قيامها. ولم يكن سرورٌ أشدّ من سرورهم حين علموا أن الباخرة يتأخّر وصولها إلى الساعة السادسة مساءً ولا تسافر إلاّ في الساعة العاشرة ليلاً، لأنّ الأستاذ سيقيم بين ظهرانيهم طوال النهار وجزءاً من الليل يستمتعون بأحاديثه العذبة ويستجلون منه غوامض الأبحاث الاجتماعيّة التي يشكل حلّها عليهم. فكان القصر في بحر النهار ومثابة للناس، يلتقي فيه الصادر بالوارد، بل كان كالبحر بين مدّ وجزر. ودام الحال على هذا المنوال من الصباح إلى أن أذنت الشمس بالغروب، وقد ظهرت على الأستاذ أمارات الإعياء والتعب، والشعوب في حال ثورتها الفكريّة لا ترحم أبداً. فقام الأستاذ الأصنج وقال: «كفّوا فقد دانت ساعة الغروب والأستاذ قد أضناه الجهد وحان وقت الدعوة للإفطار». فأخذ الحاضرون في الانصراف، وقام الأستاذ يتهيّأ للركوب إلى منزل صديقه الحميم الشيخ محمد عبد الله كبير أسرة حسن علي، وكانت

الدعوة قاصرة عليه وعلى سموّ الأمير وليّ العهد لتوفير راحة الصديق العزيز، فبادر بالركوب لإجابة الدعوة. وبعد الإفطار عاد إلى القصر يتهيّأ للرحيل وتوديع المُوَدِّعين.

وفي تلك الساعة الدقيقة وافاه الخبر بوصول الباخرة رانبورة إلى الميناء ونزول وفد الأزهر المسافر إلى الهند صحبة السيد عبد الله العلوي الجفري، وهم ذاهبون إلى النادي لتناول العشاء وسماع خطب الترحيب بمقدمهم. فقام الأمير وليّ العهد وأسرع لاستقبالهم على الرصيف ثم رجع إلى القصر ليكون إلى جانب ضيفه العظيم.

وحول الساعة التاسعة أقبل الوفد لردّ زيارة وليّ العهد فجلسوا ساعة القهوة ثم قاموا مُوَدِّعين وفي مقدّمتهم الزعيم الإسلامي الكبير، يحيط بهم المُشَيِّعون إلى أن ركبوا الباخرة. وأبى المُوَدِّعون أن يفارقوا الأستاذ عندما همّ بالرحيل، فهبطوا إلى الزوارق التي أقبلوا فيها هاتفين للأستاذ الجليل ولوفد الأزهر.

بمباي 28 رمضان 1355 موافق 12 ديسمبر 1936

عزيزي الأستاذ الفاضل محمد شردي أفندي المحترم، حفظه الله وأجلّه،

السلام عليكم سلام مُشوّق لا سلام مودّع. وبعد فقد فارقتني في ساعة متأخرة من ليلة السفر [من بور سعيد إلى عدن] على موعد اللّقاء في صبيحتها قبيل الركوب، وكنت أشفقت عليك من الحضور في هذا الميعاد الباكر مع تأخّرك في السهر والسمر. فأبيت إلاّ الحضور رغم إلحاحي عليك بتركه فانتظرتك في الفندق إلى الساعة الثامنة. وكان موعدك معي السابعة والنصف، وكان الحاج حسن يستحثّني على الإسراع بركوب الباخرة.

ولو كنت أحسب أنّها لا تسافر إلا بعد الساعة التاسعة كما وقع لانتظرتك ساعة أخرى ولو لم تأت لأنّي حريص على الوفاء بمواعيدي. أمّا أنت - وإنّي لك عاذر - فيظهر أنّ وفاءك بالمواعيد في الصباح الباكر غير متيسّر. غير أنّي أرجو أن لا يكون ذلك دائماً إلاّ في رمضان فقط لا غيره من الأصباح.

وعلى كلّ حال، فإنّي لست أعتب عليك بدليل أنّي أرسلت لك يومئذ تحيّتي مع مواطني محمد العربي الدهماني. واليوم أكتب إليك بالإعراب الصريح عن وفائي لعلّك تحتفظ لي بمثله في الغياب كما وفيتنيه في الحضور، بل إنّي قانع منك بما دون ذلك، وقد أقنع منه بأيسر جزء. فقد كتبت إليك في الرحلة الماضية من الهند كما أكتب لك اليوم فلم تجبني لذلك وأمسكت عنك كتبي فيما بعد. وها أنا ذا اليوم أعود فأكتب إليك ولن أكاتبك بعده إلاّ إذا أجبت عن هذا ووفيت.

شردي - إنّي محتاج إلى وفائك في مغيبي أضعاف حاجتي إليك في حضوري لأوثق بك عهد ولائي بإخواني البرسعديّين الذين لا يسعني الوقت للكتابة إليهم جميعاً، وقد يعزّ عليّ أن لا أكون وفيّاً لهم جميعاً مع أن وجودك بيننا صلة وصل فيه الكفاية.

لعلّك يا صديقي لم تنس إرسال الصحافة المصريّة التي تكتب عنّي إلى الهند بالعنوان: محلّ الشيخ عبد اللّطيف عبد الرزاق، شارع عبد الرحمن رقم 317 - بمباي، الذي أمليته عليك قبل ارتحالي من بور سعيد. ولعلّ مراسلي الصحف في عدن لم يكتبوا عنّي شيئاً الى صحفهم، ولا يغرب عنك أنّني لم أطالع صحيفة مصريّة منذ يوم 14 نوفمبر الذي افترقنا في مسائه. وإذا كان يهمّك أن ترسل شيئاً عنّي إلى «الجهاد»، فإنّي أبعث إليك بهذه الرسالة الموجّهة من أحد أخصّائي إلى صحيفة «العصر الجديد» التي تصدر بمدينة صفاقس، عاصمة الجنوب التونسي، لتقتبس منها ما يصلح للنشر في صحيفة مصريّة، إن لم تكن سبقت إلى نشره من قبل. وأرجو أن تضع الرسالة في البريد بعد اطّلاعك عليها ولا تتركها تتأخر، ولك عليّ الفضل والمنّة.

وتقبّل تهانيّ بالعيد مع أشواقي وتحيّاتي وسلامي للأصدقاء كافّة.

عبد العزيز الثعالبي

حفل تكريم الشيخ عبد العزيز الثعالبي
في دار نادي الإصلاح الإسلامي
عــدن

خطبة السيد أحمد محمّد سعيد الأصنج

يا حضـــرات الســادة،

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعــد، فقد جاد الزمان فأطلع لنا من الكواكب أسناها، ومن أعلام الجهاد الإسلامي نورها وبهاها، ومن بحار المعارف أعمقها وأرواها، ومن جمال التاريخ أوسعها نطاقاً وأحراها، ومن بهجة المجالس شمسها وضحاها، فحمداً لك الله على هذه النعمة فما أجلّها وأسماها.

نعم، إنّها البغية التي ينشدها من يريد أن يجتاز الطريق الوعرة ويسلك الجادّة المثلى، ليخدم الأوطان ويقوم بواجبه ليقتفي أثر الآباء والأجداد في العزّة والكرامة والإباء والشمم.

جاد الزمان فأرانا زعيم تونس الكبير الأستاذ العلاّمة مولانا السيّد عبد العزيز الثعالبي الذي لو طفقت أن أصف لكم جهاده وخدماته الجليلة في سبيل وطنه خصوصاً والشرق عموماً لألزمني الحال أن أدوّن الدواوين الضخمة. وأخيراً أقف حائراً لا أدري ما أقول لأن كلّ ناحية من نواحي حياته علم مستقلّ، وأنّى لمثلي أن يحصي فضل من تحدّثت بفضله الركبان فضلاً عن رجال التاريخ وأقدر الكتّاب. فالزعيم المفدّى ليس بالرجل العادي أو المجهول الذي يحتاج

إلى تعريف، ومن هو الغبيّ الذي لا يعرف قدره أو ينكر فضله؟ فأهلاً وسهلاً بمقدمكم السعيد يا خير قادم. فقد قدمت إلى بلاد هي بلادك وبين قوم هم ولا ريب بنوك وبنو أبيك، طالما اشتاقوا لرؤية محيّاكم الزاهر ليستمدّوا من روحكم الطاهرة معنى الإخلاص، بل معنى الشجاعة والإقدام والذود عن الكيان.

وافيتَ فابْتَهَجَتْ أوطانُنا جذلاً   وثغر شمسان بالأفراح بسّامُ
الجوّ صَحْوٌ ووجه الأرض مبتهجٌ   وللعنادل في الأدواح أنغامُ
يا سيّد فابْقَ فإنّ القوم مغتبط   بالقرب منك وأنت الكافُ واللاّمُ
أعِدْ لنا ذكرياتِ المجد مشجيَةً   حتى تعود لمن قد ضلّ أفهامُ

مـولاي،

لقد تنازلتم بتشريفكم إيّانا هذه اللّيلة إلى دار نادينا، فيا لها من مكرمة سيبقى أثرها في النفوس مدى الآباد، وإنّنا لأحقر ممّن يتكرّم بزيارتهم فطاحل الرجال. وإنّما هو الواجب الذي دفعنا أن نتطفّل على سيادتكم بالدعوة لإظهار شعورنا نحو شخصكم الكريم لنقدّم لكم واجب الاحترام اعترافاً بالفضل لأهله، ولنبرهن لكم أن مجهوداتكم السامية قد أثّرت حتى في شباب هذ البلدة الصغيرة وشيوخها، تلك البلدة البعيدة عن الحضارة والثقافة والعلم والعرفان، كي تتأكّدوا، يا صاحب السيادة، أن عملكم قد أثمر، وعن قريب إن شاء الله تجنون ما غرستم وتفرحون به، شأن كلّ مصلح جاهد في الله حقّ جهاده. فتقبّلوا يا صاحب السيادة احترامنا لكم ومحبّتنا فيكم، وزوّدونا بتعاليمكم وإرشاداتكم كما هي سجيّتكم في حلّكم والترحال، واسبلوا يا مولاي على العثرات ثوب سداد.

وفي الختام أهنّئ نفسي وإخواني أعضاء نوادي الإصلاح الإسلاميّة بعدن والتواهي والشيخ عثمان على هذه الصدقة التي قلّ أن يجود بها الزمان، وأشكر حضرات السادة الذين شاركونا الحبور هذه اللّيلة بالاحتفاء بالزعيم الجليل.

فأهلاً وسهلاً بتاج العرب، ونبراس الفضل والأدب، ومرحباً وعلى الرحب والسّعة.

كلمة السيّد صالح علي إبراهيم لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

أيهـا السّـادة:

إني أشكركم على تلبيتكم الدعوة وتشريفكم هذه الحفلة وإني أعتقد أن كلّنا سواء لأنها على الحقيقة دعوة صادرة من تلك الروح السامية روح الزعيم الذي نحتفل به فإنها هي التي دعتنا جميعاً وجلبت قلوبنا إلى حضور هذه الحفلة المباركة.

أيّهـا السادة:

إن الأمم لا تقوم إلاّ بالأفراد الذين وهبهم الله نوراً تستضيء به أممهم بعد المكوث في الظلام زمناً طويلاً ومن هؤلاء الأفراد هو حضرة المحتفى به الأستاذ عبد العزيز الثعالبي الزعيم الإسلامي الخطير أحد دعائم النهضة العربيّة في العالم.

أيّهـا الإخـوان،

إن حضرة الزعيم الجليل قد سارت بذكره الركبان وطبّق صيته الآفاق وأنّى لمثلي أن يترجم حياته أو أن يذكر لكم شيئاً من تاريخه الحافل بجلائل الأعمال ولكن تنازله للحضور بيننا شجّعني على ذكر بعض ما أعرف من الأعمال التي قام بها لخير الإسلام والعرب.

يـا حضـرات الـسادة،

إنّ حضرة الأستاذ الثعالبي هو زعيم تونس العربية، تونس الإسلامية، تونس الخضراء. التي كانت يوماً ما حاملة لواء الحضارة الإسلاميّة وزعيمة الثقافة العربيّة في المغرب. ولكن دار الفلك دورته وإذا بتونس مسودة بعد أن كانت سيّدة متبوعة يتحكّم فيها الأجنبي ويستغلّ خيراتها فسبحان من يغيّر ولا يتغيّر، نعم هذه حالة تونس اليوم بل حالة العالم الإسلامي فلقد سطا الاستعمار وأنشب مخالبه في صميم الشرق وسلّط الأشرار على الأخيار واشترى ضمائر الأمم بأبخس الأثمان أفسد الأخلاق ودهورها إلى الحضيض، ولما رأى حضرة الزعيم الجليل حالة قومه وما هم عليه من ذلّ بسبب تسلّط الغاصب على أوطانهم لم ترض نفسه الكبيرة ولم تطق الصبر على هذا الاستبداد فثار ثورة الأسد من مربضه وهو يئنّ أنين الموتور صائحاً في قومه ألا هبّوا من سباتكم فلقد طفح الكيل وآن الأوان للانتفاض على الظلم والجبروت فلم تك إلاّ عشيّة أو ضحاها حتى رأيت القوم يلبّون دعوته ويقلّدونه زمام أمورهم فنعم القائد ونعم الزعيم.

قام زعيم تونس يطالب بحقوق الشعب المهضومة بقلب ملؤه الإيمان لا يجد الخوف والوجل إليه سبيلاً. صاح في قومه أن الحريّة تشترى ولا تباع وأن الأرواح ستكون ثمناً لها، فلبّى القوم دعوته وكتبوا احتجاجاتهم ضدّ القوى المغتصب بدمائهم الغالية. رأى المستعمر الجبّار أن القوم لن يسكتوا عن حقوقهم المهضومة فأرسل إليهم أساطيله وطياراته ووجّه فوهات بنادقه إلى الصدور فاستقبلها الشعب بثغور باسمة وقلوب مفعمة بالوطنيّة. فلم يطق المستعمر صبراً فامتدّت يده إلى الزعيم وقلّده وسام الشرف الأبدي ألا وهو النفي من تونس مسقط آبائه وأجداده. فهنيئاً لك يا مولاي بهذا الشرف وهذه العظمة التي تنحني لها الرؤوس إجلالاً وإكباراً. فبعد أن كان الزعيم خاصّاً بتونس والمطالبة بحقوقها أصبح عمله عاماً وضالّته الوحدة العربيّة فهو الآن أحد أساطين الحركة العربيّة في العالم.

أيها الزعيم الخطير:

إنا على بعد الشقّة نعجب بك كثيراً ونكبر فيك الإخلاص لقومك العرب والتفاني في سبيل إنقاذهم والعروج بهم إلى أوج العلى وكم كنا نتمنى لو تتيح لنا الفرص للاجتماع بك للإصغاء إلى نصائحك الغالية حتى أراد الله أن يُجيب دعوتنا ويجمعنا بك. فلنا الشرف بوجودك بيننا، فأهلاً وسهلاً. وعلى الرّحب والسعة. سيّدي الزعيم الجليل.

تعلمون أنّ الأمّة الخاملة الجاهلة البعيدة عن العلم والعرفان لا معنى لوجودها إذ الجهل أسّ جميع البلايا النازلة بتلك الأمّة والتي بسبب جهلها تعدم الوسائل للتخلص من الظلم النازل بها. فلذا يا مولاي قد قمنا بتأسيس هذه النوادي في عدن لا لغرض سوى لنشر العلم بين الشباب ومحاربة الجهل الذي أينع وأثمر في هذه البلاد والذي سبّب انقراض كثير من العائلات التي كانت يوماً ما صاحبة المال والنفوذ فيها.

مولاي الزعيم الكبير، إن أغنياءنا لا يهتمّون بتعليم أفلاذ أكبادهم لاعتمادهم على أموالهم. ولكنّي أقول والأسف يملأ قلبي إن تلك الأموال التي يجمعونها بالكدّ والجدّ سرعان ما تتناثر وسرعان ما تتلاشى وتفنى ولو كان الأبناء متعلّمين لعرفوا قيمة الثروات التي يرثونها عن آبائهم ولحافظوا عليها وجعلوها تنمو وتكبر وتتزايد. ليس هذا يا مولاي فحسب بل إنّ هناك أموراً يطول شرحها جعلتنا غرباء في بلادنا لا يحسب لنا حساب ولا يؤبه لنا وذلك بسبب الجهل قاتله الله. إن زرع النوادي في عدن أتى بأحسن الثمرات وأينعها. كيف لا وقد ظهر في عدن شباب عرفوا معنى الوطنيّة والمطالبة بحقوق الوطن ظهر فيهم أدباء وكتّاب وشعراء بل إن الأيّام تمخّضت فأنجبت لنا حتى المؤلفين والعلماء. إن الشباب العدني يهتم اليوم بالعالم العربي أشدّ الاهتمام يعرف ما يجري في مصر والشام والعراق والجزيرة والمغرب والهند وغيرها، يتألّم لتألمها ويفرح لفرحها والفضل لكلّ هذا إنما يرجع لكم لأنكم أولُ مَنْ غرس فكرة

تكوين أوّل نادٍ عربي في هذا الجزء من وطنكم العربي الكبير، ولكم صادفنا من العراقيل التي وُضِعَت في طريقنا لتحيقنا عن الاستمرار في عملنا شأن كلّ عمل حيوي ومشروع خيري ولكنّا سرنا في عملنا غير هيّابين ولا وجلين.

وبالختام أكرّر لكم شكري لتلبيتكم دعوتنا في دار نادينا الذي هو حسنة من حسناتكم بل فكرة من أفكاركم التي تنتجونها كلّ يوم لصالح الإسلام والعرب وإن مدينتنا لفخورة أن يشرّفها رجل اجتمعت فيه أشياء لا تجمع إلاّ في أمّة كاملة لا بل إنك أمّة متمثّلة في شخص بل إنك رمزها وسلام عليكم.

صالح علي إبراهيم لقمان

قصيدة

للشاعر: عبد المجيد محمد سعيد الأصنج

حيّا القروحَ الموقضات النائما   المنشآت من الكلام نسائما
المسهرات عيون من ألف الكرى   المذكرات من القيام مواسما
الآخذات النازعات الساهرات   الباعثات من الخمول صوارما
المحييات لنا وهن دوامل   المنتجات مكانة وعظائما
يذكرن أرباب الشعور مراكزاً   ومعالماً للغابرين بواسما
ضربت رجال الأرض فيها خيامها   قدماً وقدّت بالسيوف جماجما
شمخت فعلمت الغريب تشامخاً   فغدا بغير رحاله متهائما
بأبي أبان الضيم بعد إذ انبروا   بعزائم كالشهب تجري اللازما
حيث الزعامة حيث معترك النفوس   وحيث تلقي للجروح مراهما
شعب حماه الله بالضيف الذي   وافا بني الإصلاح حصناً سالما
عبد العزيز ووارث المجد الذي   جاب الصعاب بوادياً وعواصما
بدرٌ تجلّى فاستدار ضياؤه   لبني العروبة إذ تجلّى باسما
نظمت به الفصحاء كل يتيمة   وبه تذلّل كلّ صعب راغما
وتفاخر الإصلاح منه بمقدم   سعد يجرّ عزائماً وغنائما
بأبي الصبور الثبت نبراس الحجى   من قد حوى في الراسخين دعائما
أحيا الشعوب ولم يزل يسعى إلى   فوق السماك محارباً ومسالما
فكأنما ليل وطالع عزمه   صبح بدا فمحا الظلام الهاجما

وكأن عصر الجاهلية عصرنا   فأتى نذيراً للجهالة هازما
فيه يكاد الدين ينطق معرباً   هذا الذي بالجد أضحى قائما
للضاد يغضب مثل ما يرضى له   ويقيم للحقّ المبين قوائما
لا عيب فيه غير أنه لم يزل   يسقي اللصوص لدى النصوص علاقما
فردٌ ومعناه هنالك أمّة   علم وملخّصه يجرّ معالما
أضحت بنو قحطان تحت لوائه   من كلّ ضرغام يقود ضراغما
فهم اللّيوث الواثبون إذا دعوا   الحاملون مع اليراع صوارما
الخائضو الغمرات في حلق الوغى   الفائقون دراية ومكارما
بهم استبان المجد بعد دروسه   وعلا بهم فوق المجرّة قائما
وأبو الزعامة بين أظهرهم إذا   أمضوا لدى الخطب الشديد جوازما
لم لا وقد شهد الوقائع وهو في   حسن الفتوّة إذا تدرّب حالما
وله يدٌ خطت لكل فضيلة   سبلاً منوّعة تغيظ الظالما
أحيا بنفخ الروح كل رميمة   في تونس الخضراء فاسأل عالما
ملأ العصور رجولة بجهاده   ودراسة ومناقبا ومراسما
إن تلقه لا تلقَ إلاّ فاصلاً   أو باسلاً أو قائماً أو صائما
ميز حيثما تكن الزعامة في الورى   تلقَ الثعالبي للزعامة عاصما
يا بهجة الزعماء أهلاً ومرحباً   بقدومك الإصلاح سنّ كمائنا
فرجت أزمة عصرنا بسماحة القول   المبين فزدنا منه كرائما
وكشفت للأحبار سرّاً مثل ما   أيقظت من بئس المنام النائما
فعليك منْ عدن ومن أبنائها   أسنى التحية راحلاً أو قادما
والأرض أرض الله واسعة فسِر   ولسوف نعطي الفصّ ثم الخاتما

عبد المجيد

الفصل الخامس

المراسلات اليمنيّة

الرسائل المتبادلة بين شكيب أرسلان
والشيخ عبد العزيز الثعالبي حول اليمن

رسالة أولى من شكيب أرسلان[1]

الأستانة 7 يناير 1925

اطّلعت على مكتوب منك ظهر لي فيه أنّه ضائق صدرك ممّا لقيته بمصر ممّا صادم آمالك وضاعف آلامك. والحقّ أنّ الحالة التي جرّها الشقاق

(1) أمير البيان شكيب أرسلان زعيم لبناني من مواليد سنة 1879 نذر حياته للعروبة والإسلام، فشارك خلال سنتيْ 1911 ـ 1912 في الحرب الطرابلسيّة التركية ضدّ إيطاليا، وجاب العالم شرقاً وغرباً للدفاع عن قضايا البلدان العربيّة والإسلاميّة. فزار على التوالي تركيا ومصر وسوريا وفلسطين والحجاز والمغرب الأقصى (طنجة وتطوان)، كما زار فرنسا وإيطاليا وألمانيا وإسبانيا وسويسرا والولايات المتحدة الأمريكية وروسيا. واستقرّ به المقام في آخر الأمر بجونيف حيث أصدر في سنة 1930 مجلّة ناطقة باللغة الفرنسيّة بعنوان: «الأمّة العربية» (La Nation Arabe).

وكان شكيب أرسلان من أشدّ الزعماء العرب اهتماماً بحركات التحرير في شمال إفريقيا. فقد سخّر مجلّته للدفاع عن قضايا المغرب العربي وربط صلات وثيقة بزعمائه أمثال: الشيخ صالح الشريف ومحمد باش حانبه وعبد العزيز الثعالبي والحبيب بورقيبة (من تونس) ومصالي الحاج (من الجزائر) والحاج عبد السلام بنّونة (من المغرب) والبشير السعداوي (من ليبيا).

وفي أعقاب الحرب العالميّة الثانية رجع إلى لبنان حيث أدركته المنيّة سنة 1946.

والمنافسات الشخصيّة بمصر مؤلمة نسأل الله زوالها وأن تستبدل بها سكون الضغائن وتهادن الأحزاب. وعلى كلّ حال، فلو كنت هنا لضاق صدرك أكثر ممّا ضاق بمصر... هكذا قدر الإسلام في هذا العصر أن تكون البلوى عامّة. بلغنا أن الإمام يحيى اختلف مع الإنكليز، ولكن لم نعرف حقيقة هذا الاختلاف، فهل عندكم خبر عنه؟ وهل هناك اعتراف من الإنكليز باستقلال اليمن الخارجي أيضاً؟ وهل للإنكليز شيء من الامتيازات أم ليس سوى إقامة ممثّل لهم في صنعاء ومدّ الخطّ الحديدي من عدن إلى هذه المدينة؟.

نخشى أنّ هذا الممثّل بالتدريج يلعب هناك دوراً... وأن الشافعيّة غيظاً بالزيديّة يطلبون الحماية الأجنبيّة وأن يضيع استقلال اليمن أخيراً كما ضاع استقلال سائر البلاد العربيّة مع أنّ الأمل كلّه معقود ببقاء اليمن. أفلا يمكن ذهاب وفد أنتم فيه للاطّلاع على حقيقة الحال؟ أفلا يمكن عمل شيء يهدأ معه البال؟ يوجد في مصر جمعيّة الرابطة الشرقيّة ومنها صديقنا الأستاذ السيد رشيد رضا، أفلا تتكلّمون معه، لعلّ هذه الجمعيّة تأتي بعمل من هذا القبيل.

يجب إيقاظ اليمن وتشكيل إدارة خلفيّة متّحدة مع إعطاء كلّ قوم حقوقهم في اليمن حتى لا يغتاظ فريق من فريق. ويجب الاهتمام قبل كلّ شيء بإقامة العدل ومراقبة القضاة وإيجاد درجات للمحاكمات، ممّا أعتقد أنه موجود من زمان في داخل اليمن، لأن هؤلاء الجماعة إذا وقعوا يوماً في حرب مع الإنكليز لن يتيسّر لهم ما يلزم من السلاح والعتاد من الخارج. وينبغي أن مثل هذه التشكيلات لا يدخل فيها إنكليزي، وإذا احتيج للمعامل إلى أوروبيين، فليكونوا من الألمان أو من السوريّين أو من أمم لا مصالح لها باليمن. أنا لا أقدر أن أذهب إلى اليمن الآن ولا بدّ لي من سنة بالأقلّ حتى أشاهد العائلة وفيما بعد أفارقهم إلى محلّ وقريباً أذهب إلى مرسين[1] إذ تأخّرت عن الوصول إليها

(1) مرسين: بلدة تركيّة تقع على الحدود السوريّة، أقام فيها الأمير شكيب أرسلان سنتي 1924 و 1925.

بسبب هجوم الشتاء هنا وحصول نزلة لي جعلتني أحتاط لصحّتي.

فماذا يعنيكم من جهة اليمن؟ وماذا تنكرون؟ وسلامي إلى حضرة الأستاذ السيد رشيد [رضا]، وإن تكرّمتم بالجواب فليكن باسمي بواسطة متّى أبناء عمّ تشاليلن خان غلطه الأستانة. وهكذا يصلني أينما كنت.

والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شكيب أرسلان

مقتطفات

من رسالة وجّهها الثعالبي إلى صديقه الأمير شكيب أرسلان بتاريخ يوم الجمعة 18 يناير 1924، جواباً عن رسالة هذا الأخير.

الحالة في اليمن:

. . . علمت أن الأستاذ الشيخ الفاضل كامل أفندي القصّاب ذهب إلى اليمن ومكث هناك مدّة ثم رجع إلى مصر أواخر الشهر الماضي وتلاقينا مرّتين أو ثلاثاً، غير أنّنا لم نتكلّم في موضوع هذه الرحلة حيث كان مريضاً بالحمّى ولم نكن على انفراد ولم تطل إقامته بمصر بل عاد إلى حيفا سريعاً، ولكن بعض أخصّائه أسرّ إليّ أنه عاد من اليمن آسفاً كاسفاً منقطع الرجاء وأظنّك تدرك السبب سواء كان من أثر الحكم الفردي في تلك البلاد المضحكة أو من جرّاء المعاهدة الإنجليزيّة اليمنيّة الثقيلة[1]، وكلاهما مقبوح منذر بالويلات.

فقد نمى إلينا أن الضبّاط الأتراك الذين كانوا ملحقين بالجيش اليمني فُصِلوا منه تلو المعاهدة الإنجليزيّة وأن أولئك المساكين أصبحوا في حالة يُرثَى لها، مع أنّ اليمن كان في أشدّ الحاجات إليهم ولكن الإنجليز لا يريدون بقاءهم لأن وجودهم يكون حجر عثرة في سبيل نفوذ بريطانيا في المملكة التي يعبّرون عنها بالهند الثانية. وفوق ذلك فليس هناك من يجهل أن الإنجليز لا يعاملون أمّة

(1) لقد تبيّن الشيخ الثعالبي أثناء رحلته إلى اليمن أنّ خبر هذه المعاهدة لا أساس له من الصحّة.

مستضعفة إلاّ على قاعدة حمايتها والاعتراف بسيادتهم عليها وسدّ كلّ منافذ الاستقلال في وجهها. وحسبي على ذلك دليلاً صكوك المعاهدات التي أبرموها قبل الآن مع أكثر أمراء الجزيرة. فلديّ مجموعة رسميّة وكلّها شواهد صريحة على ما يُعرَف بالاستيلاء الضمني في القوانين المعروفة بين الملل، وهي التي تستند إليها الدول الاستعماريّة في تعيين وتحديد مناطق النفوذ وإذا كان فيها لُبس أو غموض فإن للمستعمر وحده الحقّ في إيضاحها وتفسيرها حسبما يشتهيه وما تأتي به الظروف.

وهل يسع الإنجليز اليوم أن يَدَعُوا اليمن يتمتّع بالاستقلال؟ ولهم فيه مآرب كثيرة وبقيّة دول أوروبا في شغل شاغل عنها بما لديها من المشاكل السياسيّة والماليّة والعنصريّة. وكيف نستطيع تحسين الظنّ في الإنجليز وأطماعهم معروفة حتى يعاقبوا الإمام يحيى على ضمان استقلاله الخارجي وهم جادّون في تقويض استقلاله الداخلي؟ ومن للإمام بمن يطلعه على مغامز المعاهدات حتى يتنبّه للخطر منها على بلاده ويحتاط لاستقلاله الخارجي؟ وهو ما أكِلُ جوابه إليك. . .

عبد العزيز الثعالبي

رسالة ثانية من الأمير شكيب أرسلان

مرسين 2 مارس 1924

سيّدي الأخ الأجلّ والأفضل،

شرّفني كتابكم رقم 18 يناير وحمدت الله على صحّتكم وفهمت منه أنكم لم تقيموا بدون شغل هذه المدّة، بل وفّقكم الله إلى عمل كبير يتعلّق بمهد الإسلام [الحجاز] كان يخالج صدور الكثيرين ولا يرون منه مخرجاً، مرض كان يشعر به جسم الإسلام ولا يجد له علاجاً، بل لا يجد طبيباً حاذقاً يشخّص له ذلك المرض ثم يأتي له بالدواء.

. . . **قضية اليمن**: عدنا فسمعنا أنّه لم يتمّ الاتّفاق بين الإمام والإنكليز. وواحد عربي أقام مدّة باليمن وكان من أكثر الناس اطّلاعاً على دخائلها، وهو اليوم بمعيّة سيّدي أحمد الشريف[1]، يؤكّد لي أنّ الإمام لا يمكن أن يتّفق مع الإنكليز ولا مع غيرهم من الأجانب، لأنّ هذا مخالف لشروط الإمامة في مذهب الزيديّة، وأنّ هذه الأخبار كلّها رشح مساعٍ يقوم بها بعض وكلاء الإمام مثل عبد الله العرشي وأمثاله، وأنّ مِنْ هؤلاء المعتمدين مَنْ هم معروفون بعدم الصدق والاستقامة ومَنْ يقبض الرشوة، والإمام يعلم ذلك ويفوّضهم ظاهراً ولا

(1) أحمد الشريف السنوسي (1867 ـ 1933): مجاهد ليبي من أسرة السنوسي المشهورة، ساهم في الحرب الطرابلسية ضدّ الإيطاليّين سنة 1911، وإثر إبرام عقد الصلح بين إيطاليا والخلافة العثمانية تحوّل إلى تركيا حيث أقام ببلدة مرسين. وبعد إلغاء الخلافة في 3 مارس 1924 غادر تركيا واستقر بالحجاز إلى أن توفّي بالمدينة المنوّرة سنة 1933.

يسمع كلمتهم باطناً، بل يجعلهم واسطة لتعليق الآمال وعدم قطع العلاقات.

ويقول لي هذا الرجل إنّه لا يمكن أن يقبل الإمام بمدّ خطّ حديد من عدن إلى صنعاء، وأن لا يجوز تصديق هذه الأخبار ولو جاءت في كلّ الجرائد، فأنتم بمصر أقرب إلى اليمن، وربّما أتتكم أخبار فطابقوا بينها وبين هذه. . .

. . . ألقيت مرساتي في مرسين وصرت من المرسيّين، وقريباً تأتي عائلتي التي لم أشاهدها من ستّ سنين لأنّ الشرق كلّه كان تحت الاحتلال وسيّدتي الوالدة تأبى على العائلة أن تسكن في بلاد غير الإسلام، فالآن استأجر بيتاً هنا قريباً يأتون إن شاء الله. وإن تفضّلتم فالجواب فليكن بمنزل دولة السيد [أحمد شريف] السنوسي لأنه أصرّ على نزولي عنده إلى أن تكون العائلة وصلت. وسلامي إلى الأستاذ رشيد رضا والأستاذ الشيخ حسين الخضر التونسي[1]. وأطال الله بقاءكم للإسلام والمسلمين ولأحبّتكم. . .

أخوكم شكيب أرسلان

(1) الشيخ الخضر حسين (1873 ـ 1958): هو أحد رجال الحركة الوطنيّة التونسيّة في مطلع القرن العشرين. باشر التدريس في جامع الزيتونة والمدرسة الصادقية وأصدر في سنة 1904 أوّل مجلّة ثقافيّة تونسيّة «السعادة العظمى». وفي سنة 1912 غادر البلاد التونسيّة نهائياً، إثر إبعاد زعماء حركة الشباب التونسي إلى الخارج. فاستقرّ في أوّل الأمر بدمشق ومنها انتقل إلى الأستانة حيث كان يقيم عدد من الوطنيّين التونسيّين نخصّ بالذكر منهم: الزعيم علي باش حانبة والشيخَيْن صالح الشريف وإسماعيل الصفايحي، وقد باشر خطة التحرير باللغة العربية في وزارة الحربيّة التركيّة. وعلى إثر اندلاع الحرب العالميّة الأولى كلّفته الحكومة التركيّة بالقيام بمهمة خاصّة في ألمانيا صحبة صديقَيْه صالح الشريف وإسماعيل الصفايحي.

ولما وضعت الحرب أوزارها استقرّ نهائيّاً بالقاهرة منذ سنة 1920، فدعي إلى التدريس بالجامع الأزهر وقام بنشاط سياسي وثقافي مكثّف، حيث أسّس بالخصوص «جمعية الهداية الإسلاميّة» و«جمعيّة الدفاع عن شمال إفريقيا». وفي سنة 1952 عيّنته حكومة الثورة شيخاً لجامع الأزهر، ثم استقال من منصبه سنة 1954 للتفرّغ لنشاطه العلمي والثقافي.

(رسالة بدون تاريخ)

حضرة الأستاذ الأكبر الزعيم الثعالبي لا زال برغد وافر

سيّدي الأستاذ،

أكتب إليك وأنا تَعِب منهوك القوى بعد رحلة شاقّة استغرقت شهرين ونصف على ظهور الإبل في تهامة وجبل عسير والمملكة الإدريسيّة وفي اليمن ـ السعيد ـ كما يقولون، البائس، كما أقول أنا.

أكتب إليك يا أستاذ والأسى يقطع أوصالي لما شاهدته في تلكم البلاد من آثار الانحطاط وملازمة الفطرة الأولى على بدء الخليقة. ولا ريب من أن سيّدنا آدم سوف يقدّر لهم إخلاصهم لاحتفاظهم بآثاره وسيرهم على سنّته الأولى.

لقد أصبحت خلال رحلتي هذه منقطعاً عن العالم المتمدّن بكلّ معاني الكلمة، ومع ذلك فلقد كنت أسمع باسم الثعالبي في وديان تهامة وعلى هضبات عسير. على أنّك يا أستاذ لم تكن وحيداً إذ ذاك بل كان لك شريكاً يلازمك أنّى سرت، ألا وهو الأمير شكيب [أرسلان] كبيرنا سنّاً وبياناً، وهكذا كنت أتلذّذ بالتحدّث عنكم في رحلتي.

على أنّي ما كدت أصل الحديدة إلا وجاءني السيد محمد بن عقيل الحضرمي بالصحف ومنها «الشورى» الغرّاء، فقرأت أخباركم وشكرت ذلك الأستاذ الفاضل لطيب حديثه عنكم وعن أخينا الأستاذ أبي الحسن [محمد علي

الطاهر صاحب الشورى]، بحضور سيف الإسلام محمد.

سوف تقرأون أخباراً عنّي في الشورى وأرجو أن تذكرونا بخير.

ملاحظة: أسافر اليوم إلى صنعاء وأنحدر منها إلى لحج وعدن.

السائح العراقي
[يونس بحري]

الحمد لله وحده

من عدن إلى بومباي في 27 ربيع الأوّل 1343 هـ/ 26 أكتوبر 1924 م

حضرة جناب الماجد الهمام، وقدوة الأكابر الفخام، الكامل، المتحلّي بأحسن الشمائل، الأستاذ الشيخ عبد العزيز الثعالبي المحترم دام علاه.

بعد السلام الأسنى، والتحيّات المباركات الحسنى، تخصّ حضرتكم السنيّة فرداً ومثنى. توجّهتم من طرفنا وخلّفتم لنا الوحشة الزائدة، ربّنا لا يجعله آخر العهد بكم، وأن يكون بلغتم السّلامة بوصولكم إلى بومباي وأنتم في أشدّ حال.

وبعد توجّهكم وصلتنا رزمة جرائد من مصر مقدّمين ذلك لسيادتكم بعد وصولها، إن شاء الله تشرفون على ذلك وجنابكم بخير، وتفيدونا بذلك للمعلومة. وإذا وصلت كتب وجرائد لجنابكم سأنقلها لسعادتكم إلى البحرين.
كونوا براحة الخاطر.

هذا ما لنا رفعه ومزيد سلامنا إليكم وإلى من تودّوه، كما هو لكم من حقّ سيّدي الوالد وسيّدي العمّ والمحبّين عموماً. والباري يحفظكم والسلام.

حسنعلي

حمداً وشكراً :

حضرة الأستاذ الأكبر الزعيم الثعالبي [illegible]

سيدي الأستاذ :

[illegible]

السائح العراقي

صورة عن رسالة السائح العراقي

رسالة إلى السيّد أحمد مريود[1]

البحرين يوم 12 جوان 1925

حضرة الهمام الكامل بطل القضيّة العربيّة ونابغتها القدير الصديق الوفيّ أحمد بك مريود أيّده الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد فقد كاتبتكم لآخر مرّة من مدينة مراد آباد يوم 13 جانفي الماضي ردّاً على كتابكم الثاني الوارد إلى بومبي، وأسفت الأسف كلّه عن تخلّف الكتاب الأوّل في البحرين المرسل بعنوان الشيخ عبد الرحمن القصيبي وكيل السلطان عبد العزيز ابن السعود حيث شوّقتني للاطّلاع عليه. ولما وصلت إلى هذه الجزيرة يوم الأحد الماضي [7 جوان 1925] سلّمني إيّاه في جملة ما سلّمنيه من الكتب الواصلة إليّ بعنوانه في البحرين ولم يتخلّف منها كتاب واحد، وهي أمانة فائقة جديرة بالشكر والإعجاب، وإنّي أذكر كل هذا تنويهاً بهمّة هذا الرجل.

قرأت كتابك الأوّل فألفيته شرحاً وافياً لآرائك الثاقبة التي أجملتها في كتابك الثاني، وقد أعجبت بما أبديته فيه من الفكر الناضج أيّما إعجاب،

(1) أحمد مريود (1887 ـ 1926) أحد زعماء الحركة الوطنيّة السوريّة، شارك في الثورة العربيّة الكبرى التي قادها الشريف حسين ضدّ الأتراك. ولما أقام الفرنسيّون نظام الانتداب في سوريا شارك في مقاومتهم ثم هاجر وطنه واستقرّ في بغداد.

خصوصاً تبرّمك من الحريق المشتعل في الحجاز ووقوده عناصر استقلال الأمّة العربيّة المسكينة. وحريّ بكلّ عربي صميم أن يجعل شعاره البراءة من هذه الفتنة ومثيريها، وأحرى بذلك النابغة الفذّ الذي انقطع لخدمة القضيّة العربيّة وبذل في سبيلها وصيانتها هناءه وحياته. وإنّي لأقاسمك الألم والتوجّع على استمرار هذه الكارثة في الحجاز وأشاطرك الرأي في وجوب الإسراع بإخمادها، لأنّ أشدّ ما يحاذره المخلصون أن تعقبها فتنة أخرى ألعن منها يرتّبها الأعداء، فتلتهم الدماء الباقي لنا من الأمل في تكوين الوحدة العربيّة التي تمخّض عنها الشرق منذ زمن بعيد ويريد الاستعمار الأوروبي خنقها قبل خروجها من المهد.

إنّ للسياسة الأوروبيّة أصباغاً وألواناً كثيرة، ففي كلّ حادثة تبدو لنا بلون قد يخدع بها العربي الساذج الذي لم يتعوّد ممارسة الأوروبيّين. وأنت تعلم أنّ أغلب أمراء العرب أكثر انخداعاً من غيرهم واغتراراً بتلك الأصباغ. فقد يغترّ ابن السعود بها اليوم كما انخدع بذلك الحسين بن علي [شريف مكّة السابق] بالأمس. ورأيي المختمر أنه انخدع وتورّط ولم يكن يتوقّع من قبل أن في بني عمّه رماحاً مشرعة لا تنكسر ولا تنثني، وأن الأمير علي [ابن الحسين] لا يعجم عوده ولا تلين قناته...

إنّ إفناء العرب بالعرب هي سياسة شرعها قدماء الاستعماريّين من قبل أمثال الفرس والرومان واليونان والحبشان وغيرهم لإذلال وامتلاك بلادهم السعيدة، ولا غرو أن ينسج الاستعماريّون المعاصرون على منوال من تقدّمهم، ولحوادث الأمم كما لا يخفى عنك نظائر وأشباه، وما أشبه الليلة بالبارحة...

وأفضل وسيلة أراها ممكنة للخروج من هذا المأزق الحرج هي عقد مؤتمر عربي يتألّف من أئمة العرب وسلاطينهم وشيوخهم مثل الإمام يحيى إمام اليمن وإمام عجمان وسلطان لحج وأمير المكلا والكثيري وأمير حضرموت وسلطان مسقط وأمير دبيّ وأمير أبو ظبي وشيخ البحرين وشيخ قطر وشيخ الكويت وغيرهم من أقطاب الأمّة العربية ورؤسائها أصحاب الكلمة

النافذة والرأي المسموع. ينعقد هذا المؤتمر إمّا في الكويت أو في عُمَان أو غيرهما من الإمارات العربيّة المستقلّة التي لا يهيمن عليها مستعمر، يقرّرون فيه إنهاء هذا الحريق الطاحن ويقترحون وضع أساس لحلف عربي تحترم فيه مقدّرات هذه الأمّة وتُقرّر حقوق الذاتيات المحليّة الخاصّة بكلّ فريق إلى أن يفنيها الزمن بواسطة الثقافة المليّة العامّة في الذاتية القوميّة، وتصير أمّة واحدة لها حكومة متّحدة واقتراح تشكيل محكمة عربيّة دائمة تمنع عدوان رجال القبائل بعضهم على بعض وتحقن دماءهم من فواجع الحروب بينهم في المستقبل.

لذلك أقترح عليك، اعتداداً بهمّتك ونشاطك أن تسارع لعقد لجنة تحضيرية تؤلّفها من شيوخ العراق الذين يعنى بهم يضعون قواعد هذا الاجتماع وأحكامه بطريقة تكون عصاماً له من الإخفاق ويتولّون الدعوة لحضور هذا المؤتمر. وإذا وُفّقت لإنجاز هذا الأمر فإنّك تكون قد قرنت لأعمالك السالفة عملاً عظيماً يخلّد لك أجمل أثر في تاريخ تجدّد الأمّة العربيّة، ولا إخالك إلاّ فاعلاً بإذن الله.

أتممت سياحتي في الهند، ومدارسة أحزابه ومذاهبه السياسيّة والاجتماعيّة ومارست أفكار زعمائه، مسلمين ووثنيّين رغم حالتي الصحيّة وعدم مفارقة الحمّى منذ كنت في دلهي. كما أخبرتك في كتابي الماضي سافرت من الهند أواخر أبريل [1925] إلى مسقط، فمكثت بها 15 يوماً ثم غادرتها إلى دبيّ، فأقمت بها مثل تلك المدّة، وقد تسنّى لي أن أجتمع في هاتين النقطتين بأكابر رجال عُمَان وبني إياس القحطانيّين، ورأيت أكثرهم متأثّرين بالروح العربيّة ولا يحتاجون إلاّ لجمعيّة كافلة وترتيب منظّم. وقد غادرت أواخر الأسبوع الماضي دبيّ، ونزلت هذه الجزيرة [البحرين] في بيت الصديق الوفيّ الشيخ عبد الرحمان الزيّاني، وبعد استيفاء البحث عن أحوال هذه الجزيرة أنتقل إلى الكويت ومنها إلى البصرة ثم إلى دار السلام [بغداد]، حيث ألاقيكم وأروي نفسي العطشى إلى لقاكم.

هذا وقد شقّ عليّ كثيراً انقطاعك عن مكاتبتي أرجو أن يكون المانع خيراً. ولولا أنّي كنت أقرأ أخباراً عنك في جريدة «الشورى» لغلب على ظنّي أنّكم فارقتم العراق. وأقصى ما أتمنّاه أن لا يكون انقطاعك عن ملل من صديقك المحبّ المخلص.

عبد العزيز الثعالبي

عدن 20 رمضان المعظم 1345 هـ [مارس 1927 م]

سيّدي الفاضل زعيم الشرق ونبراس الفضل السيد عبد العزيز الثعالبي.

تحيّةً وسلاماً عليكم ورحمة الله وواجب الاحترام لشخصكم الكريم. اللّهَ أرجو أن يكلأكم بعين عنايته، آمين.

وبعـد، فإنه تأبى النفوس الشمّاء والأرواح الحيّة المتوقّدة عزماً وحبّاً خالصاً إلى الطموح، إلاّ العلى، وتخليد ذكرها في القلوب والأفكار، بل تأبى أن تصل إلى ذرى المجد بمفردها، فلذا تراها عاملة لإسعاد المجتمع البشري، مجتذبة نحوها كلّ روح أخرى ترى فيها شمائلاً توّاقة لارتقاء سلّم السؤدد العالي، ولا إخال بأنكم رأيتم شيئاً من ذلك في الشبيبة العدنيّة. بيد أنكم ما عدا هذا فقد قمتم لدى بقائكم بين ظهرانينا مشجّعين لنا حتّى أنّنا أبرزنا إلى حيّز الوجود نادينا «نادي الأدب العربي» يوم 10 شعبان الماضي. ولقد تمّ الاحتفال بافتتاحه طبق المرام بحضور زبدة من أفاضل عدن ونخبة من شبّانها الناهضين بفضلكم. فكانت ألسنتنا تكرّر ذكركم، شاكرة فضلكم العميم، فلا زلتم من دعائم النهضة العربيّة، بارك الله في أمثالكم.

ونرجو أن تتكرّموا علينا بإرسال رسمكم الكريم كي نضعه في نادينا أنموذجاً للتضحية في سبيل الإنسانيّة فنتابر في نيل مقاصدنا.

[وهذه عناوين المواضيع التي سيدرسها النادي]:

1 ــ توثيق عرى الرابطة العربيّة.

2 ــ رفع منار الأدب العربي.

3 ــ تخليص اللغة العربيّة من الدخائل المشينة.

4 ــ انتشال الشبيبة العربيّة العدنيّة من وهدة السقوط.

5 ــ تأسيس جريدة عربيّة في عدن.

6 ــ تأليف تاريخ لعدن واليمن.

واقبلوا يا سيّدي فائق احترام أعضاء نادي الأدب العربي ومنهم الوالد علي إبراهيم لقمان رئيس إدارة الدولة العربيّة في عدن وولده محمد علي إبراهيم الذي لم يسعده الحظّ بالتشرّف بمعرفتكم شخصيّاً. ودمتم.

مدير نادي الأدب العربي، عدن

محمد علي إبرهيم لقمان

لحج في 11 محرم 1346 هـ [11 يوليو 1927 م]

حضرة الفاضل النبيل الأستاذ الجليل سيّدي الزعيم عبد العزيز الثعالبي - حفظه الله تعالى - آمين،

أهديكم فائق سلامي الممزوج بلطائف الاشتياق وبديع احترامي المشتمل على نفيس الإعجاب ولا زال ذاكراً ليالي وفودكم إلى هذه الديار وما كان في تلك المجالس الزاهية بوجودكم العاطرة بشهودكم. وقد تلقّيت باهر خطابكم في عزيز كتابكم وتلوته بكلّ سرور مقدّراً ثناءكم على نادينا الصغير [نادي الأدب العربي - عدن] ومجهوداتنا الحقيرة. وإنّي وجميع الأعضاء مَن عرفتموهم ومن لم تعرفوهم نشكر فضيلتكم على كلّ حال. وقد فهمنا ما إليه أشرتم من خصوص الجريدة، ولَنِعْم ما ذكرتم فهي العضد الأكبر بما يسير بالأمّة في طريق العلا وهي عنوان التقدّم والنهوض. هدى الله القائمين بها إلى السداد، ووفّقهم لنفع أمّتهم والبلاد.

إلاّ أنّ العقبات كثيرة، والهمم قصيرة، والأقطار نائمة. ولكنّا وجميع الأعضاء إن شاء الله تعالى سنبذل في جميع الأحوال جهد المستطيع، سائلين الله تعالى التوفيق إلى هذا العمل الرفيع، ونرجو من فضيلتكم أن لا تنسونا على الدوام والاستمرار بما يحرّك شعور الواجب نحوكم لأنّ لكلماتكم تأثيراً عظيماً في جهتنا وعلى أصحابنا، حقّق الله الآمال.

ثمّ إنّه بمناسبة حلول العام الجديد أقدّم لكم فائق وأؤكد احترامي مع

صادق التمنّيات ونسأله تعالى أن يجعل قدومه قدوم خير بالسعادة الدائمة لأوائله وخواتمه، آمين.

الكتاب الذي لسموّ السلطان قدّمته له وطيّ هذا جوابه مع السلام الجزيل لكم من سموّ مولانا السلطان وأخيه الأمير أحمد والأمير مهدي وفضل وسيّدي الوالد[1] وكافّة الأعضاء. وفي الختام تفضّل بقبول تحيّاتي وأشواقي ودمتم.

المخلص

عبد الله علوي الجفري

(1) السيد علوي الجفري وزير سلطنة لحج.

بسم الله الرحمن الرحيم،

عدن في 15 رمضان سنة 1347 هـ / موافق 24 سبتمبر سنة 1929 م

حضرة معالي الفاضل ومولاي صاحب السيادة الأستاذ عبد العزيز الثعالبي حفظه الله وأعلى شأنه، آمين.

وشريف السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام والسؤال عن عزيز خاطر العاطر جعلكم الله بخير وعافية. وإن سألتم عن حال محسوبكم فللّه الحمد والمنّة كما يُرام.

أعرض لمولاي، بينما كنت أطالع إحدى الجرائد التي تحصّلت عليها من بعض الأصحاب على سبيل العارية، وجدت بها ما أسرّ الخاطر وأبهجه. وذلك أنّ جلالة ملك مصر عيّن سيادتكم عضواً فخرياً في جمعية رابطة الشرق. ولهذا أقدّم لفضيلتكم تهنئتي القلبيّة بهذا المنصب العظيم وأتمنّى لكم طول العمر والسعادة والصعود إلى أعلى الدرجات. وبهذه المناسبة أبارك لكم بهذا الشهر الكريم ومقدّماً أهنّئكم بقدوم العيد السعيد أعادنا الله وإيّاكم كلّ عام بخير وعافية على ما يحبّ ويرضى ذو الجلال والإكرام.

مولاي، عندما سيادتكم شرّفتم عدن وعدتموني بإرسال جريدة السياسة للحقير وفي مقابل ذلك أرفع لها الأخبار اللازمة، ومضت مدّة طويلة من بعد سفركم ولم أتشرّف بتلك الجريدة، وعند البحث وجدت أنّ سيادتكم أوفيتم بما وعدتم ولكن من سوء الحظّ صدرت الجريدة تحت عنوان حسن جعفر بعدن، وهذا ليس عنواني بل عنوان شخص آخر. فصار الغير يتمتّع بها ومحسوبكم صار صفر اليدين، فإذا أمكن لسيادتكم ولا عليكم كلفة بأن تتكرّموا بتنازلكم بتحرير

أمركم الكريم أن يكون إرسال الجريدة المذكورة تحت عنواني الحقيقي وهو حسين بن محمد صالح جعفر بعدن. وبهذا الفضل العظيم سأكون مديناً لحضرتكم بالفضل والمعنونيّة.

وهذا ما لزم رفعه إليكم. وفي الختام أرجو قبول سلامي وفائق احترامي وبما يلزم لسيادتكم من الخدمة شرّفونا والله يحفظكم ويديم بقاءكم ودمتم محروسين.

محسوبكم الحقير

حسين محمد صالح جعفر

الحمد لله،

من المكلاّ (حضرموت) في 22 جمادى الأولى 1350 هـ [سبتمبر 1931 م]

السيد السند الحميد الشِّيَم، الأستاذ العلاّمة عبد العزيز الثعالبي أطال الباري بقاءه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، سلامٌ يشفّ عمّا في الفؤاد من الوداد ويرفع إليكم من وراء البحار المترامية الأطراف مزيج الحبّ والولاء والإجلال والاحترام. وإلى المولى سبحانه نبتهل في أن يديمكم مغمورين بفضله، ملحوظين بعين عنايته أنتم ومن لاذ بكم أو تشبّث بجنابكم. وقد كنّا قدّمنا لحضرتكم كتاباً من سنغافورة نعلمكم فيه بعزمنا على العودة إلى وطننا المحبوب. والآن وقد منّ الله وله الحمد علينا بالوصول إلى المكلاّ التي هي من موانىء حضرموت، لم نشأ إلاّ أن نزفّ إلى سدّتكم نبأ وصولنا واتّفاقنا ببعض الإخوان الذين تلقّونا بمزيد الحفاوة والجذل، مؤمّلين منه سبحانه أن يبعث همّتكم على السياحة في هذه الأصقاع ليتاح لنا بكم الاتّفاق وتستمدّ البلاد من نفثاتكم.

وقد رأينا أنّ بحضرموت كميّة غير قليلة من الآثار القديمة ممّا تركته عاد وحِمْيَر، ولو تسنّى وجود شخص أثري يعرف كتابة حمير ولغتها لأدركنا فوائد جمّة من الحفر على هذه الآثار. فعسى أن تعرفوا أحداً يلمّ بذلك إلماماً كافياً ويرضى أن يصل إلينا، وعلينا مصاريف قدومه وعوده وما يلزمه. وأيضاً نعلمكم أنّ بلادنا جديرة بأن تكون زراعيّة لطيب تربتها، غير أنّ مياه السيول والأمطار

تذهب فيها سُدًى، لاختلال نظام التوزيع وعدم وجود الترع والسدود بها. فلو تفضّلتم بالبحث عمّن هو متضلّع في هندسة الريّ ويرضى بخدمة وطننا فتفيدونا بذلك وبما يشترطه علينا. وبذلك تتّخذون عند شعبنا أيادي بيضاء تُضاف إلى خدماتكم الجليلة للإسلام والمسلمين. ونحن في انتظار جوابكم عمّا ذُكِر. واقبلوا منّا فائق الاحترام ودمتم، والسلام.

عبد الرحمان بن شيخ الكاف

الحمد لله، من تريم (حضرموت) في فاتحة القعدة 1350 هـ [مارس 1932 م]

الأستاذ الجليل مولانا عبد العزيز الثعالبي أدام الله عزّه، تحيّة وسلاماً.

وفي أشرف الأوقات تشرّفنا بتلاوة كتابكم الكريم الذي ملأ العين قرّة والقلب مسرّة، والمبشّر بها لهذا العاجز من المكانة في سويداء المولى أبقاه الله.

فالحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات. هو ذلك الكتاب المحرّر في 29 رمضان والذي لذّ وطاب حتى تكرّست منّا الأوقات الغير القليلة في تكرار مطالعته، والمكرّر يحلو، وإنّنا لنتتبّع بلهف شديد أخبار الأستاذ ونرتاد ما يُؤثَر عنه سواء من الصحف أو من الأفواه والمولى الأستاذ جدير بالتهنئة لما اشتملت عليه حياته المباركة من خدمة الشرق والإسلام، فنسأل الله سبحانه أن يزيده من فضله العظيم. ورسالتكم لنا هي في نظرنا رسالة ثمينة لها قدرها واعتبارها، وإفادتها قيّمة كافية صائبة، فنشكر مولاي على اعتنائكم واهتمامكم.

ونلاحظ أن حضرة مولانا الأستاذ لم يشأ أن يبشّرنا بعزمه على الهبوط على بلادنا القاحلة المجدية، مع أنّنا تمنّينا ذلك في كتابنا له. والخرائط التي ألمعتم إليها لدرس مواقع المياه سنبحث عمّا يناسب بالمعنى الذي يتطلّبه من أشرتم إليه، ونرسل الآن إليكم فقط خريطة عامّة نؤمّل أن تقوم ببعض الشيء.

هذا وتكرّموا بقبول تحيّاتنا واحترامنا ورجاءنا بقرب التلاقي.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

من المشتاق إليكم

عبد الرحمان بن شيخ الكاف

عدن 7 رمضان 1352 هـ [24 ديسمبر 1933 م]

حضرة الوالد الكريم مولاي الزعيم الإسلامي الجليل السيد عبد العزيز الثعالبي، حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله.

وبعد، أرجو أنكم تمتّعتم أثناء السفر إلى بمبي برحلة جميلة لا يشوبها نصب، وأرجو أنكم استلمتم مكاتيبكم والجرائد كلّها في البابور [الباخرة]، لأنّي سلّمتها إلى ضابط في المركب عندما كانت الباخرة على أهبة الإقلاع من عدن، حيث لم يتسنّ لي الوصول إلى طرفكم ساعتئذ، وكتبت له اسمكم الكريم ونمرة الغرفة. عرّفوني بخصوص ذلك للاطمئنان.

نذكركم يا سيّدي وسنذكركم دواماً لأن بقاءكم بيننا هذه المدّة القصيرة تركت أثراً وأيّ أثر في النفوس وسنعمل بنصائحكم الثمينة، فزوّدونا مولاي ولا تنسونا فنحن أحوج لإرشاداتكم حاجتنا للماء والهواء.

الأخ محمد أحمد نزيه يتوجّه على إثركم اليوم صاحبته السلامة.

الإخوان في نوادي الإصلاح الإسلاميّة في عدن والشيخ عثمان والتواهي يهدونكم أزكى التحيّة، وكذا الإخوان خالد عبد اللّطيف وسالم باسودان وجعفر علي أمان من نادي الأدب وأيضاً السيد علوي الجفري والشيخ الفاضل العلاّمة خير الدين علم الدين (شيخ البهرى) في عدن.

وبالختام تفضّلوا يا مولاي بقبول فائق الاحترام.

من ولدكم المخلص

أحمد محمد سعيد الأصنج

عدن 21 رمضان سنة 1352 هـ [7 يناير 1934 م]

حضرة الفاضل الزعيم الإسلامي العظيم الأستاذ عبد العزيز الثعالبي،

تحيّة واحتراماً وسلاماً.

أمّا بعد، فقد تلقّيت رسالتكم الكريمة التي تفيض إخلاصاً ووفاءً للقضيّة العربيّة، فكانت محفزة لنا على المضيّ في الجهاد تحت رايتكم راية العروبة وعلمها الخفّاق. وإنّي كجندي في جيش الإسلام اللّجب أراني مدفوعاً بواجب الجهاد المقدّس لكي أقدّم بين أيديكم ولائي وإخلاصي، وأتعهّد بأداء الواجب الذي عليّ نحو رفع رأس هذا الدين ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

وإنّي أكاد أذوب خجلاً ممّا أفضتم علينا من الثناء لقيامنا بالواجب نحو شخصكم الكريم. إنّ ذلك لدليل بيّن على سموّ وحكم ونبل مقصدكم، ما دام أن الواجب لا يحتاج إلى شكر أو كما يقولون: «لا شكر على واجب». وكم كنّا نتمنّى لو قمنا بالواجب حتى نستوجب ذلك الثناء. غير أنه لا يسعني إزاء ذلك العطف الأبوي إلاّ أن أتقدّم فأثني على تلك الشهامة العربيّة وذلك الخلق القويم المقتبس من نور الهداية الإسلاميّة، زادكم الله قوّة تمكّنكم من الفوز في مشروعكم الجليل ومهمّتكم العالية، وتوفيقاً في كلّ أعمالكم المبرورة.

إن عدناً ـ يا سيّدي ـ تلك المدينة التي خيّم الجهل على ربوعها بفضل رسوخ قدم الاستعمار ـ أزال الله كابوسه ـ قد شعرت بالواجب الذي عليها لكم، فقامت تشكر لكم ذلك الصنيع وهو بثّ الروح الوثّابة في الشباب الذي استيقظ مندهشاً إذ وجد نفسه في بحر من الجمود لا ساحل له، فطفق يتلمّس المخرج من مأزقه

الحرج، ولا شكّ أن انتشار هذه الروح سيكون له الأثر الأكبر في رفع مستوى القطر أدبياً ومادياً.

أما طلبكم تحرير قائمة بأسماء الأشخاص الذين لبّوا الدعوة في حفل تكريمكم مع نصوص الخطب التي ألقيت لإدماجها في رحلتكم، فسوف نقدّم لكم ذلك بعد جمعها. وهنا يجمل بنا أن نسجّل لكم هذه المأثرة الجليلة التي ترفعون بها رأس عدن عالياً أو تضعونها في مصافّ البلدان التي تستحقّ الذكر بعد أن قضى عليها سوء الطالع فظلّت ترسف تحت قيود الذلّ والاستعباد وبقيت أزماناً عديدة في زاوية النسيان بل الإهمال. والشباب العدني يتطلّع إلى ذلك اليوم الذي تظهر فيه رحلتكم الشيّقة ويقدّر الجهود الجبّارة والمساعي الجليلة التي تبذلونها في سبيل رفع شأن الأمّة العربيّة والإسلام. فلا زلتم ذخراً للإسلام والمسلمين، ولا زالت أعمالكم مقرونة بالنجاح التامّ. وفّقنا الله جميعاً لصالح الإسلام والمسلمين.

وختاماً تفضّلوا يا سماحة الزعيم بقبول تحيّات أعضاء النوادي الإصلاحية، ولا زلتُ المخلص.

أحمد محمد سعيد الأصنج

نادي الأدب العربي

بعــدن

عدن في 7 يناير 1934 م/ موافق 21 رمضان 1352 هـ

مولاي الأفضل وسيّدي الأكمل الزعيم الإسلامي الكبير السيّد عبد العزيز الثعالبي حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعــد، فقد تشرّفت باستلام خطابكم الكريم المؤرّخ في 23 ديسمبر 1933 المفيد بوصولكم إلى بومباي بالسلامة والمشتمل على ثنائكم الجميل لابنكم ومريدكم الذي لم يقم إلاّ ببعض الواجب عليه نحو شخصكم الكريم، وما كنت لأستحقّ ذلك الثناء كلّه، ولكن أبت عليكم شيمتكم الكريمة ومكارم أخلاقكم العالية إلاّ أن تطوّقوني بثنائكم الجميل الذي لم أكن جديراً به وعطفكم الأبويّ الذي أحفظ لكم ذكراه إلى ما شاء الله.

نزيه أفندي توجّه لطرفكم يوم أوّل يناير صحبته السلامة، نرجو وصوله إليكم. وقد أرسلنا لكم مع المذكور قائمة بأسماء النوادي التي زرتموها وأسماء رؤسائها ومديريها، وأسماء الأشخاص الذين تعرّفتم بهم أيّام إقامتكم طرفنا.

هذا مع مزيد السلام لكم من كافّة أعضاء النادي، وختاماً تفضّلوا بقبول فائق الاحترام.

ابنكم المخلص

سالم باسودان

عدن في 18 شوّال 1352 هـ [فبراير 1934 م]

حضرة الوالد الكريم سيّدي الزعيم المفدّى السيّد عبد العزيز الثعالبي حفظه الله وأطال بقاءه.

السّلام عليكم ورحمة الله. أقبّل أيديكم الكريمة عن بعد إشعاراً بواجب المحبّة والاحترام نحو شخصكم المحبوب.

سيّدي، لم يصلني منكم جواب بعد جوابي على كتابكم الأوّل من بمبي. ولذا تراني مندفعاً للسؤال عن سيادتكم متمنّياً لكم الصحّة التامّة والنجاح التامّ في مقاصدكم النبيلة وأعمالكم المبرورة. وإذعاناً لإرادتكم أقدّم طيّ هذا الخُطَب التي ألقيتها أمامكم في نادي الإصلاح والأدب في عدن، مع فيها من ركاكة وسماجة، ملتمساً من سيادتكم أن تسبلوا على العثرات ثوب سداد. وإلى سيادتكم أقدّم أيضاً قائمة بأسماء أولئك الأفاضل الذين تشرّفوا بالتعرّف بكم في عدن.

سيّدي، لقد تركتم في القلوب ذكرى لن تبرح الذهن، وقد أثّرت نصائحكم فينا وأصبحنا نتحدّث بها، بل نترنّم بذكرها صبحة وعشيّة، وقد بعثت فيّ أنا خصوصاً روحاً لم أكن أشعر بها من ذي قبل، ولذا تراني قمت بتأليف كتاب صغير سوف أرسله قريباً إلى الأخ الأستاذ محمّد علي الطاهر [صاحب جريدة الشورى بالقاهرة]، للطبع. والكتاب يحتوي على المواضيع الآتية، وقصدي من هذا أن أوقظ الهمم لا غير: الشباب، تعليم البنت، الزواج والعزوبة، الحقوق الزوجيّة، التعاون، العلم والدين، مدارس التبشير، الأخلاق، الاستذان، الإحسان، التربية، إتقان العمل، حسن الخلق،

الصومال، طائفة البهرة في عدن وغيره.

وكنت أودّ لو أتيح لي عرض كتابي هذا على سيادتكم لأحظى منكم بكلمة أجعلها تاجاً في رأسه أو إكليلاً على عنقه. ولكن أنّى لي ذلك وأنتم متّجهون اليوم فيما هو أهمّ. فادعوا لي سيّدي بالتوفيق وزوّدوني بنصائحكم الغالية، ولا تحرموني لذيذ الخطاب ولو في الشهر مرّة. وتفضّلوا يا سيّدي بقبول فائق الاحترام.

من تلميذكم المخلص

أحمد محمد سعيد الأصنج

نادي الإصلاح الإسلامي ـ عدن

عدن **1 ربيع الأول 1353 هـ، 14 يونيو 1934 م**

حضرة الوالد الكريم الزعيم العربي الجليل السيد عبد العزيز الثعالبي،

السلام عليكم ورحمة الله.

وبعـد، فقد بلغنا مروركم بعدن في طريقكم من الهند إلى مصر فتأسّفنا جدّاً لعدم مقابلتكم لأنّا لم نعلم بذلك فعفواً سيّدي.

لا نزال، يا سيّدي، على ما علمتم وما نحن عليه من العمل بجدّ ونشاط في سبيل ترقية المستوى الفكري بالبلاد... ونصائحكم الغالية هي المبدأ لنا والبروغرام [البرنامج] الذي عليه نمشي، فزوّدونا بإرشاداتكم ولا تحرمونا نصائحكم الثمينة وعزّفونا يا مولاي إذا غادرتم مصر حتى نوالي رسائلنا إليكم حيثما كنتم.

لقد اطّلعنا على ما نشرته جريدة الجهاد الأغرّ عنكم وشكرنا لكم ذكركم إيّانا، وتذكّرنا تلك الساعات التي كنّا نقضيها في مجلسكم الزاهر والتي سيبقى ذكرها عالقاً بالأذهان أبد الدهر، جزاكم الله خيراً كثيراً عن الإسلام والمسلمين.

القلاقل لا تزال في ازدياد في جزيرة العرب رغم ما يشاع عن إتمام الصلح وعن الهدنة[1]... نسأل الله أن يلطف بالأمّة العربيّة وأن يسلّمها دسائس أهل المطامع.

(1) لقد توجّه سنة 1934 وفد عربي إلى الحجاز يضمّ بالخصوص الأمير شكيب أرسلان لإقامة الصلح بين المملكة العربيّة السعوديّة واليمن، وقد كُلّلت مساعي الوفد بالنجاح

وبالختام تفضّلوا يا سيّدي بقبول فائق الاحترام. الشباب العدني يهديكم السلام العاطر ويتمنّى لكم عمراً طويلاً ومستقبلاً زاهراً.

المخلــص

أحمد محمد سعيد الأصنج

بالنيابة عن أعضاء نادي الإصلاح الإسلامي ـ عدن

أحمد محمد سعيد الأصنج

عــدن

حضرة سيّدي الوالد الكريم السيد عبد العزيز الثعالبي أمد الله في حياته، آميــن.

الســلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد، فقد تشرّفت بورود كتابكم المؤرخ في 12 جمادى الأولى 1353 هـ [أغسطس 1934 م]. ولا تسألوا مولاي كيف كان سروري به عظيماً، فشكراً لكم على هذه الذكرى، وعلى هذه العناية، أخذ الله بناصركم، نعم مولاي إنه من سوء حظّنا أنّنا لم نحظ بملاقاتكم عند مروركم بعدن وكما قلتم أن لا ذنب في ذلك على أحد، بل على المصادفة وقلّة التوفيق. مولاي، إن الشباب العربي العدني لا يزال يترنّم بذكركم صبحة وعشيّة ـ مشتاقون إلى رؤيتكم ـ متعطّشون لسماع إرشاداتكم، يدعون لسيادتكم بالفوز والنجاح والعمر الطويل، ويتمنّون أن يكونوا في ركابكم يفدونكم بالروح ويجاهدون تحت لوائكم، فهل آن الأوان يا مولاي؟ فقد سئمت النفوس هذا الصبر والخنوع، فإمّا حياة شريفة، أو الممات أوْلى.

مولاي، ذكرتم أنّه لا يهمّكم الوقوف على الأنباء الواردة من مختلف الأقطار العربيّة كما يهمّكم الوقوف على أنباء اليمن، لأنّه بيت القصيد في أنشودتنا القوميّة، وعدن بابه ومحرابه. لقد صدقتم أيها الزعيم المخلص والمسلم الغيور، ولكن آه! ما العمل؟ ومولانا الإمام حجر عثرة في المشروع، فلا هو يعمل ولا هو يترك غيره يعمل، ولا.. ولا... ومع هذا فالشعب خامل، جاهل، لا يفقه ولا يفهم. والكارثة الأخيرة لم تؤثّر فيه، لأن الرجل

جاوز الستّين من العمر وأصبح لا يفكّر ولا يحبّ أن يفكّر، وقد فقد نشاطه وهمّته وبقي ينتظر الموت وصحّته لا تزال في تأخّر. ماذا عساني أن أكتب إليه؟ وقد كتبت وكتب الكاتبون قبلي، ونصحت ونصح الناصحون قبلي، ولكن بلا جدوى. فإذا كان هناك أمل لتحسين الأحوال وترقية البلاد، فيكون ذلك بعد موته أو إذا حصل انقلاب هائل في المملكة اليمنية. أمّا المستعمرون ففاغرة أفواههم لابتلاع اليمن، وقد أصبح لإيطاليا خاصّةً قدم راسخة في صنعاء والكلّ يفهم ذلك ويتغافل عنه سوى نزر يسير من الرجال المضغوط عليهم.

وحبّذا لو أنكم تتّصلون بالسيد عبد الله بن أحمد الوزير، لأنّه رجل اليمن الأوحد ومن الذين يفهمون دقائق الأمور ويرغبون في ترقية الشعب والمملكة وتكتبون إليه من حين لآخر تبذلون له النصائح والإرشادات، فإنّه يحبّ ذلك وحضرته الآن حاكم أو عامل في الحديدة، غير أنكم إذا كتبتم له فيكون عن طريقنا. ولا بأس سيّدي أن تكتبوا لسموّ وليّ عهد الإمام سيف الإسلام أحمد، فإن قَبِل نصائحكم، فلا تضنّوا مولاي ببعض كلمات منكم عسى أن يكون لها أثرها الفعّال فتُثابون على ذلك.

أمّا مسألة وضع تقرير ضافٍ يتضمّن مطالب الإصلاحات في اليمن يشمل المالية والجيش والتعليم والإدارة والزراعة والصناعة والتجارة والمواصلات وتربية الشعب على قواعد السياسة الاقتصاديّة، فأمرٌ جليل وخطّة محمودة، ولكنّ هذه الأمور لا يفصلها إلا حكيم خبير مثل سيادتكم. فهل لكم يا حضرة الزعيم المفدّى أن تتكرّموا بشرح ضافٍ في الموضوع؟ يمكننا بعد ذلك أن نطبعه ونجعله نسخاً تُوزَّع على كلّ عامل وأمير وصاحب أمر في طول اليمن وعرضها، أو أن نعرضه أوّلاً على مولانا الإمام وأنجاله وبني عمومته ومن يهمّه أمر اليمن. نعم سيّدي، إنكم ستسدون معروفاً وتضيفون بعملكم هذا مكرمة جديدة تضاف إلى سجلّ أعمالكم الخالدة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

ساءني وبقيّة الإخوان ما عاملتكم به حكومة فرنسا وإخلافها الوعد، بعد

أن وافقت على رجوعكم إلى الوطن. ولكنّها هي فرنسا، فلا عجب إن انقلبت على عقبيها، فهي الحرباء وعسى أن يكون ذلك خيراً وليقض الله أمراً كان مفعولاً.

أمّا حضوركم في مؤتمر المسلمين الأوروبيّين الذي سيلتئم في أكتوبر القادم، فهو ضروري. فإذا لم تكونوا فيه ويكون حضرة الأمير شكيب [أرسلان] هناك وأمثالكما، فمن لمثل هذه الفرصة الثمينة من الكفؤ للعمل بأوسع نطاق منكما؟... مولاي احضروا هذا المؤتمر واعملوا فسيرى الله عملكم، وقد عملتم وضحّيتم، فثابروا وافنوا هذه النفس الكريمة في صالح المجموع.

بلّغت تحيّاتكم وأشواقكم إلى السيد علوي الجفري ونجله السيد عبد الله والشيخ باسودان وخالد عبد اللّطيف ومحمد علي إبراهيم لقمان وإخوانه وأعضاء نوادي الإصلاح بعدن والتواهي والشيخ عثمان، وأيضاً مولانا الشيخ خير الدين علم الدين إمام طائفة البهرى[1] بعدن. بل قد بلّغت كلماتكم إلى كلّ شابّ عربيّ في عدن، والكلّ بمحبّتكم هائمون وبفضلكم يترنّمون.

وبالختام تفضّلوا يا سيّدي بقبول فائق احترامي.

ولدكم المخلص

أحمد محمد سعيد الأصنج

(1) البهرى طائفة شيعية إسماعيلية.

نادي الأدب العربي

بعـــدن

عدن في 6 مارس 1935

حضرة الأستاذ الكبير والزعيم العربي الجليل السيد عبد العزيز الثعالبي، حرسه الله.

تحيّاتي واحتراماتي لذاتكم. سيّدي لنا مدّة طويلة لم نتشرّف فيها برسالة منكم، بل أستغفر الله يجب علينا أن نكاتبكم أوّلاً ولكن جهلنا بمحلّ إقامتكم عوّقنا وقد اعتمدنا فرصة توجّه الأخ السيد عبد الرحمن الجفري إلى طرفكم حرّرنا هذا الكتاب للاستفسار عن غالي صحّتكم ولعرض خدماتنا لكم.

أما الأخبار عندنا فهي مشكلة الحبشة والطليان والظاهر أن نشوف الحرب لا محالة.

يا حضرة الزعيم، كتبنا كتابين للأستاذ توفيق ذياب والدكتور هيكل حتّى يطّلع عليهما سعادتكم. فإذا رأيتم إرسالها إلى المذكورَيْن مع كلمة منكم تفضّلتم بذلك.

وختاماً تقبّلوا فائق احترامنا.

سالم باسودان

عـــدن في13 أبريل 1935

مولاي النبيل، العلاّمة الجليل، الأستاذ عبد العزيز الثعالبي، حفظه الله.

بعد السلام والأشواق وتقبيل يديكم الكريمَيْن أرجو أنكم سيّدي في عافية وخير، وقد جاءني الأخ علي محمد ناصر منذ يومين نازلاً من الباخرة الأمين وسألته عنكم فذكركم بما يسرّ ويفرح.

اليمن يا مولاي ضاعت تقريباً كلّها، فإن المحميّات أصبحت الآن بعد اعتراف الإمام بتنازله عنها جزءاً من الإمبراطورية الحمراء [بريطانيا]. وقد شرعت حكومة عدن تعمل بهمّة ونشاط لتأسيس المخافر وميادين الطيران والمطارات ومحطّات اللاّسلكي وغير ذلك من وسائل سلب الحريّة. وأقامت كلّيّة «صوريّة» لأبناء الأمراء في القلعة التي كانت سجن الأحرار مثل سعد زغلول وسعيد باشا وغيرهما، واليمن الإماميّة تتخبّط في دياجير من ظلمات الجهل والحمق.

والحبشة لا يمرّ عليها بضعة أشهر إلاّ وقد أصبحت في بطن إيطاليا وربّما غيرها أيضاً من الدول التي يجب أن تغضّ النظر عن هذا الابتلاع.

لا أدري والله يا مولاي! إن كان الشرق سينهض من كبوته وهذه حالته المختنقة من الجهل والفوضى والفقر والانحلال والتدلّي الأخلاقي.

هل يمكنكم أن تطلبوا من إدارة جريدة «كوكب الشرق» أن تتكرّم بإهداء جريدتها لنادي الإصلاح العربي الإسلامي بعدن؟ وإنّي على استعداد أن أكتب لها أخباراً من عدن حيناً فحيناً.

والسلام عليكم من جميع المحبّين، خصوصاً أعضاء نادي الإصلاح العربي الإسلامي، فإنّهم يذكرونكم دائماً ويتذكّرون آراءكم ويطبّقونها على الواقع فيجدونها تنبّؤات صادرة عن علم واختبار. هل أخبار ابن جلّول [؟] في تونس صحيحة؟ وهل يصحّ لنا أن نفرح؟ أم جعجعة بلا طحن، أسألكم لأنكم يا مولاي أعلم الناس وخصوصاً بتونس وما يجري فيها والله يحفظكم.

الوالد والإخوان والأولاد يقبّلون يديكم.

ولدكم

محمد علي إبراهيم لقمان

عدن **في 9 أبريل 1936**

جناب مولاي العلاّمة الجليل الأستاذ عبد العزيز الثعالبي، حرسه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أمّا بعد، فإني منذ زمن طويل أحاول أن أكتب إليكم ولكنّي لم أكن أعرف عنوانكم في مصر تماماً، وإن كنت أعرف في شهرتكم غنًى عن العناوين.

وجاءني الأخ علي محمّد ناصر وهو مغرم بكم وتفضّل عليّ بعنوانكم الجديد. وها أنا أكتب إليكم اليوم، وقد عدت إلى عدن من بلاد الصومال راجياً أنكم في خير وعافية.

ستذكرون أنّي كنت ذكرت لكم رغبتي في إرسال بعض أولادي إلى الخارج ليتعلّموا. وقد كتبت أخيراً خطاباً للملك غازي [عاهل العراق] ورجوته أن يسمح لنا في عدن أن نبعث عشرة تلامذة إلى العراق ليتعلّموا إسوةً بإخوانهم اليمنيّين، وذكرت أنّي سأرسل ولدَيْن من أولادي وسبعة آخرين من أبناء عدن. وإلى الآن لم يردني جواب رغم مرور 3 أسابيع.

وأظنّ أنّي سأبعث ولداً وأخاً إلى الجامعة الأمريكية في بيروت، إذا قبلت أن تخفض لي الأجرة والمصاريف، فما هو رأيكم؟ هل هذه الجامعة نافعة؟.

وهل بوسعكم يا مولاي أن تساعدونا في العراق؟.

الوالد والأولاد والإخوان وأعضاء النوادي يذكرونكم دائماً وفي كلّ حين ويتذكّرون نظريّاتكم وآراءكم وخطبكم.

والسلام عليكم في كلّ حين آمين

ولدكم المخلص

محمد علي إبراهيم لقمان

عدن

عدن في 11 شوّال 1355 هـ [25 سبتمبر 1936 م]

حضرة الأستاذ الجليل المجاهد المصلح ذي الشمم والإقدام الزعيم العربي الكريم السيد عبد العزيز الثعالبي. أمتع الله بجهوده ووجوده. آميــن.

بعد إهداء أفضل التحيّات وأجزل السلام. وبعد ففي ساعة سعيدة شرّفنا مشرّفكم الكريم رقيم 26 رمضان، فكان له الأثر العميق في الأفئدة بشعور الممنونيّة من تفضّلكم بتلك التمنيّات المخلصة الرقيقة التي أفهمت بأنّا لا نزال منكم على بال. وبدورنا نرفع إلى سيادتكم تهانينا بالعيد السعيد، لا زلتم تستقبلون أمثاله القينة بعد الأخرى مع تحقّق الآمال ونجاح الأعمال.

أمّا ما أشرتم إليه يا مولاي ممّا سمّيتموه الحفاوة البالغة، فإنه لم يصدر منّا شيء يكافىء جزءاً من مليون من مجهوداتكم العامّة الإصلاحيّة، وكلّ ما في الأمر إن هو إلاّ إشارة لطيفة - لا تستحقّ الذكر بل الشكر - إلى شعور الامتنان الذي غمر النفوس من جهادكم المستمرّ في سبيل العالم الإسلامي والعربي بنوع خاصّ. وأنّى لنا أن نقوم بواجب من كرّس حياته العزيزة ووقته الغالي الثمين لإنارة سبيل الحياة السعيدة للأمّة الإسلاميّة وتقوية عناصر الحيويّة في الشعب العربي.

فإن تفضّلتم يا سيدي وذكرتم ما قام به ناديكم وثمرة غرسكم «نادي الأدب العربي»، فما ذاك إلاّ منّة أخرى مضافة إلى منّكم الجمّة وفضل آخر يفيض به كرم خلقكم الفيّاض! وضناً بوقتكم المستغرق لجليلات الأعمال أختم رقيمي كما بدأته بعطر الشكر وكبير الامتنان من كلّ أعضاء النادي وبالخصوص الشيخ سالم باسودان وجميع الأندية والشعوب الإسلاميّة والعربيّة بنوع خاصّ،

عواطف وتمنّيات لأن يتمّ الله لكم ما تأملونه ويختم مهمّتكم في الهند بنجاح تامّ وباهر ويحفظكم فخراً وذخراً لخير الشرق والإسلام، ونرجو أن يكون حظّنا وافراً من مقامكم بيننا عند عودتكم إن شاء الله...

وفي الختام تقبّلوا من أولادكم عظيم الإجلال والتقدير والشكر.

من ولدكم المخلص
عبد الله علوي الجفري

[من الأمير عبد الكريم فضل سلطان لحج إلى الشيخ عبد العزيز الثعالبي]

جناب عزيزي قرّة عين الآمال العربيّة الأستاذ السيّد عبد العزيز الثعالبي، حفظه الله.

أهديكم عاطر سلامي وجزيل تحيّاتي، وصلني كتابكم الكريم وإنّي أيّها الصديق لا أنسى تلك اللّيالي الزاهرة أثناء إقامتكم في لحج، وما كان ينثر فيها من جواهر ألفاظكم وأبحاثكم. وقد أحسست بالوحشة والانقباض من يوم فراقكم حتى أتى العيد وانقضى، وإذا بخطابكم الذي كنت أرقبه في كلّ يوم ورد عليّ في السادس من أيّام العيد، فكان ذلك أوّل أيّام العيد عندي. فلا أبعده الله منك ولا جعله آخر العهد بك، وجعلك تستقبل أعياداً كبرى كما تحبّ وترغب. وإنّا لم نقم لكم إلاّ بالواجب ولا شكر على واجب. ولقد وقع قولكم لنا ـ بأنكم متصوّرون أن العودة من رحلتكم إلى الوطن ستكون عن طريق آخر وأنّ زيارتكم هذه ربّما تكون آخر زيارة لنا ـ أسوأ وقع لأنّ ذلك يحرمنا من قرب الاجتماع بكم ويحول دون الآمال المنوطة بكم وبأمالكم في تشحيذ أذهان القوم لمثابرة السعي في صالح القضيّة العربيّة. لأن قربكم وقرب أمثالكم من ملوك العرب وأمرائهم واحتكاك بهم على الدوام ممّا ينشّطهم ويكون عوضاً لهم وممهّداً لكلّ ما يتصوّرونه من متاعب ومشاقّ. وفي نظري أن التكوين المرغوب للأمّة العربيّة أنتم وأمثالكم أداته، وهو رهين لما ترسمونه من حكم ووسائل. فأنتم المطالبون بالتمهيد وتكوين المجتمع وإزالة الوساوس وما يخامر القلوب من الضعف وحبّ الذات وأمثاله ممّا أنتم أوسع علماً وأدرى به منّا. وأعتقد أنكم تشاركونني

في هذه الملاحظة، وعلى كلّ فهذا ما نحرص عليه، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

أتانا جواب من الأستاذ أمين سعيد[1] عن الرغبة في إرسال أولادنا إلى مدارس مصر للتعليم صورته منقولة إليكم طيّه. فنرجوكم كتابة جواب له منّا وإرساله إلينا لإمضائه. تشكروه فيه على هذه الإحساسات التي نقدّرها حقّ قدرها، وتُفهِموه أنّنا لا نريد منهم القيام بالتكاليف اللاّزمة لإقامتهم هناك، بل يكفي أن يشملوهم بالعناية في التعليم والتهذيب، مع استعدادنا لدفع المبلغ الذي يخصّصونه لكلّ تلميذ، ونحبّ منكم إفادتنا عن قراركم النهائي بخصوص طريق عودتكم إلى الوطن[2]. فإذا كان من جهتنا فإنّنا نحبّ أن يصحبكم الولد فضل عبد الكريم إلى مصر ومعه الأولاد الصغار لأجل تمرينهم على الأسفار ولكي تدرسوا المسألة هناك وتتّصلوا بالجهات اللاّزمة. وإذا كانت عودتكم من جهة أخرى فنجعل تدبيراً آخر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

12 شوّال 1355 هـ [26 ديسمبر 1936 م]

الإمــضــاء

عبد الكريم

(1) أمين سعيد (1892 ـ 1967) أديب وصحفي سوري عاش في مصر في الثلاثينات وأنشأ فيها مجلّة «الرابطة العربيّة» التي صدر عددها الأوّل في ماي 1936، وقد نشر فيها الشيخ عبد العزيز الثعالبي عدّة مقالات وفصول. وعاد أمين سعيد إلى سوريا إثر اندلاع الحرب العالميّة الثانية وأصدر فيها جريدة «الكفاح» التي استمرّت في الظهور حتى سنة 1954.

انظر: «عبد العزيز الثعالبي، من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب»، تقديم وتحقيق الدكتور صالح الخرفي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995.

(2) عاد الثعالبي إلى تونس يوم 26 يوليو 1937، قادماً من ميناء مرسيليا بفرنسا عن طريق البحر.

عدن 9 صفر 1356/ 21 أبريل 1937 م إلى القاهرة

حضرة محبّنا وصديقنا العلاّمة الفاضل الأستاذ الأكبر السيد عبد العزيز الثعالبي، المحترم،

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته نرجوكم بخير، كنّا سُرِرْنا برجوعكم من الهند إلى هنا ولم يمض أسبوع إلاّ وأوحشتمونا بالفراق. فعساكم بلغتم السلامة وأنتم الآن مسرورون بالصحّة ونراكم عمّا قريب بأسرّ حال.

وصلنا كتابٌ باسمكم تجدونه طيّ هذا ونظنّه من الهند من بعض المحبّين يصلكم إن شاء الله وأنتم بخير.

ختاماً اقبلوا سلامنا وواصلونا بأخباركم السارّة ودمتم لمحبّكم.

محمود عبد الله حسنعلي

عدن في **14** شعبان **1356** هـ [سبتمبر **1937** م]

حضرة الزعيم الإسلامي العظيم السيد عبد العزيز الثعالبي، حفظه الله، آمين.

تحيّة طيّبة مباركة،

أكتب إليكم يا سعادة الزعيم المحبوب بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن شبّان الإسلام في عدن الذين كلّفوني أن أبلغ معاليكم احترامهم وإخلاصهم وإعجابهم بما تقومون به من جلائل الأعمال لصالح الأمة الإسلاميّة أينما حللتم، مقدّرين لكم تلكم التضحيات الجسام فحيّاكم الله.

إنّنا يا سعادة الزعيم المحبوب نتابع أخباركم بكلّ دقّة ونجتمع حول المذياع «الراديو» لنقف على أخباركم وأخبار إخواننا شبّان تونس الخضراء، لأنّها تهمّنا كما تهمّنا فلسطين ومكّة والمدينة كوطن إسلامي. فطمّنونا يا صاحب السعادة على موقفكم ومستقبل إخواننا التونسيّين الأشاوس، خصوصاً بعد الحادث الأخير الذي حصل فيه سوء التفاهم في تونس حول الخطبة السياسيّة التي كنتم مزمعين على إلقائها.

اسمحوا لي يا معالي الزعيم المحبوب بأن أسألكم عن بعض نقط مهمّة تمسّ القضيّة العربيّة الإسلاميّة، لأنّكم أخبر الناس بالأمور ومجاريها، وإذا تكلّمتم فعن خبرة وبعد نظر. أدامكم الله ذخراً للعروبة والإسلام:

1 ـ ماذا ترون في قضيّة تونس في الحاضر والمستقبل، هل تنتظرون لها استقلالاً حرّاً كالعراق أو أحسن؟.

2 ـ ما رأيكم في مركز مصر اليوم؟ هل تتزعّم البلاد العربيّة؟ وهل من الممكن أن يكون ملكها الحالي [فاروق، 1936 ـ 1952] خليفة المسلمين مع عدم وجود القوّة المطلوبة، أي فقدان الروح العسكريّة ومتطلّبات الدفاع وما أشبه ذلك؟.

3 ـ يظهر لكلّ عربي أنّ تركيا تحمل نوايا خبيثة نحو العرب وبلادهم، فيوماً تدسّ سمّها في العراق، ويوماً تريد خطف أسكندرونة وأنطاكية، فما رأيكم؟ ماذا تريد تركيا من العرب وما هي مطامعها في بلاد العرب؟.

4 ـ سوريا ولبنان: يعتقد اللّبنانيون [المسيحيّون] أن من صالحهم أن لا يتّحدوا مع العرب المسلمين خوفاً من أن يذوبوا فيهم، ويفضّلون البقاء في أحضان فرنسا منفصلين عن سوريا. فماذا ترون في هذه السياسة؟.

5 ـ هل تُحَلّ قضيّة فلسطين بغير القوّة؟ وهل يمكن أن ينجلي عنها الإنكليز رغم أنّهم ينتظرون حرباً في البحر الأبيض ويرون في ميناء حيفا الجديد طريقاً للمواصلات عند اشتداد الأمر؟.

5 ـ لماذا يصرّ الإنكليز على أخذ العقبة من ابن السعود؟ وهل يجوز أن يتخلّوا عنها سلميّاً رغم انتظارهم لحرب قادمة؟[1].

7 ـ اليمن يا مولاي عرضة لاستعمار الأجانب، والمنافسة اليوم جارية بين الطليان والإنكليز عليها، والقوم في سبات عميق: أخذ رشوات، مصالح فرديّة، جهل مركّب، عدم استعداد، أمراض وأوبئة، والحال على وجه العموم لا تُفرح أيّ عربي مسلم. فماذا ترون في مستقبلها؟ وهل الثورة الأهليّة إذا

(1) لقد قرّرت بريطانيا فصل العقبة عن المملكة العربية السعودية وإلحاقها بشرق الأردن.

اندفع لهيبها في اليمن تُصْلِح الأمـور؟ وهو ما لا نحبّه لأنّ الثورة دائماً تتمخّض عن ويلات ونتائج مخيفة.

وبالختام تقبّلوا احترامنا وتحيّاتنا والسلام.

المخلـص

أحمد محمد سعيد الأصنج

رئيس نادي الإصلاح العربي ـ بعدن

عدن 29 الحجّة 1356 هـ [فبراير 1938]

حضرة سيّدي الزعيم الإسلامي الكبير السيّد عبد العزيز الثعالبي الهمام.

السلام عليكم ورحمة الله أيّها المجاهد الباسل وقد تشرّفت بورود خطابكم مؤرّخ في 25 الماضي، ولا تسألوا مولاي كم كان سروري به عظيماً وقد تلوته في حفل حافل في دار النادي [نادي الإصلاح العربي الإسلامي بعدن] وتناقلته الأيدي وهتف الجمع لكم كثيراً وتضرّع الشباب إلى الله أن يمدّ في عمركم وأن يرزقكم العافية لتؤدّوا الرسالة الإسلاميّة حتى النّهاية، حتى إذا ما فارقتم الدنيا، فارقتموها وأنتم قريرو العين بأعمالكم الخالدة التي إن لم يقدّرها لكم شباب تونس والجزائر ومراكش، فقد قدّرها لكم شباب الجزيرة العربيّة والعراق ومصر وسوريا الخ.. نسأل الله أن يوفّق شباب تونس إلى الانضواء تحت رايتكم والعمل بسديد آرائكم، فأنتم قد أوقفتم حياتكم الطيّبة لخدمة البلاد الإسلاميّة، ولا غرض آخر لكم في هذه الدنيا.

أشكر مولاي على شرح الموقف في تونس وتصوير الحالة الحاضرة في البلاد الإسلاميّة، غير أنّي أطلب المزيد، فاسمحوا لي أن أسأل ثانياً:

1 ــ ماذا ترون سيّدي في مسألة فلسطين الحاضرة ومستقبلها وهل يتخلّى عنها الإنكليز؟.

2 ــ هل تنضمّ شرق الأردن إلى ممالك ابن السعود؟ وهل يسمح بذلك الإنكليز؟ أم تبقى مع فلسطين وسوريا وتتكوّن منهما حكومة عربيّة؟.

3 ــ هل يتخلّى الإنكليز عن العقبة لابن السعود؟.

4 ــ هل تقوم حرب في أوروبا قريباً؟.

5 ـ هل لا يمكن ضمّ تونس والجزائر ومراكش تحت سلطة إسلاميّة واحدة؟.

6 ـ هل في صالح الإسلام والعرب انتصار اليابان وبلعه للصّين؟.

7 ـ هل تتطوّر الحالة في مصر فتستغني عن الإنكليز بتاتاً؟.

8 ـ اليمن اليمن! الإمام أسير الفراش، فإذا مات تزاحم وتقاتل أبناؤه على الإمامة وظهر غيرهم ممّن يتعطّشون للإمامة. وهنا يكون التطاحن فيجد الأجنبي ثغرة يدخل أو يتداخل منها. فما يجب في نظر مولاي على الشعب أن يعمل إزاء مثل هذه الحادثة متى وقعت؟ وكأنّي بها واقعة لا محالة، لا سمح الله.

تفضّلوا مولاي، بقبول فائق الاحترام. يُهديك السلام العاطر الإخوان جميعاً أعضاء نادي الأدب وعلى رأسهم السلطان أحمد فضل والسيد عبد الله علوي الجفري وأعضاء نادي الإصلاح الإسلامي، ومنهم صالح لقمان وإخوانه وآل عبد الله حسنعلي وجميع إخواننا اليمنيّين.

مولانا السلطان عبد الكريم فضل سلّمناه كتابكم المُرْسَل بعنوانه.

نتشرّف بأيّ حاجة أو خدمة تبدو لكم.

المخلص

أحمد محمد سعيد الأصنج

مراجع التحقيق

- **إدريس عماد الدين**: تاريخ الخلفاء الفاطميّين بالمغرب، تحقيق محمد اليعلاوي، د.غ.إ، بيروت، 1985.
- **(الجندي)** أنور: عبد العزيز الثعالبي رائد الحريّة والنهضة الإسلاميّة، د.غ.إ، بيروت، 1984.
- **الخرفي** (صالح): عبد العزيز الثعالبي من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب، د.غ.إ، بيروت، 1995.
- **ابن خلدون**: المقدّمة، (بلا تاريخ)، الطبعة المصريّة.
- **زيادة** (نقولا): دراسات في الثورة العربيّة الكبرى، عمّان، 1967.
- **زين** (نور الدين زين): الصراع الدولي في الشرق الأوسط، بيروت، 1971.
- **عثمان** (عبد العزيز): جغرافيّة الوطن العربي، مكتبة ربيع بحلب (بلا تاريخ).
- **ابن ميلاد** (أحمد) و **إدريس** (محمد مسعود): الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية (الجزء الأوّل)، بيت الحكمة، تونس، 1991.
- **الهمداني** (الحسن بن أحمد): صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، الرياض، 1974.
- **ياقوت**: معجم البلدان، القاهرة، 1906.
- **اليماني** (عبد الواسع): تاريخ اليمن، طبعة القاهرة، 1346 هـ.

الـفهـارس

1 ـ فهرس الأعلام

2 ـ فهرس الأماكن والبلدان

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ذ ـ

ـ ر ـ

ـ ز ـ

ـ س ـ

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ض ـ

ـ ط ـ

3 ـ فهرس المواضيع

الموضوع الصفحة

Présentation

Cet ouvrage dont le titre «al-Rihla al Yamaniyya» est choisi par son auteur lui-même Abdelaziz Thaâlbi, comporte cinq parties:

1. La Rihla elle-même, qui est la relation du voyage effectué par l'auteur au Yémen du 12 août au 17 octobre 1924. Ce récit de voyage encore inédit se présente sous forme de lettre en date du 11 octobre 1924 adressée par Thaâlbi à son ami Moncef Mestiri, membre de la commission exécutive du vieux Destour.
2. Une première série de documents relatifs aux efforts déployés par l'auteur au cours de ce voyage, auprès du souverain Yéménite l'Imam Yahia et des Sultans du protectorat britannique d'Aden, en vue de contribuer à la réunification du Yémen.
3. Une deuxième série de documents relatifs à la mission accomplie en 1926 par Thaâlbi au Hidjaz et au Yémen, en vue d'offrir sa médiation pour le règlement du conflit survenu entre l'Imam Yahia et le roi Abdelaziz Ibn Séoud au sujet de la province Yéménite de l'Asir conquise la même année par l'armée séoudite.
4. Rapport relatif au voyage effectué par l'auteur à Aden du 29 novembre au 6 décembre 1936.
5. Enfin les textes de la correspondance échangée entre thaâlbi et certains yéménites, au sujet de la réunification du Yémen.

Il y a lieu de signaler que malgré les efforts fournis par Thaâlbi, le Yémen restera longtemps divisé en deux pays distincts: le Yémen du Nord et le Yémen du Sud.

Ce n'est qu'en 1990 que les deux pays seront unifiés sous le nom de «République démocratique du Yémen».

l'éditeur



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان
لصاحبها : الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء ، بناية الأسود
تلفون: Tel: 009611-350331 / خلوي: Cellulaire: 009613-638535
فاكس: Fax: 009611-742587 / ص.ب. 113-5787 بيروت ، لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P.:113-5787 Beyrouth, LIBAN

الرقم: 1997 / 4 / 2000 / 317

التنضيد : كومبيوتايب للصف الطباعي الألكتروني

الطباعة : دار صادر ، ص.ب. 10 - بيروت

ABDELAZIZ THAALBI

(1876 - 1944)

AL-RIHLA AL-YAMANIYYA

(Relation de voyage au Yémen)
(12 Août - 17 Octobre 1924)

Texte arabe établi et annoté

par

Hamadi SAHLI

